كتاب

السودان

بين يدي غردون وكتشنر

تأليف

ابراهيم فوزي باشا

الجزء الثاني

طبع على نفقة مؤلفه وادارة جريدة المؤيد

(طبع بمطبعة الآداب والمؤيد سنة ١٣١٩ هجرية)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على آلائه. والصلاة والسلام على سيد رسله وأنبيائه. محمد وآله وصحبه وأوليائه

وبعد فقد انهينا في الجزء الاول من كتاب (السودان بين كتشنر وغردون) الى آخر حادثة سقوط الخرطوم بقتل الطيب الذكر (غردون باشا) ووقوع البلد في قبضة المهدي ووقوعنا والحامية في أسره. وبقى أن نذكر من موضوع هذا الكتاب ما تلا ذلك فنقول وبالله المستعان

قيام دولة المهدي في السودان

لما كانت مدينة الخرطوم عاصمة أقاليم السودان المصرى فسقوطها في قبضة المهدي صير السودان كله خاضعاً له ولا عبرة باقليم دنقلة الذي كان وقتئذ مقر الحملة الانكليزية كما انه كانت توجد مدينتان لم تخضعا له بعد وهما مدينة سنار عاصمة اقاليم سنار ومدينة كسلة عاصمة مديرية (التاكا) ومهما يكن من الامر فان حالة تينك المدينتين كانت منذرة بقرب سقوطهما وسيأتي تفصيل ذلك كله في مكانه

بلغ عدد القتلى من سكان الخرطوم يوم سقوطها أربعة وعشرين الف رجل وقتل الاطفال وكل ذكر ولو كان رضيعاً غير ان النساء لم يقتلن وابتدأت هذه المذبحة عند طلوع الفجر. وقبيل شروق الشمس أصدر الخليفة (شريف) الاوامر

﴿ فهرست الجزء الثانى من كتاب السودان بين يدى غردون وكتشنر ﴾

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

بالكف عن القتل وأخرج السكان من منازلهم بملابس النوم وأصدر أمين بيت المال أمراً الى الحاج خالد العمرابي بالوقوف على باب الخندق لتفتيش كل خارج من سكان المدينة الذين أمروا بالبقاء في بقعة بين الخندق ومعسكر ابن النجومى معرضين للبرد القارس والحر المحرق واستولى الدراويش على المنازل وفي اليوم التالي بدأ بتعذيب الناس حيث يستدعون صاحب المنزل وكبار أفراد عائلته الى منزل الامين ويبتدؤن مكالمته بقولهم له حيث انك كفرت بالله ورسوله وحاربت المهدى فقد أهدر الله ورسوله دمك وحرم مالك عليك وصيره حقا للمهدي والمهدي عفا عن دمك ولا سلامة لك فى الدنيا والآخرة الا بتسليم جميع أموالك حتى الخيط والخياط وسواء أذعن لهذه الاكاذيب وسلم ماله أو لم يسلم فلا بد من ضربه الف سوط والمرأة نصفها وتوثق يداه ورجلاه ويلقى على الارض ويصب عليه الماء البارد فى الليل

وبقى السكان فى هذا العذاب شهراً حتى جمعت الاموال والامتعة فى بيت المال

ومن الحوادث التي وقعت يوم سقوط الخرطوم ان رجلا اسمه (كريب) من أقارب المهدى ومن حراس الخليفة شريف الذين يطلق عليهم اسم (الملازمية) ومعه نحو عشرة من أقاربه دخلوا منزل رجل مصري اسمه ابراهيم له سبعة إخوة فقتلوا الثمانية وفتشوا المنزل فلم يجدوا به مالا وكان لابراهيم غلام فى التاسعة من العمر فاخفته أمه ونساء أعمامه فى وسط الامتعة خوفا عليه من القتل فعثروا به فى غضون التفتيش وأخرجوه فترامت أمه ونساء أعمامه على اقدام كريب ورفقائه وقلن له ان والده وأعمامه السبعة قتلوا فنسألك بالمهدى الا ما تركت لنا هذا الصبي فالتفت لهن وقال كيف

تتركه ونحن لم نجد فى بيتكن ذهباً ولا فضة وكلكن نساء مسنات ليس بينكن من تميل النفس اليهن صاح برفقائه وقال قطعوا الصبي ثماني قطع واتركوا الكل واحدة منهن قطعة ولم يتم هذه العبارة حتى تناول رفقاؤه الصبي وقطعوه ثماني قطع والقوا الكل امرأة قطعة ومثل هذه الحادثة يعد بالالوف ذكرنا منها هذه للدلالة على اخواتها

وأخذت النساء سبايا وأرسل أمين بيت المال نحو الف عذراء من بنات أعيان المصريين فاختار المهدى منهن ثلاثين فتاة من ذوات الحسن والجمال آباؤهن من وجهاء المصريين سكان المدينة ووزع الباقي على حرسه وذوي قرابته وكلهن كموطوآت بملك اليمين

وأرسل أمين بيت المال عدداً عظيما من النساء الى عبد الله التعايشي فابقى لديه العذاري منهن ووزع الباقى على حراسه وذوى قرابته ايضا وصار كلما قضى وطره من واحدة يهديها الى أحد رجال حاشيته

وأرسل أمين بيت المال أيضا عشرات من النسا الى الخليفتين على بن حلو ومحمد شريف وكان عملهما بهن مثل عمل عبد الله التعايشى. وكثير من أولئك النسوة امتنعن من الفسق والفجور بهن فعذبن عذابا اليما وضربن ضربا مبرحا وحلقت شعور رؤسهن وكثير منهن فضلن الموت على الحياة ورأيت امرأة أحد الصناجق وهى تركية من جهة أبيها وسودانية من جهة أمها انتحرت تخلصاً من العذاب الذى نالها على أثر امتناعها من تسليم نفسها لعبد الله التعايشي وضربت امرأة الشيخ محمد السقا شيخ القراء فى الخرطوم وعذبت ستة شهور لامتناعها من تسليم نفسها الى عبد الله التعايشي والخلاصة ان عدد النساء اللواتي سبين لا يقل عن خمسة وثلاثين الف فتاة

وشاهد ذلك انك تجد عند أصغر أمير من أمراء المهدى عشرين فتاة أما الامراء الكبار وأقارب المهدى فان اللواتي يأخذهن كل واحد منهم يزيد عددهن على العشرين عذراء ولا يظنن القارئ انهم يختلسون أولئك الفتيات بل يأخذونهن بامر من المهدى أو أحد الخلفاء أو أمين بيت المال موضحاً فى كل أمر اسم الفتاة واسم أبيها وجدها وأوصافها وأنها أعطيت لفلان غنيمة له يحل له وطؤها بملك اليمين ويجوز له بيعها مالم تصر أم ولد ومن وجدت عنده من اتباع المهدي امرأة وليس لديه أمر بالبيانات التى شرحناها تصادر أمواله ويقبض عليه ويعامل معاملة سارق

وكان المهدي أصدر أمراً حظر فيه سبي كل امرأة لها بعل ولكن هذا الامر كان لايعمل به الا اذا كانت المرأة طاعنة فى السن أو قبيحة المنظر لاتميل اليها النفس وكان أمين بيت المال يمسك النساء ويفتشهن بعد خلع ملابسهن فمن وجدت سليمة من العيوب أخذت ومن وجد بها عيب انتهرت وطردت

هذا مجمل مافعله المهدي بسكان الخرطوم من جهة الاموال والاعراض ذكرته بغاية الايجاز لانني اذا تتبعت التفصيل أفنيت الاعوام. دون أن أوفي حق المقام

وأصدر المهدي منشوراً قال فيه ان جميع الذين خرجوا من فقرة الخرطوم اى (خندق) الخرطوم لايعتبر زواجهم شرعياً لانه حصل في زمن الفترة التى كانت قبل بعثته وأمر بعقد زواج كل زوجين من أولئك الاسرى واذا كان في المرأة شيء من الحسن أو بقية من الشباب لايستأنف عقد زواجها بل تؤخذ غنيمة

وكتب أمين بيت المال الى المهدى يستفتيه في أنه وجد بالخرطوم عتق أعتقهم مواليهم قبل فتح المدينة بزمن بعيد فهل يعاملون كالاحرار أو الارقاء

(تمت)

فأجابه بان الذين أعتقوا كفار لا يعتبر عتقهم وأمره بمعاملة أولئك العتق معاملة الارقاء

ذكر مقابلة المؤلف مع امين بيت المال

ذكرت انى أسلمت نفسي ومن معي من الجنود في منتصف النهار فقبضوا عليّ وأوثقوني كتافاً وساقوني الي أمين بيت المال يحيط بي نحو مائتي نفر من الدراويش شاهرين سيوفهم وكلهم يصيحون بي ويقولون يا كافر ياعدو الله فالفيته بمنزل أبي بكر الجاركوك أحد أعيان المدينة ووجدت المنزل مملوأ بالنساء وهو مشتغل بفرزهن

ولما أوقفت بين يديه كان مشتغلا بالنظر الى فتاة فتانة وهي مجردة من ملابسها وبيدها خرقة تستر بها عورتها وهو يقلبها يمنة ويسرة والدموع تتساقط من جفونها وهي تقول « رضينا بقضائك يا الله » وبعد ان فرغ من أمر الفتاة التفت نحوى وقال أعوذ بالله من هذا الوجه الابيض ثم التفت للحراس الذين حولي وقال لهم من هو هذا الكافر فقالوا هو ابراهيم باشا فوزي فقال لماذا لم تقتلوه فقالوا تركناه ربما يظهر أمواله وأموال غردون والحكومة ثم صاح بى وقال دلنا يا كافر على هذه الاموال فقلت ان أموالي أخذت من منزلي وأما أموال غردون والحكومة فلست موكلا بحفظها ثم استل سيفه من غمده وتقدم الى وقال هذا الكافر لا يظهر هذه الاموال وقتله خير من استحيائه فامسكه من حوله وقالوا له أرجئه ريثما نعذبه اويدلنا على الاموال ثم صاح بالعبيد فطرحوني على الارض وجلس واحد منهم على رأسي وأمسك اثنان السياط وضرباني حتي كلت سواعدهما فابدلا

باثنين آخرين حتى سال الدم من جسمى فقلت لهم ليس لغردون مال وليس للحكومة مال غير أوراق البون

وبعد ان تمزق جسمي زجوني في السجن وبقيت ثلاثة أيام فيه يسوقونني للاستنطاق والضرب في كل غدوة وروحة

وفي اليوم الثالث أخرجوني من السجن موثوق الكتاف يحيط بي الحراس وأرسلوني الى منزلي فوجدت به أحد الامراء المشهورين بالورع والتباعد عن غل الغنائم يجمع أمتعتي وكتبها في ورقة عرضها عليّ فلم أجد شيئاً مفقوداً منها ثم قال لي ان الاموال الظاهرة كلها استوليت عليها ولم يبق غير ما يخفى في بطن الارض فقلت اني لم أخف شيئاً في بطن الارض فأخذ يوعظني تارة ويهددني أخرى وآناً يثب عليّ بالسيف فقلت له انني لم أخف شيأ ولم يكن لديّ مال غير ما استوليت عليه فساقني ومعي ما خف حمله من الامتعة الذهبية والفضية والنقود وبعض حلى مجوهرة الى أمين بيت المال فلما نظرني قال كيف أبقيتم هذا الكافر حياً حتى الآن فقال له الامير نحن نؤجل قتله حتى يظهر لنا أمواله وأموال غردون والحكومة ثم قال أمين بيت المال لذلك الامير ألم يك عنده نساء فقال له عنده محظيتان حبشيتان أخذتهما لنفسي فقال أمين بيت المال كيف تأخذهما قبل عرضهما عليّ وأخذ الاذن بهما مني فأجابه الامير اني أخذتهما بسيفي ولا أطلب من بيت المال غيرهما فبارك لي فيهما فقال له قد باركت لك فيهما وملكتك اياهما فشكره وأنا واقف وساعداي موثوقان كتافاً

ثم تقدم امين بيت المال الى الصناديق التي فيها امتعتي وفتحها فوجد ضمنها صواني وطواقم للقهوة والشاي مصنوعة من التبر على طريقة صناع الخرطوم

الماهرين وهي عبارة عن اسلاك مسبوكة يتألف منها كل واحدة من تلك الاواني فالتفت الى أمين بيت المال وقال لي يا كافر ياعدو المهدي ومحارب انصاره لماذا اتلفت ذهب المهدي وفضته وصنعتها أواني مثل مايصنعه الكفار فقلت له اني صنعت ذلك لما كان هذا التبر ملكا لي ولما صار الآن ملكا للمهدي فانه يصنع به مايشاء. فقال لي من أين لك انه كان ملكا لك مع انك محارب للمهدي وكل مافي الخرطوم ملك حلال له حتي الارواح وضربني بسوط كان في يده ضربتين على رأسي حتى خضب بالدماء وجهي ثم قال خذوه الى الامير ابي قرجة ليريحه من الدنيا . فاخذت بحالة لا أستطيع وصفها حيث كان يحيط بي نحو ثلاثمائة درويش شاهرين السيوف والحراب حولي وهم يصيحون يا كافر ياعدو الله حتى بلغت منزل أبي قرجة وكان نازلا بديوان المديرية فالفيت بالباب جما غفيرا من الناس وسمعت قهقهتهم من البعد وهم مزدحمون فادخلوني على الجمع المتكوف فنظرت رجلين مجردين من ملابسهما فامعنت النظر فيهما فاذا احدهما حامد أغا صالح أحد الصناجق وهو ابن صالح بك المك صاحب فداسي الذي تقدم لنا ذكره والثاني من ذوي قرابته والدراويش يطعنونهما بالحراب طعنا لا يعجل موتهما فايقنت اذ ذاك انهم سيفعلون بي مثل مايفعلونه بهذين الرجلين وأخيرا سقط الرجلان مضرجين بالدماء على الارض وتطاير دمهما على وجهي وأصاب ملابسي فاجهزوا عليهما وكان اتفاق لمشاهدة ذلك المنظر الفظيع بقصد ارهابي لادلهم على ما يطلبونه ثم ادخلوني على أبي قرجة فابتدأته بالتحية فرد باحسن منها فاطمأن خاطري بما توسمت فيه من البشاشة فالتفت الى الحراس وقال لهم من هذا فتقدم رئيسهم اليه وأسر اليه قولا لم أسمعه فالتفت اليّ بسكينة وحنان وقال فكوا وثاقه ففعلوا

وأمرني بالجلوس على الارض فجلست وكنت وقتئذ في أشد حالات الظمأ وآلام الضرب فقلت له ياسيدي الامير أأتجاسر بطلب شربة ماء قبل الممات فقال لي « أبشرك بكل خير » وأمر أحد غلمانه باحضار شراب من العسل ممزوج بالماء فقدمه لى فتناولت جرعة منه لم تقم بسد الظمأ واشتدت بى الحاجة الى طلب الماء فاعدت عليه الرجاء بطلب الماء فامرلي بماء ممزوج بشيء من خبز الذرة اسمه (الابريه) يغذي ويزيل الظمأ فتناولت منه بقدر الحاجة وبعد برهة خاطبني وقال ان الدنيا فانية وان زمن المهدي ليس كما تقدمه من الازمان وان المال أصبح ملكا له ومن اخفاه عنه وقع في غضب الله فقلت له يا سيدي ليس لي مال غير ما أخذ مني وغردون لا مال عنده والخزانة الاميرية ليس فيها غير أوراق البون فقال أتحلف لي بالله العظيم فقلت احلف بالله انني ما قلت الا الصدق فرفع صوته وقال للحراس الذين جاؤا بى ارجعوا من حيث جئتم فان الرجل صادق فيما يقول واحذروا من ان يمسه أحد بسوء واعلموا انّ من مسه بالماء أمسه بالسلاح والتفت اليّ وقال لا بأس عليك ليهدأ روعك فانت آمن من كل سوء ثم أمرني بالبقاء في منزله فبقيت به ليلتين كان يقدم لي الغذاء الكافي في خلالها وكان كريما يأكل معه نحو ثلاثين رجلا من خواصه وكانوا يقدمون لي الطعام منفرداً فاستعطفني في ذلك وقال انه لا يمنعه من تناول الطعام معي غير شيء واحد وهو انني لم أقابل المهدي ولم آخذ عليه البيعة فاظهرت له رغبتي في ذلك وانني أصبحت لا أطلب غير شمولي بعفو المهدي وتمتعي برضاه عني

ذكر ما غنمه المهدي من الاموال والذخيرة من الخرطوم

كان سكان الخرطوم أغنى أهالي السودان واكثرهم مالا ولما أحسوا

بقدوم المهدي عليهم هجرا اكثرهم الخرطوم ولحقوا بمصر وكانوا من الطبقة الرفيعة جداً وأرسل اكثر التجار أموالهم الى مصر وغيب الباقون أموالهم في بطن الارض ولما قتلوا يوم سقوط المدينة ذهبت ولم يهتد أحد لمحلها ولذلك يقول العارفون إن اكثر الاموال مودعة في بطن الارض ولم يحصل بيت المال على شيء يذكر من المال. ومن المؤكد ان الامراء كانوا لا يقدمون الى بيت المال اكثر من ربع ما يعثرون عليه ومع ذلك كله بلغ ما اجتمع في بيت المال نحو ثلاثمائة الف جنيه ونحو ثلاثمائة الف ريال من المجيدي والنمساوى ونحو ثلاثين قنطارا من الذهب المصنوع حلياً ونحو اربعمائة قنطار من الفضة

أما أثاثات المنازل والرياش والملابس فانها لا تدخل تحت حصر وقد جمعت تلالا يخالها الرائي جبالا

وأما الاسلحة فانها مدفعان من كروب و ٣ مدافع مترليوز و ٢٠ مدفعا جبليا و ٦ آلاف بندقية رامنجتون جيدة و ٤ آلاف بندقية رامنجتون بها خلل وكانت مودعة بالمخازن وعدد لا يدخل تحت حصر من البنادق ذوات الطلقتين ومن طراز آخر قديم

وأما الذخيرة فكما يأتى ٢٠ قنبلة لمدافع الكروب أما المدافع الجبلية فقنابلها موجودة بكثرة و ١٠ آلاف صندوق مملوءة بالخرطوش و ٨ آلاف اناء (برميل) مملوءة بارودا

ذكر قتل فرج باشا الزين

لما دخلت ميسرة الدراويش من ميمنة خندق المدينة كان فرج باشا الزين قومندان الحامية وقتئذ واقفا عند باب المسلمية فتنكر ولبس ملابس

جندي بسيط وحذا حذوه القائمقام سرور بهجت بك واختلطا مع الجنود السود وخرجا من باب المسلمية فامسكهما حراس ذلك الباب من الدراويش وفتشوهما ولدي تفتيشهما ارتاب الحراس في أمرهما حيث وجدوا عندهما ساعتين من الذهب وسلسلتين ذهبيتين ثم وجدوا مع فرج باشا خاتمه المنقوش عليه اسمه وكذلك سرور بهجت بك فقبضوا عليهما وأوثقوهما كتافا وأرسلوهما الى أمين بيت المال الذي أرسلهما الى عبد الله التعايشي وهو أمر بضرب عنقيهما فضربا وكان ذلك في اليوم التالي لسقوط المدينة

وذهب كثيرون من الناس أن لفرج باشا الزين يداً في سقوط المدينة وانه كان خائنا والحقيقة انه لم يخن ولا يد له ألبتة في أمر سقوط المدينة غير انه كان كسولاً يميل الي الراحة ويفر من التعب سيء الادارة

على ان الذي دعا غردون لتوليته هذا المنصب كونه سوداني الاصل وربما كانت توليته تجذب قلوب بني جلدته الجنود السود لمعاضدته فخاب ظن غردون فيه ولم يتحقق شيء مما كان يؤمله فيه ومراعاة للظروف ابقاه في وظيفته التي كان بخيت بك بطراق يباشرها بدلا عنه

ذكر مقابلة المؤلف للمهدي

قلت ان الامير أبا قرجة اطلقني من الوثاق وسكن روعي وآواني في داره ليلتين ثم أرسل معي مندوبين حافظوا عليّ واجتازوا النهر معي حتى أوصلوني الى منزل يوسف منصور قومندان طوبجية المهدي وأبلغه المندوبون ان أبا قرجة أرسلني له ليقدمني للمهدي فقضيت تلك الليلة في منزله وفي ظهر الغد رافقني الى دار المهدي ومعنا السيد بك جمعه مدير الفاشر فالفيناه

قد فرغ من صلاة الظهر والناس متكوفون حوله وهو يعظهم فتقدم يوسف منصور اليه وقال له يا سيدى الامام المهدي هاهو ابراهيم فوزى فالتفت الىّ بوجه باش وقال يا ابراهيم فوزى انني أعرفك منذ كنت حاكما فى مقاطعات البحر الابيض فلماذا ركنت الى الكفار ولم تسلم لي أولم يكن الواجب على مثلك اجابة دعوتي فقلت يا سيدي انني من كبار قواد الحكومة ولا يليق بى ان اتركها فى أوقات الشدة وسويعات الازمة وكما انني وفيت لها فسأوفى لك أيضاً فتبسم وقال لي قد عفوت عنك وأمرني بالدنو منه فدنوت فبايعنى بيعته المعلومة ثم نزع مرقعته وقدمها لي فلبستها وكان ذلك دليلا على منتهي رضاه عني ثم انصرفت فاحاط بى الناس ليتبركوا بلثم جبة المهدى وبعضهم ناقم على نوالي هذه المنة فكان فريق من الناس يقصدون لثم تلك الجبة وآخرون يقصدون ايذائي باللكم وأخيراً خلعت لهم الجبة ليتبركوا بها ووقفت بعيداً وكانت الشمس محرقة حتى اجتاز بى كبير من الامراء فتقدمت نحوه وسألته ان يساعدنى على ارجاع الجبة ففعل ولما دفعها لي أخذتها ووضعتها على رأسي ثم لبستها وتوجهت قاصداً منزل يوسف منصور الذى نجا بنفسه وتركني وسط جموع المتبركين واللاكمين وتبعنى فى الطريق عدد ليس بقليل وكلهم ناقمون على نوالي هذه المرقعة . ثم أبلغت ان المهدى أمر لي بملاءة للغطاء واناء لطبخ الطعام وقصعة للأكل وجارية رأيت منها التذمر وعدم الرضى بالبقاء عندى فبعتها بعشرين ريالا

ذكر مقابلة المؤلف لعبد الله التعايشي

لما انصرفت من دار المهدى وعدت الى منزل يوسف منصور قال لي

لابد لك من مقابلة عبد الله التعايشي فقلت له بلغني ان هذا الرجل مشهور بالقسوة وانني أخاف على نفسي منه فقال لي يوسف انه لكذلك ولكن اذا بلغه انك قابلت المهدي ولم تسع لمقابلته كانت العاقبة اسوأ فقبلت مشورته

وفى الغد صاحبني يوسف منصور والسيد بك جمعه الى دار التعايشي الذى مكثنا ننتظر خروجه علينا ست ساعات وفى منتصف النهار خرج علينا واذا هو رجل نحيف الجسم بوجهه أثر الجدرى وملابسه مرقعة رثة بالية فابتدره يوسف منصور بالتحية فرد عليه ثم قال له يوسف منصور يا خليفة الصديق هذا ابراهيم فوزي من الخرطوم عفا عنه المهدي وبايعه فجاء يطلب عفوك أيضاً فالتفت اليّ بوجه عبوس وقال ما هذا ثم التفت لمن حوله من الدراويش وقال لهم ألست أمرتكم ان لا تتركوا ذا شارب أو ملتحيا من الذين دخلتم عليهم فى الخرطوم ثم قال ليوسف منصور ما هي وظيفة هذا الكافر في الخرطوم فتلعثم يوسف منصور وتوقع شرا يصيبني وقال له انه كان ملازما بيته وكان غردون يبغضه فقال التعايشي للسيد جمعه ماهي وظيفة هذا الرجل فقال كانت وظيفته (باشا) فقال التعايشي (كان باشا الشونة) ومنذ ذلك فهمت ان لفظة الشونة كلمة عظيمة جداً عندهم ثم قلت له يا سيدى خليفة الصديق ان سبب نجاتى من القتل هى تعلق قلبي بمحبتك ومحبة سيدنا الامام المهدى المنتظر وان أنوارك وانوار المهدي هما كانا سبب نجاتى وانى أحمد الله على منته عليّ بمشاهدة نورك ونور المهدي وقد صرت الآن لا اكره الموت لانغماسي فى ذلك النور فاطرق الى الارض ورفع رأسه وقال يا يوسف منصور قد عفوت عنه ثم انصرفنا عنه وعدت الى منزل يوسف منصور وصنعت لي كوخاً من الحشيش بجوار منزل يوسف منصور الذى قال لي بعد

انصرافنا من عند التعايشي اذهب بنا لمقابلة الخليفتين على بن حلو ومحمد شريف فقلت له اني لاقيت من التعايشي مالاقيته فليت شعري ماذا ألاقي من الخليفتين ثم قلت له لاأذهب اليهما البتة وقد كان من أمري معهما اني ماصافحت واحداً منهما ولا اجتمعت بهما حتى منّ الله عليّ بالخلاص من أسر المهدوية والحمد لله على كل حال

ذكر دخول المهدي مدينة الخرطوم

في يوم الجمعة ١٣ ربيع الثاني ركب المهدي وخلفاؤه الباخرة (اسماعيلية) واجتاز بها النهر الى الخرطوم ثم قصد المسجد وصلى فيه فريضة الجمعة ثم خرج بعد الصلاة وقصد سراى غردون ثم تفقد الترسانة والجبه خانه وكتب أمراً الى خاله طه محمد بتوليته ناظراً على الترسانة وأمره بجمع العمال الذين كانوا بها واعادة الاعمال فيها وفوض الى عبد الله التعايشي أمر حراسة الجبه خانه فانتدب لها رجلاً اسمه عبد الرحيم الطريفي وأمره بجمع العمال واعادة الاعمال فيها مثل تعبئة الخرطوش واعداد آلات الحروب واصلاح كل متخرب من البنادق التي في مخازنها ثم زار أمين بيت المال ولبث عنده برهة قدمت له في خلالها المرطبات والقهوة فتناول القهوة ومزجها بالحلوى ليظهر للملأ زهده وعدم اعتنائه بالمطاعم فقال له أمين بيت المال لاتفعل ذلك ياسيدي فقال له ولماذا فقال لان ذلك يذهب بلذة الحلوى والقهوة معا فقال قد تركنا اللذات لانها معقبة بالحسرات ثم قال لامين بيت المال اني عازم على الاقامة بعض أيام في هذا المنزل أي منزل أبي بكر الجاركوك وأمره باعداد مايلزم لراحته وكان لصاحب المنزل أبي بكر الجاركوك بنت تزوجت قبل سقوط المدينة

باسبوع وفي يوم السقوط قتل زوجها وابوها معا فامسكها أمين بيت المال وقال للمهدي اني أقدمها لك في غضون اقامتك في منزل ابيها فقام المهدي ودخل الى داخل المنزل ورأى المرأة فاعجبه حسنها ولم يخرج حتي نال وطره منها وكان ذلك في اليوم الرابع لقتل زوجها ثم قفل المهدي راجعا الي امدرمان والمشاورة دائرة بينه وبين أهل شوراه على جعل الخرطوم عاصمة ملكه وكلهم موافقون له على هذا الرأي ماعدا عبد الله التعايشي فانه كان يقول للمهدي انا لم نعرف بعد عاقبة أمرنا مع الحملة الانكليزية التي ربما اضطرتنا الظروف للتقهقر امامها الى كردفان فاذا أقمنا بالخرطوم صار النهر بيننا وبين كردفان وما زال التعايشي يثبط المهدي ويقيم له العقبات ليمنعه عن سكنى الخرطوم وبقي المهدي مدة متردداً في القبول يقيم أسبوعا في الخرطوم وأسبوعا في أم درمان ويصلي الظهر والعصر في سلاملك الحكمدارية وإقامته في منزل ابي بكر الجاركوك حتى وافته منيته كما سيأتي

ذكر القبض على المؤلف وسجنه بالخرطوم

وبعد مضي شهر على سقوط الخرطوم ارسل اليّ حسين باشا خليفة مدير بربر خمسين ريالا فاشتريت منها جبة ونعلا وعمامة وأبقيت بعضها للنفقات وما مضت عليّ ثلاثة أيام حتي جاءني نحو عشرة دراويش يحملون الاسلحة فقبضوا عليّ وأوثقوني كتافا وفتشوا كوخي وحفروا أرضه وساقوني الى أمين بيت المال في الخرطوم فدخلت عليه فصاح بي وقال يا كافر يامنافق يالص أنت سرقت من مالك وتوسعت به حيث غيرت ملابسك وعلا رأسي بسوط كان في يده حتى تطاير الدم فقلت له ياسيدي انى لم أسرق شيأ بل

ان أحد معارفي أحسن علىّ بخمسين ريالا فرفع سوطه وقال من هو الكافر الذى يحسن على الكافر فلما رأيت إلحاحه خشيت أن يكون وراءه مسؤلية على حسين باشا خليفة فقلت انه رجل من جهات النيل الابيض كان يعرفني أما أنا فلم أعرف غير وجهه ولا أعرف اسمه فأمر بي الى السجن فمكثت فيه ثلاثة أيام ثم اخرجني منه وقال لي لاجناح علىّ فيما فعلته معك لان الذين وشوا بك مصريون من أبناء جلدتك فالآن عفوت عنك واطلب منك أن تجعلني في حل مما اصابك منى فقلت له انت في حل فأعطاني عشرة ريالات واناء للطبخ وآخر للاكل وملاءة وجارية وقال لي عد الى أم درمان فحملت الامتعة وذهبت مع الجارية التى أخذت تسبني وتقول (كيف أرضى بولد الريف تعنى المصرى سيداً لي) وبينما أنا سائر فى الطريق وهى سائرة بجانبي اذ لمحت الجارية جماعة من العبيد الجهادية سائرين في الطريق فاستغاثت بهم وقالت ان ولد الريف سرقني فقال لي العبيد من أين سرقتها ياولد الريف فقلت لم أسرقها بل أعطانيها أمين بيت المال فابتدروني بالضرب بالسياط وسلبوا كل مامعى من الامتعة والنقود والجارية ثم ذهبوا الى حيث لا أعلم وجهتهم فعدت الى أمين بيت المال وقصصت عليه قصتى فكان جوابه لاشأن لى فعدت الى أم درمان في اسوإ حالة لا أملك قوت يومي فضلا عما أنا فيه من آلام الجروح الناشئة من ضرب السياط.

ذكر اهالي الخرطوم بعد ذلك

مكث الدراويش يعذبون أهالي الخرطوم ليدلوهم على خبايا أموالهم بقية شهر ربيع الثاني وشهر جمادى الاولى الى أواخر شهر جمادى الثاني وهم

باقون فى البقعة التى بين الخندق ومعسكر ابن النجومي معرضين للبرد والحرارة ووكل بحراستهم الحاج خالد العمرابى فكان يأخذ الرجل أو المرأة الى منزله في المدينة ويوالى تعذيبه حتي يدل على ماله وكثير منهم ماتوا تحت أيدي المعذبين الذين لا يرثون ولا يرحمون

وقد رأيت كثيراً من النساء أصبن بالجنون لهول من ما قاسينه من أليم العذاب وأخريات فقدن العقل عند ما رأين أولادهن وأزواجهن مذبوحين بين أيديهن وفيهن من فقدت من الاولاد سبعة وثمانية ولقد رأيت امرأة رجل مصري اسمه عطية كان أمين ورق التمغة قتل زوجها واخوتها ثلاثة وأولادها خمسة واحفادها من جهة أولادها ثلاثة وأزواج بناتها ثلاثة وأحفادها من جهة بناتها أربعة وكان عمرها زهاء سبعين سنة فكنت تراها وقد ذهل عقلها وهي تصف لكل من وقع نظرها عليه مصرع أولادها ثم تتناول التراب وتضعه على رأسها ثم تصرخ وتهيم على وجهها في الفلاة وهكذا كان حالها حتى توفيت بعد بضعة شهور ومثل هذه المرأة كثير يعد بالمئات

وأصيب كثير من الرجال بمثل ماأصيبت به هذه المراة وكثير من الذين نجوا من تلك المذبحة ماتوا لفرط ماأصابهم من الحزن بعد أن انفطرت أكبادهم من هول مارأوه فى ذلك اليوم المشؤم

ومما يذكر هنا ان محمد باشا حسن مأمور المالية دخل عليه يوم سقوط المدينة أصدقاء له من جيش المهدى وأحاطوا به وحموه من القتل فلما خرج معهم ونظر في طريقه الى جيرانه ومعارفه قتلى فى شوارع المدينة قال لاصدقائه الى أين تذهبون بى فقالوا الي خارج الخندق لانه لاسلامة لك مادمت داخل الخندق فقال لهم قد قتل أهل بلدي كلهم فم

من أعيش حتى تطلبوا لي النجاة فانا أقول لكم أيها الاصدقاء انكم لا تحسنون الي الا اذا قتلتموني بجانب هؤلاء. فأخذوا يراجعونه وساقوه بالاكراه فامتنع وقال لهم اقتلوني أيها الناس فانني كرهت الحياة فتركه أصدقاؤه وامتنعوا من قتله فقتله غيرهم

ومن أمثال هاته الحوادث أمر امرأة احمد عبد الوهاب وكيل الضبطية فانها لما قتل زوجها واخوته الاربعة ترامت على اقدام القاتلين وقالت لهم ألحقوني بمن قتلتموهم فامتنعوا لانها كانت فتاة رائعة الجمال وما زالت تلح عليهم فلم يفعلوا وأخيراً أمسكت سلاحاً وهمت بأولئك القتلة فقتلوها تخلصاً من شرها

وقتلت أيضا امرأة ابراهيم بك لبيب حكمدار بوليس المدينة مع زوجها لانها احتضنته لمانع الدراويش بقتله. وكذلك امرأة ثالثة حذت حذوها فهذه الثلاث نسوة اللواتي ذكرنا خبر قتلهن يوم سقوط الخرطوم أما اللواتي ذهبن ضحية التعذيب فان عددهن يزيد على الثلاثمائة

وكان في الخرطوم رجل مصري أصله من ثغر دمياط. ومن علماء الازهر الشريف ثم عين قاضيا لبربر ثم عين مدرسا بجامع الخرطوم ورئيساً لاساتذة المدرسة الاميرية وكان يتعمم بعمامة خضراء لانتسابه لآل البيت المطهر كما كان في طليعة العلماء الذين كتبوا النصائح تكذيباً لدعوى المهدوية وكان غردون يحترمه ويجله ويشاوره في كثير من الامور واسمه حسين المجدي وفي يوم سقوط المدينة دخل عليه الدراويش وله جاران اسرائيليان أحدهما اسمه بسيون والثاني اسمه اسرائيل فلما أحسا بدخول الدراويش قالا ان جارنا عالم من علماء الاسلام وذو انتساب لآل بيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

ولا بد أن يحترمه هؤلاء الدراويش ولا يمدوا أيديهم بسوء لمن دخل فى جواره فهيا بنا ندخل منزله وبينما كانا يتهيآن للاحتماء بالشيخ حسين المجدى اذ أبصراه من نوافذ بيتهما جالسا على مصلاه متعمما بعمامته الخضراء يقرأ في المصحف فدخل عليه الدراويش فضربوه بالسيوف وبتروا يمينه فقال مرحبا بقضاء الله فقالوا له يا كافر فقال اني أشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله وامتلأ المصحف من دمه فأغمي عليه فتناول أحد الدراويش امرأته وآخر بنته على مرأى منه ومن جيرانه وفسق الاول بالمرأة وافتض الثاني بكارة البنت وقالا له قد أحل الله لنا دمك وعرضك فقال لهم كذبتم ان الله لم يحل دمي ولا عرضي ثم اجهزوا عليه أما الاسرائيليان فانهما قد نجوا من القتل ولا يزالان على قيد الحياة

وكان فى الخرطوم أيضا رجل مصرى اسمه الشيخ فايد كان شيخ سجادة الاحمدية وفي ساعة المذبحة التجأ الى بيته نحو عشرين شخصا من جيرانه من موظفي الحكومة فدق الشيخ طبوله وحمل راياته فذبحه الدراويش ومن معه ولم ينج منهم غير واحد اسمه عبد الله ابراهيم سعد كان ضابطا فى الحامية بعد أن اصيب بثلاث ضربات بالسيف على راسه

وقتل قناصل الدول كلهم وكان موسيو هنزل قنصل النمسا استأمن المهدى على نفسه ورعاياه فوعده المهدي باشخاصه الي بلاده اذا خرج اليه مسلما نفسه وفى يوم سقوط المدينة ذبح وسبيت امرأته وصارت جثث القتلي مطروحة على وجه الارض

ومن أعجب ماشاهدته أن هذه الجثث لم تنتفخ ولم تتغير ملامحها حتى

يشاهد حولها شيء من الديدان أو الحشرات التى تنتاب الاجسام الميتة وقد عد شعراء المهدى ذلك كرامة من كرامات المهدى حيث قالوا في أنشودة باللغة الدارجة ما معناه «ان اعداء المهدى الذين فتك بهم سيفه عافت اكل لحومهم الطيور والديدان والكلاب وسائر الهوام وذلك دليل على كفرهم »

ولم تقف الفظائع عند حد القتل وازهاق الارواح بل كانوا يمثلون باشلاء المقتولين ويجمعون التبغ ويحرقون به الجثث

وكان في الخرطوم رجل من أهل خراسان اسمه الشيخ عبد الرحمن الخراسانى وكان مجاورا بالمدينة المنورة ومعروفا عند أهلها بالصلاح والورع وله أتباع كثيرون فى السودان فقتله الدراويش وربطوا جثته بجثة كلب ميت ووضعوا فمه على راس الكلب واحرقوهما معا

ومن الذين قتلوا يوم سقوط المدينة الشيخ شاكر الرئيس مفتى السودان وكان سوريا قتله محمد نوباوي الذي دخل على غردون وقتل ابنيه قبله ولما هم بقتله قال له احد الحاضرين اتركه لانه رجل فقيه فقال له انه افتى بفتوى ضدي منذ عشرين سنة فأنا اذبحه واذبح ابنيه قبله تشفيا

وقتل من العلماء أيضا الشيخ موسى مفتي المحاكم الشرعية والشيخ محمد حتيك قاضى القضاة وكانا فقيهين محققين كتبا رسالتين طويلتين كذبا بها دعوى المهدي وفندا مزاعمه وقبل سقوط المدينة جاءني الشيخ موسى زائراً ثم اختلى بي وقال لي والدموع تتساقط من عينيه انى وأولادى لم نذق طعاما منذ ثلاثة ايام ثم كشف عن بطنه فرايت حجرا مربوطا عليها فهالنى ذلك وعرضت عليه نقوداً فلم يقبلها ثم وجدت بمنزلى أقتين من البقسماط دفعت له اقة وابقيت لنفسي الثانية واعطيته خروفا من الضأن كنت اشتريته من احد

الصناجق الذين غزوا في ضواحي الخرطوم على احدى البواخر فشكرني ورجاني أن آذن له بالبقاء ريثما يأكل قليلا من البقسماط ليستعيد بعض قوته ثم سألني ان أرسل معه جنوداً يحفظونه من الاعتداء عليه حتى يبلغ منزله وفي الغد عاد اليّ واخبرني أن أولئك الحراس اغتصبوا منه البقسماط ولكنهم تركوا الخروف له فدعوتهم لاسألهم فقابلوني بشراسة خلق وقالوا ألم نصنع معه من المروءة ما لا يصنعه غيرنا حيث تركنا له الخروف فقلت لهم صدقتم وطيبت خاطرهم وصرفتهم

والحاصل ان المهدي بعد ان صادر جميع أموال سكان الخرطوم وسبي من نسائهم كل حسناء وقاسوا من العذاب أشده ونالوا من الضنك غايته وكانوا محجوراً عليهم الكسب وسبل الارتزاق وكان يعطى كل شخص نحو رطل من الذرة في كل يوم حتى هلك من هلك ونجا من أراد الله نجاته ركب هو وخلفاؤه ذات يوم ووقف حولهم فرثي لهم وأذن لهم بمبايعته ثم كتب لهم منشوراً وعظهم فيه وضمنه ما يقطع أملهم من إعطائهم شيأ مما سلب منهم وهذه صورة المنشور نقلا عن كتاب المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدى بن عبد الله الى كافة أحبابه وأصحابه الذين خرجوا من قترة الخرطوم ومرادهم السلامة لليوم المعلوم ورضاء الله الحي القيوم أقول يا أحبابي ان نعمة الدين نعمة لا نعمة غيرها وحيث منّ الله عليكم بها وصرتم من عبيد الله الذين يطلبون ما عنده ويمتثلون أمره ويرغبون فيما رغب فيه ويزهدون ويستحقرون ما حقره بعد ان كنتم على

شفا حفرة من النار فانقذكم منها فاشكروا نعمة الله التي انعم بها عليكم واستعظموها لتشكروها وتكتفوا بها عن نعم الدنيا ومتاعها لان نعم الدنيا ومتاعها نصيب أبناء الدنيا الذين لا نصيب لهم في الآخرة واعلموا ان الله هو المتكفل بالارزاق الضامن لها فمن عرف ذلك عرف انه مادام حيا لا يقطع رزقه ولو هرب منه للحقه كما ورد « لو ركب العبد الريح هاربا من رزقه لركب الرزق البرق حتى يلحقه » وحيث كان كذلك وان ما وجد في الخرطوم شيء جزئي لا يكفي الانصار الذين فتحوه وأنعم الله عليكم باعانتهم وقد صرف عليهم جميع ما وجد مع غنائم بربر ولم يفضل الا ما يحتاج للترويج فاصرفوا نظركم عما خرج من أيديكم جملة حيث بعتم أنفسكم وأموالكم لله وأنتم تعلمون ان الصحابة لما خرجوا الى الهجرة فارقوا ديارهم وأموالهم رغبة في دين الله وانتم لما أنعم الله عليكم بالصحبة التي تمناها كل السابقين فاخرجوا عن ذلك واكتفوا بالله وارغبوا فيما عند الله كما البيعة على ذلك فان من لم يخرب الدنيا للآخرة لا يستقيم له دينه وقد بعث صلى الله عليه وسلم لخراب الدنيا وعمارة الاخرة كيف وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم على طالب الدنيا الذى لا يرضى الا بها فقال صلى الله عليه وسلم « تعس عبد الدينار والدرهم والخميصة ان أعطي رضي وان لم يعط سخط تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش » ووصف الله المنافقين بذلك فقال تعالى « ومنهم من يلمزك في الصدقات فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون ولو أنهم رضوا ما آتيهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون » وأنتم أحبابي اكتفوا باندراجكم مع المجاهدين وما يعطيكم اسوتهم فلا خير في الرفيق حيث يعيش العبد بدونه ويتأسف واجده عند فراقه وقد صدق فيه اسم الرفيق لان الرفيق ينقطع

ولا يدوم لمن تعلق به ولا يعصمه فاعتصموا بالله وتوكلوا عليه واتقوه فانه قال « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل علي الله فهو حسبه » صدق الله العظيم والسلام ٢١ جماد آخر سنة ١٣٠٢

ذكر مقابلة الشيخ محمد الامين الضرير للمهدي ووفاته

تقدم لنا ذكر الشيخ محمد الامين الضرير ونقلنا صورة الكتابين اللذين بعثهما له المهدي وفى غضون حصار الخرطوم كان الناس اشاعوا عنه انه جاسوس للمهدى وانه كان يبطن ولاءه وكان أهل الخرطوم يبغضونه لهذه الاسباب حتى شكوه الى غردون فقبض عليه وعلي قاضي القضاة الشيخ محمد حتيك والشيخ موسى المفتي اللذين تقدم ذكر قتلهما وقبض أيضاً علي عبد الرحمن ارباب أحد علماء المدينة وبالتحري عن شأنهم ثبت ان الشيخ محمد الامين وقاضى القضاة والمفتى بريئون مما رماهم به أهل الخرطوم الموصوفون باساءة الظن بكل مواطنيهم الذين لم يكونوا مصريين من جنسهم

ولكن تحققت التهمة في عبد الرحمن أرباب فقط وبعد ان قضوا أربعة ايام في السجن امر غردون باطلاقهم حتي عبدالرحمن أرباب الذي ثبتت ادانته وبالغ غردون فى الاعتذار الى الشيخ محمد الامين واسترضاه ورفقاءه

وفى يوم سقوط المدينة دخل على الشيخ محمد الامين ابن له اسمه علي كان قائداً صغيراً من قواد المهدى وساقه الى عبد الرحمن النجومي الذي هم بقتله واستل ابنه سيفه ليقتله اظهاراً لاخلاصه للمهدي وبينما هم كذلك اذ

الشيخ محمد الامين الضرير فاخترق الصفوف بحصانه وقال للمتآمرين احذروا ان تصيبوا الشيخ بسوء واعلموا ان من أصابه بماء أصبته بسيفي فتفرق الناس وأغمدوا سيوفهم عنه وقاد على أباه واجتاز به النهر وقدمه للمهدي الذى قابله بالاكرام واكثر من لومه ومعاتبته ثم بايعه البيعة المشهورة ثم قاده ابنه أيضاً الى عبد الله التعايشي الذي أخش له في القول واسمعه من الكلام أمره وأخيراً قال له ياعالم السوء يامن أعمى الله بصره وبصيرته قضيت عمرك المشؤم في تحصيل علوم جاء المهدي بنسخها فقد كنتم تقولون حدثنا فلان عن فلان باسانيد طويلة ونحن الآن نتلقى الشريعة من المهدي الذي يتلقاها مباشرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فاحذر ياشيبة السوء ان أسمع عنك انك تعلم الناس شيئاً من العلوم القديمة المنسوخة واعلم انك منذ الآن محتاج الى التعليم من أحقر انسان من أصحاب المهدى ثم دعا عبداً أعجمياً وقال للشيخ محمد الامين هذا استاذك منذ الآن فصل بجانبه وتلق شريعة المهدي عنه اما ما تعلمته قبل الآن فانه منسوخ وخير لك ان تحفر له في الارض حفرة تغيبه فيها فسكت الشيخ ولم يجاوبه بكلمة بل خرج من عنده وهو يقول اللهم اقبضنى اليك غير مفتون فتوفى بعد بضعة أيام فحملت جثته الى المهدى فامتنع عن الصلاة عليه وقال ان النبي صلى الله عليه وسلم نهي عن الصلاة على المنافقين وقرأ « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » الآية

ونجا عبدالرحمن ارباب بعد ان هم عبد الرحمن النجومي بقتله فاكرمه المهدى واردفه خلفه ثم مالبث عبد الرحمن ان انكر على المهدى أفعاله ونقم عليه وايقن انه كان في ضلال مبين حيث كان مصدقا بهذه الدعوة ومعينا لذلك الطاغية

ذكر انتقال المهدي الى ام درمان

ذكرنا ان المهدي كان معسكراً في جهة الفتيح بعيداً عن مرمي المقذوفات وفي أوائل جمادى الثانية سنة ١٣٠٢ زعم ان النبي صلى الله عليه وسلم أمره بنقل معسكره الى ام درمان وكان يطلق اسم (البقعة الطاهرة المشرفة) على كل معسكر حل فيه وفي صبيحة يوم ركب ناقته وقال ان النبي صلى الله عليه وسلم أمره باطلاق خطامها حتى تنزل بالمكان المأمورة بالقاء رحلها فيه وذلك كما كان بعيره صلى الله عليه يوم دخل المدينة المنورة فدارت الناقة المأمورة على زعمه حتى ألقت رحلها بمكان مرتفع شمال خندق أم درمان يبعد عن ضفة النهر بألفي متر تقريبا وهناك ألقت رحلها فضربت اطناب الخيام وصنعت الاكواخ من البوص وجعل طول المسجد نحو ستمائة متر في ضعفي هذا القدر وصنعت للمهدي مقصورة من ألواح الزنك التي كانت تصنع للاماكن التي تودع فيها المواد الملتهبة ونقل منبر الخطابة الذي كان موضوعا في سلاملك الحكمدارية الى تلك المقصورة وكانت بقية المسجد مكشوفة والمصلون معرضين للحر والبرد

ولما كان منزله متصلا بالمسجد كان يصلي الاوقات كلها داخل بيته والناس يأتمون به وبينهم وبينه نحو عشرة حجب من الشوك والاطناب والبوص وكان لا يصلي في المقصورة الا فريضة الجمعة

وكان ذا صوت جهوري في الصلوات الجهرية يرفع صوته بالقراءة باكيا وتتساقط الدموع من عينيه وكثيرا ما كان يمسح تلك الدموع في حال القيام وقومه معجبون به ويعدون البكاء في الصلاة من علامات اطلاعه على الغيب

حيث يزعمون انه يرى اللوح المحفوظ متى أحرم بالصلاة

وقيامه وسجوده طويلان جداً حيث كان يقوم في قراءة الركعة اكثر من عشر دقائق وفي الركوع والسجود نحو ثلاث دقائق

وصلى في رمضان صلاة القيام عشر ركعات قرأ فيهن جزأ من القرآن وصلى بالناس في ليلة نصف شعبان مائة ركعة بالقرآن كله رافعا صوته بالقراءة باكيا

وكان عنده عبد اسود يؤذن له فقال انه وارث مقام بلال مؤذن النبي صلى الله عليه وسلم واعطى مقام ابن أم مكتوم لمؤذن ثان

هذا وقد قلده كثير من الامراء والاتباع في رفع أصواتهم بالبكاء أثناء الصلاة

ومن المضحكات ان دنقليا من أقارب المهدى تناول الف ريال من تاجر قبطي اسمه جرجس ليصنع له بها مراكب ثم اغتال المال ولحق بالمهدي وبعد سقوط الخرطوم زاره تجاران مصريان فقام يصلي واسترسل في البكاء فاندهش الزائران من هذا البكاء وقال أحدهما ما الذي أصاب الرجل فقال الآخر لا أظن شيئاً أصابه غير انه لما رآنا تذكر ما اغتاله من مال جرجس فبكى ظناً منه انا جئنا نطالبه به

حوادث دنقلة

دنقله إقليم من أقاليم السودان المصري وحده من جهة الشمال (خور موسى باشا) وهو يبعد عن حلفا بنحو خمسة أميال ومن جهة الجنوب حدود مقاطعة بربر واقسامه احد عشر قسما أربعة منها في الشمال وسبعة في الجنوب

وسكان الاقسام الشمالية هم قبائل (سكوت والمحس) والدناقلة يسكنون

الاقسام الوسطى . والجهات الشمالية أرضها قاحلة مكسوة بالحجارة الا ان النخل فيها كثير ومحصوله جيد وبه قوام معايش السكان خلافا للاقسام الوسطى فان أرضها خصبة وطريقة الرى فيها بالسواقى وهى تجود بمحصول وافر من الحبوب وفيها النخل أيضاً لكن محصوله لا يذكر في جانب محصول الجهات الشمالية وسكان هاته الاقسام خليط يطلق عليهم (الدناقلة) والغالب على اخلاقهم الهدو والسكينة أما سكان الاقاليم الجنوبية فهم قبائل الشايقية وأرضهم تشبه الاراضي الشمالية والحاصل ان عوائد سكان دنقلة متقاربة متشابهة

ذكر الشيخ الهدي

كان في احدى قرى الشايقية التي بين الخرطوم وشندى رجل اسمه (الشيخ الهدي) وكان صاحب طريقة وله صداقة مع محمد الخير داعية بربر وبعد هلاك حملة الجنرال هيكس وفد هذا الشيخ على المهدي فاكرم وفادته وقدم له الهدايا وتلقاه بالاكرام ثم عرض عليه ان يقوم بالدعوة له في مديرية دنقلة فاجابه بالقبول فكتب له بالامارة على قبائل الشايقية كلها وبالدعوة له في مديرية دنقلة ثم غادر الشيخ الهدى كردفان مع محمد الخير داعية بربر واشتغل معه في حصار بربر ثم انفذ خاله (ولد عبود) أحد افراد قبيلة الشايقية الي اقسام دنقلة الجنوبية فثارت معه قبيلة الشايقية واعلنت خلع طاعة الحكومة ورفعت لواء العصيان وقبضوا على ستة عشر جنديا واثنين صف ضباط كانوا جباة فى هذين القسمين وقطعوا اسلاك التلغراف وأسروا عماله

ولما وصلت تلك الاخبار الى المدير مصطفى ياور باشا انتدب الضابط أحمد افندي سليمان ومعه عشرة عساكر من النظاميين لاكتشاف الاخبار

وما كاد يبلغ محل الثائرين حتى قبضوا عليه وعلى جنوده العشرة بعد أن اطلقوا النيران على العدو الذي لم يتمكن من القبض عليهم الا بعد ان نفدت ذخيرتهم وبعد ان هموا بقتل أحمد افندي سليمان وجنوده ارجأوا قتلهم الى الغد واعتقلوهم في منزل رجل اسمه الخليفة أبو بكر وكان صديقا حميما لاحمد افندي سليمان وما كاد الليل يرخي سدوله حتى أطلق الخليفة أبو بكر أحمد افندي سليمان ومن معه فركبوا دوابهم وفروا وفي الغد فقدوهم فبعثوا خلفهم نحو مائتي راكب فلم يدركوهم وعادوا بغير طائل ولم ينتقموا من الخليفة أبي بكر لما بينه وبين العصاة من روابط الجنسية

ولما وصل أحمد أفندي سليمان الى مركز المديرية رفع الى المدير نتيجة مأموريته فابحر المدير ومعه مائة جندي نظامية على باخرة قاصداً جهة (الدبة) وكان ولد عبود ومعه زهاء سبعة آلاف مقاتل قصدوا جهة الدبة وكان بها نحو ثلاثمائة جندي بين نظاميين وباشبوزق وما كاد المدير يصل تلك الجهة حتى علم ان العدو منقسم قسمين في جهتين متقاربتين وانهم ممتنعون عن الحرب حتى ينسلخ شهر رجب فاخذ المدير في الاستعداد وهاجم مركزي العدو فكان النصر حليفه حيث انجلى الهجوم عن انتصار المصريين وهزيمة الثوار وعاد الامن الى ربوع دنقلة وقفل المدير راجعا الى مركز المديرية بعد أن حصن نقطة الدبة

ذكر واقعة الشيخ الهدي

لما وصلت أخبار الهزيمة الى الشيخ الهدى في بربر غادرها قاصدا جهة لدبة وأمده محمد الخير بمائة جندي سوداني من الذين انضموا اليه من جنود

الحكومة واستصرخ في طريقه بنائل الرباطاب وأولاد قمر الدين صاحبه رئيسهم نعمان بن قمر والد سليمان بن نعمان قاتل الكولونيل ستيوارت فاجتمع اليه نحو ستة عشر ألف مقاتل وصل بهم الى الدبة وفي ذات ليلة هجم بهم على مركز الدبة وكان الظلام حالكا فما شعرت الحامية الا بالضوضاء حول المعقل فصوبت مقذوفاتها على العدو فسقط منه ألفان وسبعمائة قتيل وقتل نعمان بن قمر وفر المهدي ومعه نحو خمسة آلاف مقاتل وفر الباقون ولحقوا ببلادهم وعسكر المهدي في جبل على شاطيء النهر في جهة (الحتانة) وفى ثاني يوم الواقعة وصل المدير ومعه فصيلتان من الجنود النظاميين ثم سار الى الحتانة ومعه خمسمائة جندي فابتدره الدراويش باطلاق البنادق فاحاط بموقعهم وهجم بجنوده عليهم فلما أبصر المهدى الجنود هاجمين عليه ولي الادبار ومعه قومه وغنم الجنود معسكرهم وفيه كثير من الاقوات واستولوا على عشرين صندوقا مملوءة خرطوش بنادق رامنجتون ثم تأثر المدير العدو مسيرة ست مراحل حتى خرج من حدود المديرية وقفل راجعاً الى مركز المديرية وكانت هذه الواقعة فى شهر رمضان سنة ١٣٠١

ذكر مخابرات المهدي مع مصطفي ياور باشا

تقدم لنا ذكر وقائع دنقلة وها نحن نذكر ما فاتنا فنقول

لما حاصر أبو قرجة الخرطوم وظفر محمد الخير ببربر كتب المهدي كتابا مع رسول خصوصى الى مصطفي ياور باشا مدير دنقلة يدعوه فيه الى التسليم أو الحرب وكان الشيخ الهدى في بربر يتأهب للغارة على دنقلة كما تقدم فادرك مصطفي ياور باشا حرج موقفه اذ كان جنوده لا يزيدون على خمسمائة

جندى فمول على دفع البلاء بالمخاتلة والخديعة فاستدعى المسيحيين الذين كانوا معه في المديرية وأسر اليهم انه عول على دفع شر المهدي بالخديعة ريثما تصل النجدة الانكليزية وانه سيدعوهم على رؤس الاشهاد في سراي المديرية ويعرض عليهم الاسلام فيجيبونه فصدعوا بما أشار به عليهم ثم استدعى رجالاً من ذوي قرابة المهدى المقيمين في دنقلة وأعلن أمامهم انه دخل في طاعة المهدي وانه صار عاملا من قبله على إقليم دنقلة ثم دعا المسيحيين للاسلام فاجابوه وكتب الى المهدى كتابا ضمنه دخوله في طاعته وشرح له كل ما فعله من اسلام المسيحيين واعلانه الطاعة فاجابه المهدي بكتاب سماه فيه مصطفى جابر بدل ياور لانه من أسماء الكفار على زعمه وضمن الكتاب تعيينه أميراً على دنقلة من قبله وأمره بابدال ملابس العساكر بالمرقعات التي هي شعار المهدية ثم بعد ذلك حصلت وقائع الدبة والحتانة التي تقدم لنا ايرادها

ولقد جاء ما أتاه مصطفى ياور باشا بنتيجة مرضية حيث استطاع حفظ البلاد مع قلة جنوده ريثما وصلت طليعة الحملة الانكليزية وساعد أيضا على حفظ المديرية من السقوط في قبضة العدو وجود رجال اكفاء قاموا بتدبير الامور وخاطروا بنفوسهم في جميع الوقائع التى انتصر فيها جنود مصطفى ياور باشا ونخص منهم بالذكر أحمد جودت بك وكيل المديرية وقتئذ فانه كان قومندان القوة المدافعة في واقعة الدبة التى انهزم فيها الشيخ الهدى شر هزيمة وقد أصيب وقتئذ أحمد جودت بك بطعنة رمح فى جبهته أما الضابط أحمد أفندي سليمان الذي تقدم ذكر وقوعه في قبضة العصاة وفراره منهم بوسطة صديقه الخليفة أبى بكر فانه كان قومندان القوة النظامية وشهد كل وقائع دنقلة كما انه شهد كل الوقائع

التي انتصر فيها عبد القادر حلمي باشا في جنوب الخرطوم مما تقدم لنا ذكره ومن قواد الباشبوزق الصناجق نور الدين بك وماميش أغا وسليمان بك جبريل ومن الضباط النظاميين الضابط سعد نبيه أفندي ومرسال كوكو أفندي وغيرهم

ولما وصلت طلائع الحملة الانكليزية الى حلفا كان الشيخ الهدى معسكراً في جنوب حدود مديرية دنقلة بعد هزيمته من الختانة وكان قد وصل الى دنقلة في غضون ذلك رسول الى مصطفى ياور باشا يحمل كتابين أحدهما من المهدي والثاني من شخص يدعي الشريف محمود من أقاربه وكان مضمون كتاب المهدي الى مصطفي ياور باشا أمره بتسليم المديرية الى الشريف محمود والشخوص اليه وكتاب الشريف محمود مضمونه انه تعين من قبل المهدي أميرا على اقاليم دنقلة وانه معسكر في بئر تبعد عن النهر بثلاث مراحل اسمها (أم بليلة) فكتب اليه مصطفى ياور باشا يقول فيه انى لم أكن مصدقا بدعوة المهدى وان ما فعلته كان خديعة وحيث انك من أهالي دنقلة فانت آمن اذا عزمت علي العودة الى وطنك مستظلا بطاعة الحكومة ولما عاد رسول الشريف محمود اليه في بئر (أم بليلة) واطلع على ما كتبه له مصطفى ياور باشا أسرع بالفرار من ذلك المكان ولحق بالشيخ الهدى الذي كان معسكرا في جنوب حدود مديرية دنقلة في مكان اسمه (كورتي) وأخذا فى الاستعداد والاهبة للغارة علي الحدود وكان مع الشريف محمود حسن خليفة العبادي ابن أخي حسين باشا خليفة مدير بربر أرسله المهدى للدعوة له فى صعيد مصر ومعه أيضاً رجل مغربي أرسله أيضا ليدعو أهل طرابلس الغرب وهاهي صورة كتابين اخترناهما من الكتب العديدة التي كتبها المهدي الى

مصطفى باور باشا الاول منهما فى شهر رجب سنة ١٣٠١ والثاني فى شهر رجب سنة ١٣٠٢ أي بعد سقوط الخرطوم وفى الاول من اللين والمجاملة مايراه القارئ وفى الثانى من التهديد والوعيد بان النبي صلى الله عليه وسلم وعد المهدى بوقوع مصطفى باور باشا فى قبضته عاجلا أو آجلا مافيه

الكتاب الاول

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد الواثق بمولاه محمد المهدي بن عبد الله الي مصطفى باور امير مدينة دنقلة وتوابعها كان الله له معين آمين. بعد السلام والاحترام لايخفى عليك ان الدنيا ليست دار راحة وماهي الا ساعة فمن لم يجعلها طاعة ويكتسب رضاء الله تعالى فيها ويكتف بالله ويجعل همه به واحدا لايسلم من همومها وغمومها ولابد أن تذهب ويقع المفرط فيما لاينجو منه من الاهوال الشداد كما جاء بذلك الوعيد في قوله تعالى « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكاري وما هم بسكاري ولكن عذاب الله شديد » واعلم أني داع الى الله ودال عليه وقد بعثني الله تعالى رحمة لمن اتبعني من أهل زماني ونقمة على من عصى الله وخالفنى واني انذرتك قبل هذا واوضحت لك الامر جليا وكتبت اليك بتوليتك ميرا في جهتك وما فعلت ذلك الا لك وما وليت احدا غيرك كان فى ولاية الترك الا بعد لقائنا والاخذ عنا ورؤية الصدق منه كمحمد خالد الذى كان مدير « دارا » فانه قد اتانا عند فتح مديرية الابيض وصحبنا وتخلق باخلاقنا وتربي حتى تحقق بالصدق

والديانة المرضية على محبة كاملة فلما رأينا فيه آثار الصدق والامانة والعدالة والتخلق باخلاقنا والقيام بامرنا على ما نحب ونرضى وليناه على كافة نواحي دارفور ففتحها وصدق فى ارشاد أهلها وادخلهم جميعاً فى طاعتنا فصدقوا كامل الصدق فجزاه الله الخير والاحسان فقد زاد على ماظنناه فيه ورق أصحابه ومن بنواحيه على حسن اليقين والوثوق برب العالمين وإيثار الاخرة وزهد الدنيا في الانابة الى ما عند الله فجزاه الله عنا وعن المسلمين أجراً جزيلا وأنت ما وليناك من قبل ان نراك الا لحسن ظننا بك فى صدق ديانتك وطلبك ما عند الله ومعرفتك شؤم الدنيا ودناءتها ومعرفتك قوة الله وقدرته على كل شىء حتي لا تميل الى شيء الا الى رضى الله فان طاعة الترك بعد ظهور المهدى كفر وضلال كما هو وارد فان قويت سريرتك واشتد عزمك على ذلك كما ظننا فيك فانت مؤتمر منا كما أمرناك والا فان علمت من نفسك ضعف يقين وعدم طاقة على مقاتلة الترك ومناوأتهم وقطع الاخبار عنهم فأت الينا لتزيد يقينا وتمكينا وتكسب نوراً وتحصينا حتي يسقط من قلبك الالتفات الى الاولاد والاهل والخشية من غير الله والطمع فيه بما نريك اياه من الارشاد والتربية التي خصنا الله بها دون أوليائه الكرام وهو ذو الفضل العظيم وقد علمت ثواب الهجرة والجهاد فى سبيل الله من قول الله تعالى « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله باموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها » الآية وقوله تعالى « فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولادخلنهم جنات تجرى من تحتها الانهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن

الثواب » فمن كان مؤمنا مصدقا بكلام ربه وعظمة وعده ووقوع ذلك يقينا يؤثر ما ذكر على ملك جميع الدنيا وشهواتها ومتاعها ومقاساة الشدائد في ادراك الوعد المذكور ومن لم يكن مصدقا بذلك مؤثرا له فذلك لعدم إيمانه وتصديقه لوقوع ذلك وتسفيهه لمن فعل ذلك ممن آمن بالله وآثر ما عنده فاستحق ان يكون ماله غنيمة وان يخذل في الدنيا ويحشر الى جهنم في الآخرة قال الله تعالى « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم » الآية وقد كتبنا اليك سابقا انك ان قمت باحد هذين الامرين فهو دليل صدق إيمانك وتسليمك والا فلا بد ان تقع في قبضتنا بقوة الله وحوله كما أشار الي ذلك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى ونسأل الله ان لا يخيب ظننا فيك لاننا نحب لك الخير ونعلمك بخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الترك لو أتوا عدد الشجر والمدر لا تقوم لهم قائمة كما بشرنا بذلك رسول الله صلي الله عليه وسلم وانهم وان كثروا كورق الاشجار والرمال لو دخلهم احد من أصحابنا يموتون كما بشرنا بذلك الصادق الامين صلى الله عليه وسلم هذا والسلام رجب سنة ١٣٠١

(الكتاب الثاني)

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المعتصم بالله محمد المهدى بن عبد الله الى مصطفى ياور وفقه الله لطريق رشاده آمين. اعلم وفقك الله تعالي الي سبيل الرشاد وصرف عنك خيالات النفس وباعد عنك طريق العناد ان الهدى خير من الضلال وان الدار الآخرة لهي الحيوان وهي الدار التي أعدها الله لاصفيائه وأمناء دينه وندب اليها عباده المؤمنين في محكم كتابه العزيز بقوله « وسارعوا الي مغفرة

من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين » ولا يخفى عليك أني طالما حسنت بك الظن ورجوت لك الخير وتوسمت فيك الديانة والامانة وأحببتك في الله وخاطبتك خطاب أهل المحبة حتى انى من فرط ماحصل لي من محبتك في الله أصدرت لك أمراً يحتمي بجعلك عاملا من طرفي على عموم دنقلة رجاء أن تكون من الذين باعوا الله نفوسهم بالجنة وبذلوا مهجهم ونفائس أرواحهم في احياء السنة فظاهرتني بالقيام بذلك ثم نكثت العهد ونقضته ومن نكث فانما ينكث على نفسه وجاهرت بالعداوة وبارزت وقتلت أخياراً من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بمكرك وخديعتك ولم تخش الله ولم ترع حقوقه مع انك في الحقيقة مغرور مستدرج لم تدر عاقبة أمرك ألم تعلم أن الله يمهل ولا يهمل ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين فيا أيها الرجل ويحك تدارك نفسك واعتبر بمن مضى من قبلك فان العاقل من اعتبر بغيره والسعيد من دبر أمر نفسه ونظر صلاح العواقب والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت واعلم ان الله يملي للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته فان جميع ما حصل لك فهو استدراج من الله عاقبته الحسرة والندامة فاعمل فكرك وأعد نظرك واعلم أن الامر لله يعطيه من يشاء من عباده وكفاك ما حصل منك من مبارزة الله بالعداوة وشد أزر أعدائه الكافرين والاستعانة بهم على قتال المسلمين أما علمت قوله تعالى في محكم كتابه « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم » وقال « لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم » الآية الى غير ذلك من الآيات الناهية عن موالاة الكافرين على [illegible]

الي المكر والخديعة والحيل الضعيفة الشنيعة لا يغني عنكم من الله شيأ ولا يدفع
عنكم المقدور ولا بد بعون الله من وقوعكم في قبضتنا ولو صعدتم السماء
بسلم فانا مبشرون من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بالنصر على من يعادينا
وتملك جميع الارض ولا يغرنكم ما حصل لكم من الاستدراج ولا ما رأيتموه
من استمدادكم والنصارى الذين معكم فان قدرة الله لا تقاوم وبطشه لا يصادم
وكم أهلك الله من الامم قبلهم ممن هو أشد منهم قوة واكثر جمعا ولم يغن عنهم
ما اعتمدوا عليه من دون الله شيأ وحيث انك تدعى العقل وتزعم انك من
أهله فاعتبر بذلك واعلم علم اليقين انك ان أنبت الي الله وندمت على ما فرط
منك وأتيتنا نادما تائبا فانك مؤمن ومعفو عنك فى جميع ما مضى منك عفواً
خالصاً لوجهه تعالي ومقبول عندنا غاية القبول ولا نقول لك الا كما قال يوسف
عليه السلام لاخوته ولا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ،
وان أحضرت معك بعضا من عمد البلد كمحمد عبد القادر ساتي المشهور
بفقير تود ومحمد الملك حمد بارقو ومحمد بن الفقير محمد ابراهيم وصالح امام
الجامع وسعيد أحمد فرح ومحمد الجميل ومحمد محمد كنيش فذلك أولي عندنا
فاحضرهم فهم آمنون منا ومعفو عنهم فى جميع ماجرى ومقبولون عندنا ولا
حرج عليهم وان أبيتم بعد هذا الا الجحود والاعراض عن الانابة الي الله
المعبود وسلوك سبيل الضلال اعتماداً على المكر والحيل واغترارا بالخيال فاعلموا
انكم لن تستطيعوا الخروج عن أسر القدرة الالهية ولا بد من وقوعكم فى
القبضة وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله وذنبكم عليكم فانا قد أنذرناكم
ولارشادكم دللناكم ومن أنذر فقد أعذر أسأل الله الذي يضل من يشاء ويهدي
من يشاء أن يجعلكم من أهل الهداية الذين سبقت لهم العناية وأن يحل

هذا البيان منكم محل القبول انه اكرم مسئول هذا والسلام سنة ١٣٠٢ ٧ رجب

واقعة كورتي وقتل الشيخ الهدي

لما وصل الشريف محمود الى معسكر الهدي بلغ مصطفى ياور باشا انهما يتأهبان للهجوم على الحدود فزحف عليهم في أربعمائة جندي بين نظاميين وباشبوزق وكان قائد الجنود النظاميين الضابط احمد افندي سليمان والجنود الباشبوزق تحت قيادة نور الدين بك وسليمان جبريل بك

ولما اقترب من معسكر الشيخ الهدي اطلق الجنود النيران فجاوبهم الدراويش وهجموا على صفوف العساكر ببسالة غريبة حتى اذا صاروا على مقربة منهم بنحو مائة متر سقط من الدراويش مائتا قتيل وقتل الشيخ الهدى والشريف محمود والمغربي داعية طرابلس الغرب ونجا حسن خليفة داعية صعيد مصر وولى الدراويش منهزمين لايلوون على شيء وتمزق شملهم كل ممزق

وكانت عدة الدراويش نحو ستة آلاف مقاتل ولم يصب من الجنود غير ضابط من الباشبوزق أصابته رصاصة في صدره ثم عولج ولم يمت وكانت هذه الواقعة في شهر ذي الحجة سنة ١٣٠١ هجرية

ذكر وصول كتشنر باشا الي دنقلة

كانت الحكومة مرتابة في صدق بقاء مصطفى ياور باشا ومن معه من الحامية على الطاعة لان أخبارهما الآنه التي تقدم لنا ايرادها كانت تصل اليها بصورة توجب الشك وقد روى لنا الضابط احمد افندي سليمان انه كان يقرأ وقتئذ في الجرائد الواردة عليه من مصر اخبار دخول مصطفى ياور باشا والحامية في طاعة المهدي وكان الضباط يعجبون من الحكومة التي كان مصطفى

ياور باشا يشاورها في كل مايدبره من الخديعة والممالأة

والظاهر ان ما كان يخبر به الحكومة مصطفي ياور باشا لم تكن تعتقد صحته حتى ان الانكليز لما وصلت طليعة جيشهم الى حلفا انفذوا كتشنر باشا وكان وقتئذ ضابطاً فى أركان حرب الجيش الانكليزي وكان متنكراً في زي مغربي ومتعمما بعمامة فوصل الى دنقلة والحامية زاحفة الي واقعة كورتى التي سبق لنا ذكرها ثم تأكد عنده بقاء الحامية على طاعة الحكومة وقدم نفسه للمدير فقوبل بما يليق به من الحفاوة والاكرام ثم بقي هناك متجولا في انحاء المديرية يرافقه وكيلها احمد جودت بك حتي وصلت الحملة الانكليزية التى زالت مخاوفها بعد ان أوقف كتشنر باشا الحكومة على الحقيقة التي كان فهمها ملتبساً عليها

وصول الحملة الانكليزية الي دنقلة

لانطيل على القاري. الكلام فى سرد ما كان من أمر الحملة الانكليزية التي أرسلت بعد تردد واحجام كانا السبب الاكبر لفقدان فائدتها حيث صارت هاته الحملة كأنها لم تكن وذلك لانها لم يكن الباعث لارسالها الا انقاذ غردون باشا وقد علم القاري. انها لم توفق للقيام بهذا العمل

وفي أواخر شهر صفر سنة ١٣٠٢ تكاملت الحملة الانكليزية في (كورتى) وتعين اللورد ولسلى قائداً عاما لها وأخذت فى الاهبة والاستعداد لمتابعة السير الى جهة الجنوب فقر الرأى على انفاذ حملتين تسير احداهما فى طريق الصحراء الى المتمة فى (عطمور جقدول) وتسير الثانية فى طريق النيل قاصدة بربر

حملة الجنرال ارل وقتله بواقعة كربكان

عين اللورد ولسلي الجنرال (ارل) قائداً لحملة النيل فسار من (كورتي) ومعه نحو ثلاثة آلاف جندي انكليزي ونحو خمسمائة زورق تقل الجنود المشاة أما الفرسان والطوبجيه فانهم ساروا حيال القوارب في الضفة الغربية وكان الطابور الاول المصري من حامية دنقلة يسير في الضفة الشرقية يقوده البكباشي احمد افندى سليمان الذي كان قبل قيام الحملة حائزاً لرتبة الصاغقول اغاسي فرقى الى رتبة بكباشي بناء على الشهادات الحسنة التي قدمها المدير الى اللورد ولسلي بخصوصه

واستمرت الحملة فى سيرها ثمانية أيام وفر أهالى القري الى الجهات الجنوبية وتركوا قراهم حتى بلغت جهة كربكان بالقرب من أبو حمد وهناك علمت ان نحو الفي مقاتل من الدراويش تحصنوا بجبل منيع ليقاوموها ويثوروا في وجهها فانضمت القوة المصرية الى القوات الانكليزية فى الضفة الغربية وهاجمت معقل الدراويش من الجهة الشمالية فاطلقوا النيران عليها ثم قسم الجنرال (ارل) القوة وترك قسما منها يناوش العدو من جهة الشمال وهجم بالقسم الثانى على العدو من جهة الجنوب الغربي فاستولى على المعقل وقتل الدراويش عن بكرة أبيهم ولم ينج منهم غير خمسة أشخاص أصيبوا بجروح بليغة وأصيب الجنرال (ارل) برصاصة قضت عليه وتولى قيادة الحملة بعده الجنرال (بركنبري) ثم صدرت اليه الاوامر بالعودة الى دنقلة وذلك على أثر وصول الاخبار بسقوط الخرطوم وقتل الطيب الذكر غردون باشا وكان بازاء كربكان في الصحراء منهل اسمه (بيرسانه) اجتمع فيه زهاء الفين من

الدراويش اخذوا يشنون الغارة على موقع الحملة ليقطعوا عليها خط الرجوع فانتدب الجنرال برنكنبرى البكباشى احمد افندى سليمان والطابور الذى يقوده وأمره بالتربص خلف الحملة المطاردة أولئك فجرت بينه وبينهم عدة وقائع كان الفوز له عليهم فى جميعها وبقى معسكراً في كربكان اسبوعين ثم قفل راجعاً الى دنقلة

هذا ما كان من أمر حملة النيل وسيأتى ذكر حملة الصحراء ووصولها الخرطوم بعد سقوطها بيومين

واقعة ابو طليح

لما وصلت للمهدي أخبار وصول الجنود الانكليزية الى (كورتى) وأخبار تقدمهم الى الخرطوم عن طريق (عطمور جقدول) حيث ينتهى سيرهم الى شاطىء النهر في جهة المتمة التي كانت بواخر غردون باشا تنتظرهم فيها كتب المهدى الي محمد الخير صاحب بربر يأمره بحشد الجيوش في بربر لمقاومة حملة الجنرال (ارل) وانتدب موسى بن محمد حلو شقيق خليفة الفاروق وأمير رايته الخضراء ومعه نحو ثلاثين الف مقاتل من أولى القوة والباس وهم من رجالة (دغيم وكنانة) الذين ذكرنا خبر مبايعتهم للمهدي يوم اجتاز النهر الابيض بعد واقعة (آبا) وشهدوا معه جميع وقائعه وحروبه وكان ذلك في أوائل شهر ربيع الأول سنة ١٣٠٢

وتقدم المهدى لتشييع الجيش وسار معه نحو خمسة عشر ميلاً ثم ودعهم بعد ان بايعهم على ان لا يتركوا الانكليز يبلغون المتمة وفيهم رمق من الحياة ثم سار الجيش يقوده موسى الذي أطلق العنان لانصاره فنهبوا جميع القري

الواقعة بين المتمة وأم درمان واستباحوا النساء ومكثوا في الطريق نحو أسبوعين حتى بلغوا المتمة مع ان المسافة لا تتجاوز أربعة ايام مع السير البطيء

وفي أواخر شهر ربيع الأول سنة ١٣٠٢ أبصر نصحي باشا وعساكره وهم في بواخرهم في المتمة جيوش الامير موسى زاحفة الي جهة (أبو طليح) وهي بئر في الصحراء تبعد عن المتمة بمسيرة ثلاث مراحل

هذا ما كان من أمر المهدي أما الحملة الانكليزية فانها سارت من (كورتي) في أوائل شهر ربيع الاول سنة ١٣٠٢ وعدد جنودها نحو الفين وقائدها السر (هربرت استوارت) فوصلت الى أبو طليح في النصف الثاني من شهر ربيع الاول وتقدم نحوها الامير موسى بالثلاثين الف مقاتل الذين معه وانضم اليه بضعة آلاف من مقاتلة الجعليين فالتقى بالحملة في (أبو طليح) وهجم عليها كما تهجم الاسود على الفرائس ولم يكن الا كلمح البصر حتى اختلط العسكران وصارت المحاربة بالسلاح الابيض وعندئذ قتل القائد السر هربرت استوارت وتولى القيادة بدله الجنرال (بول) فتمكن من التقهقر تاركا أحماله وأثقاله في ساحة المعمعة فاشتغل الدراويش بالنهب والسلب مدة وجيزة تمكن القائد في خلالها من إعادة النظام بين جنوده الذين أظهروا من البسالة والثبات ما حير العقول حيث كرّ بهم على الدراويش وأمطرهم نيرانا حامية فسقط من الدراويش نحو ستة عشر الف قتيل وقتل الامير موسى ونحو عشرين قائدا من قواده الذين هم من اكبر قواد جيش المهدي واكثرهم تمسكا وتصديقاً بدعوته وتمسك بقية الدراويش باذيال الفرار وهم مذعورون لا يصدقون بالنجاة وقد رأيت رجلا منهم في أم درمان أصيب بجنون عقب هذه الواقعة فقال لي ان الانكليز شياطين وليسوا آدميين لانهم بعد ان هزمونا في (أبو طليح) دخلوا

اجسامنا واحتلوا رأسي وانا لا أدرى كيف ادفعهم عن نفسي . ووصلت أخبار هذه الهزيمة الى المهدي فكان من أمره ما تقدم لنا إيراده حيث عول على إسقاط الخرطوم الذي جرأه على الاقدام عليه عمر ابراهيم الصنجق الذى ذكرنا نبأ فراره وبعد انتصار الحملة أرسل القائد كتابا الي المتمة قال فيه ما يأتي

نحن أول فرقة من جيش جلالة الملكة جئنا لكبح جماح الاشقياء المتمردين وانقاذ مدينة الخرطوم فان أردتم الدخول تحت طاعتنا فعليكم امان الله وامان جلالة ملكتنا وعليكم ان تقابلونا جنوب البلدة ناشرى رايات الخضوع والتسليم واعلموا أنكم ان لم تفعلوا ذلك يحل بكم ماحل بالذين حاربناهم في أبو طليح وحينئذٍ تجنون ثمار ما غرسته أيديكم والسلام

ولما وصل هذا الكتاب الي أهالي المتمة أخلوا البلدة وعسكروا شمالها

وفي اليوم الثاني من شهر ربيع الثانى وصلت الحملة الانكليزية الي المتمة وتحصن الدراويش في البلد فهاجمهم الانكليز بثبات غريب والحقت قنابلهم ومقذوفاتهم اضراراً كثيرة بمواقع الدراويش ومتاريسهم

واجتمعت الحملة بالبواخر التي كانت مرسلة من غردون للاستكشاف تحت قيادة محمد نصحى باشا وعسكرت الحملة في قرية (القبة) جنوب المتمة وتحصنت فيها

وهنا نقول لو أبحرت الحملة منذ وصولها الى الخرطوم لما سقطت ولكنها بقيت في المتمة خمسة أيام

وفي يوم السبت سابع ربيع الثانى أبحر (السر شارلس ولسن) مدير مخابرات الحملة الانكليزية على الباخرة (بردين) و(تلحوين) قاصداً الخرطوم وكان سفره قبيل غروب الشمس وسير بواخره بطيئا جدا لانخفاض ماء النهر وامامه شلالات

وفى مساء يوم سقوط الخرطوم سمعوا الصياح على ضفتي النهر بسقوط المدينة وقتل الطيب الذكر غردون فلم يصدقوا ذلك حتى كان يوم الاربعاء ١١ ربيع الثاني و٢٨ يناير سنة ١٨٨٥ وكنت اذ ذاك فى سجن بيت المال فسمعت الحراس يقولون لبعضهم «شددوا الحفظ على الاسرى لان بواخر الانكليز ستصل الى الخرطوم اليوم» وركب المهدي وخلفاؤه ووقفوا في أم درمان والرصاص والمقذوفات تتساقط على الباخرتين قبل ان تبلغا أم درمان بنحو عشرين ميلاً والراية الانكليزية تخفق فوقهما حتى وصلتا الي ملتوي النهر وهما قاصدتان سراى غردون فاطلقت عليهم المدافع من طابية (المقرن) التي لا تبعد عن السراى باكثر من ميل وعندئذ أيقن السر شارلس ولسن بسقوط الخرطوم وقتل غردون فارتد راجعاً من حيث جاء ولما أبصر المهدى الباخرتين عائدتين نزل عن دابته الي الارض وخر ساجدا شكرا لله الذى أوقع الخرطوم فى قبضته قبل ان يبلغها الانكليز

وفى اليوم التالي اصطدمت الباخرة تلحوين بحجر فى (شلال رحام) فغرقت وانتقل السر شارلس وجنوده الى الباخرة الثانية التي غرقت أيضا بعد يومين واضطروا الآن يتحصنوا فى جزيرة (ولد الحبشى) حتى تدركهم النجدة من معسكر المتمة وبعد يومين ادركتهم باخرة انقذتهم بعد ان أحاط العدو بهم وهاجمهم عدة مرات

ذكر تعيين عبد الرحمن النجومي لقتال الانكليز في المتمة

وفى يوم ١٥ ربيع الثانى سنة ١٣٠٢ شيع المهدي عبد الرحمن النجومى وأبا قرجة والجيش الذى كان معهما لقتال الانكليز فى المتمة وكتب منشورا

الي ضباط وعساكر الحملة الانكليزية يدعوهم فيه الي الاسلام وهاهي صورة المنشور نقلا عن كتاب المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالى الكريم . والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم. وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدى بن عبد الله الي كافة ضباط وعساكر الانكليز خصوصا الاعيان والرؤس. أرشدهم الله الى اتباع سبيل النجاة قبل البوس. وجعلهم من اللائذين بجنابه العزيز آمين. انكم اذا تدبرتم بعقولكم وتفرستم في قدرة خالقكم وعجزكم عن مقاومته علمتم ان مخالفته شنيعة ولا ينبغي لكم الا امتثال أمره واجتناب نهيه والهروب منه اليه وقد أظهرنا للدعاية الى حماه. والدخول في ساحة كرمه وعطاياه. فهيا الي ذلك واغتنموا سعادتكم قبل المهالك وسلموا تسلموا وأسلموا يؤتكم الله أجركم مرتين ولا تعرضوا فتكونوا من النادمين كراشد ويوسف حسن الشلالي وعلاء الدين وهكس وغردون لانا أنذرناهم مراراً . ودعوناهم فما زادهم ذلك الا فراراً . فذاقوا عذاب الخزى في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى والسعيد من اتعظ بغيره وهذا انذار لكم فاذا بلغكم وأردتم الفوز العظيم. والنعيم الدائم المقيم. فلبوا اجابة دعوتنا الى الله وبادروا بالتوبة قبل تعذرها عليكم وقد توجهت اليكم جنود الله ولا طاقة لكم بمحاربتها ولكن من باب الشفقة عليكم أمرناهم ان لا يحاربوكم الا بعد وصول هذا لكم وتحقق الاباء منكم عن الاجابة وأن لا يؤذوكم ولا يتعرضوا لكم في شيء من حقوقكم الخاصة اذا سلمتم ماعدا حق الميرى والاسلحة والجباخين فان سلمتم فعليكم أمان الله ورسوله وأمان العبد لله وتكونوا من ضمن أنصارنا وليس قصدنا استعباد

أحد ولا ارادة جاه ولا ملك في الدنيا ولا رغبة لنا في حياتها ولا في لذاتها الفانية بل انما قصدنا الدلالة الى الله كما أمرنا الله ورسوله بذلك والا اذا خالفتم فلا نقبل منكم صرفا ولا عدلا وسترون ما يحل بكم واصغوا بآذانكم الواعية لما أقول ان كان لكم عقول فان الله تعالى قد اظهرني رحمة لمن اطاعه باتباعي ونقمة على من عصاه بمخالفتي وأيدني منه بالنصر والظفر وأمدني بهم رسله وأنبيائه وملائكته وأوليائه فلا يقدر على محاربتي الثقلان ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ولو شئت لقبض الله سلاحكم بحيث ان أصحابي يقتلونكم ولا يقتلون ولكني اخترت بتوفيق الله تعالى الشهادة لهم في سبيل الله اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم فاياكم والغرور فان جند الله غالب وفي هذا كفاية لاهل العناية والسلام ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٣٠٢

ذكر عود الحملة الانكليزية الي دنقلة

بعد انقاذ السر شارلس ولسن من (ولد الحبشي) علمت الحملة ان جيشا كثيفا تحت قيادة عبد الرحمن النجومي قادم اليها كما انه يوجد جيش من الجعليين معسكر شمال المتمة فنصبت أشباحا من الخشب يخالها الرائي من البعد فرسانا وأوقدت مصابيح من البترول ثم ارتحلت الحملة أول الليل في ظلام حالك وجدت السير حتى بلغت منهل (أبو طليح) ولم يعلم أحد من الدراويش المعسكرين حولها بمغادرتها (القبة) حيث كانوا يرون التماثيل فيظنونها الجنود واقفة في حصنها وفي الليل يبصرون المصابيح فوق الحصن وهم لا يشكون في شيء من أمر بقاء الحملة وظلوا على هذا الحال ثلاث ليال وهم يطلقون الرصاص على المعقل وفي صبيحة الليلة الثالثة انكروا

سكوت الحملة عن مجاوبتهم فتقدم أحد الدراويش حتي صار علي مقربة من الحصن فرآى التماثيل والمصابيح موقدة ليل نهار وعلم أن ضوء النهار هو الذى كان يحجب نورها فرجع وأعلم الباقين وأسرع مع ثلاثة آلاف راكب ليلحقوا الحملة فى أبوطليح وكانت غادرتها منذ ليلتين وصارت على مقربة من (كورتى) التي بها اللورد ولسلى فلم يعد في الامكان اللحاق بها

ووصل عبد الرحمن النجومى المتمة بعد ان غادرتها الحملة ببضعة ايام

وفي آخر شهر جمادي الاولى سنة ١٣٠٢ وصلت الحملة الى (كورتي) وقدم السر شارلس ولسن تقريره عن سقوط الخرطوم ومقتل الجنرال غردون

ولما وصلت أنباء مغادرة الانكليز للمتمة للمهدى سر بها وكتب الى محمد الخير أمير بربر يأمره بجمع الجيوش والتقدم الى حدود دنقلة وفي شهر شعبان سنة ١٣٠٢ أخلى الانكليز دنقلة وعقب ذلك دخلها محمد الخير واستولى على الاقليم كله وبلغت جيوشه جنوب حلفا ومن ثم صارت الاقاليم السودانية تحت سلطة المهدي وأخذ يخبر من حوله من الاتباع بانه سيزحف على دنقلة بعد بضعة شهور ومنها الى القاهرة وبعث رسولين يحملان كتابين أحدهما برسم المغفور له الخديو الاسبق والثانى برسم سكان مصر وهاهى صورة الكتابين نقلا عن كتاب المنشورات

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المعتصم بالله محمد المهدي بن عبد الله الى خديو مصر . لا يخفى على من نور الله بصيرته وشرح صدره ان الدين الذى يكون المتمسك به ناجيا عند الله هو دين الاسلام الذى جاءنا به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ونزل به القرآن من

الملك العلام قال تعالى «ان الدين عند الله الاسلام» وقال تعالي «ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه» وما سوي ذلك من الاديان فضلال يدعو الشيطان اليه حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ومن منحه الله تعالى عقلا يميز به بين الخبيث والطيب لا ينبغي له ان يصرفه الا فيما ينتج خلاصه عند الله يوم تزل الاقدام. ويشيب الطفل ويشتد الزحام. والا كان أسوأ من البهائم حيث أضاع حكمة تركيب العقل فيه ولا سبيل الى السلامة عند الله الا اتباع دينه. واحياء سنة نبيه وأمينه. واماتة ما حدث من البدع والضلال. والانابة اليه تعالي في كل الاحوال. وقد تأكد ذلك في هذا الزمان. الذي عم الفساد فيه سائر البلدان فان دسائس أهل الكفر التى ادخلوها على أهل الاسلام. وضلالاتهم التى مكنوها من قلوب الانام. قد أفضت الى اندراس الدين وعطلت أحكام الكتاب والسنة بيقين. فصارت شعائر الاسلام غريبة بين الانام. وتراكمت الظلمات وانتشرت البدع وأبيحت محارم الاسلام. واشتد الكرب على أهل الايمان. فصار القابض على دينه كالقابض على الجمر لتراكم البغي والعدوان. فعند ذلك اظهرني الله طبق الوعد الصادق رحمة لعباده لانقذهم من ظلمة الكفر الى نور الايمان. وأدلهم الي الله علي هدي منه وتبيان. وطوقني بالخلافة الكبرى المهدية. وخلع علي حللها البهية. وبشرني سيد الوجود صلي الله عليه وسلم بالنصر علي كل من يعاديني ولو كان الثقلين وبأن من يقصدني بعداوة يخذله الله في الدارين. وقلدني سيف النصر وأيدني بقذف الرعب في قلوب اعدائي يسعى امامي أربعين ميلا وأخبرني باني أملك جميع الارض وبان من شك في مهديتي فقد كفر بالله ورسوله ونفسه وماله غنيمة للمسلمين وبان الله قد أيدني بالملائكة الكرام وبالجن والاولياء احياء وأمواتا وهكذا من البشارات والعجائب

التي يطول شرحها وكل ذلك بحضرة الملائكة المقربين والخلفاء الاربعة والخضر عليه السلام وما كنت أترقب هذا الامر لنفسي ولا سألت الله اياه بل كنت أسأله أن يجعلني معينا لمن يقوم به فلما أراد الله ما كان. وحتم الامر عليّ من سيد الاكوان. قمت باعباء هذه الحالة واعتصمت بالله وتوكلت عليه وأخبرت الحكمدارية باني المهدى المنتظر وقد كان بها محمد رؤف وما تركت لاهلها في ايضاح هذا الامر شيئاً وأنا فى انتظار الاختبار. وتسليم الامر لله الواحد القهار. فما كان منهم الا أن ضربوا عما أخبرتهم به صفحاً. وطووا عن قبوله كشحاً. وبادرونى بالمحاربة من غير روية ولا تثبت فى هذا الامر الدينى الذى جئتهم به من خير البرية فأيدنى الله عليهم كما وعدني وهكذا صارت جيوشك تأتيني ثلة بعد ثلة وأقدم لهم الانذارات ولم تنفعهم والله يؤيدنى وينصرني عليهم كما وعدنى ويقطع دابرهم الى أن قلت حيلتك وتلاشى أمرك فسلمت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم لاعداء الله الانكليز وأحللت لهم دماءهم وأموالهم وأعراضهم فجاء الانكليز بكبرهم وخيلائهم واعتمادهم على غير الله فلما سوّل الشيطان لهم ادراك غردونهم بالخرطوم وأيست من هدايته أهله وعلمت أن تكرر الانذارات لا ينفعهم وحقت عليهم كلمة العذاب وصاروا مثل من قال الله تعالى في شأنهم « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم » الآية عجل الله بفتحه واهلاك من فيه وأحرقت النار أجسامهم عيانا كالذين من قبلهم اظهاراً للحقيقة وتعجيلا للعقوبة وصدق عليهم قوله تعالى « حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة » الآية ثم أنذرت الانكليز فلووا رؤسهم فوجهت اليهم طائفة من الانصار فقذف الله في قلوبهم الرعب فولوا هاربين بعد ان أهلك منهم من أهلك وشتت شملهم وهذا كله ليس بخاف

عليك ولا زال حزب الله مقتفيا أثر باقيهم وعن قريب يحل به من الدمار مايكون عبرة لمن اعتبر. هذا وان المؤمن المصدق بوعد الله لايرى لجميع مافي الحياة الدنيا من الفانيات قيمة ولا يأسف على مافات من ملكها الذي ما له الى الزوال وعظيم النكال. وانما يكون مطمح نظره الى ما عند الله من النوال فى دار الكرامة والافضال. فان الدنيا لو بقيت للاول لم تنتقل للآخر. ومن هنا نعلم ان هذا الملك لم يصل اليك الا بموت أو عزل من كان قبلك وهو خارج من يدك بمثل ماصار اليك وحيث كان الامر كذلك فلا ينبغي لك ان كنت ترجو من الله نعيم الابد ان تأسف على ما فاتك من الدنيا ولو كان الدنيا بحذافيرها فدقق النظر واجمع عليك فكرك وتدارك نفسك واسع فيما ينجيك عند ربك اذا تمثلت بين يديه وسألك عما جرى منك وسلم الامر اليه تسلم وما كان يحسن منك ان تتخذ الكافرين أولياء من دون الله وتستعين بهم على سفك دماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم ألم تسمع قوله تعالى «ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم» الآية وقوله تعالى «لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم» الآية وقوله تعالى «ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق» الآية وقوله تعالى «ياأيها الذين لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء» الآية وما هذه الطاعة لاعداء الله والله تعالى يقول «ياأيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله» الى ان قال «ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا

تموتن الا وأنتم مسلمون » الآية فاذا كنت ممن ينظر بعين بصيرته ولا يؤثر
متاع الدنيا الخسيس على نعيم آخرته فاعتبر بذلك وبادر الي النجاة والسلامة
المعتبرة وهي سلامة الايمان ونزه نفسك عن ان تكون في اسر أعداء الله
دائما ولا تهلك من كان معك من أمة محمد صلى الله عليه وسلم واغسل
ماجرى منك بدموع الندم ولا تكترث بجاه الدنيا الفانى ولا بملكها الزائل
فان لله دارا خيرا منها وقد أعدها لعباده المتواضعين لجلاله قال تعالى « تلك
الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الارض ولا فساداً والعاقبة
للمتقين » الآية واياك والركون الى أقوال علماء السوء الذين أسكرهم حب
الجاه والمال حتى اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فيهلكوك كما أهلكوا من
قبلك ففي الحديث القدسي « لا تسأل عني عالما أسكره حب الدنيا فيصدك
عن طريقي أولئك قطاع الطريق على عبادي » ولا تغتر بقوة حصن بلدك
وكثرة أسلحتك وعددك الظاهرية ومظاهرة أهل الكفر لك فانها لا تغنى
عنك من الله شيئاً وكم أهلك قبلك من الملوك أهل الحصون المنيعة من هو
أشد منك قوة وأكثر جمعا لما بغوا وعثوا في الارض مفسدين وليكن
فى علمك ان أمرنا هذا ديني مبني على هدى من الله ونور من رسول الله
صلى الله عليه وسلم ومؤيد من عند الله بجنود ظاهرية وباطنية وما قصدنا
فيه الا احياء الدين واظهار آثار الانبياء والمرسلين ولا نريد مع ذلك ملكا
ولا جاهاً ولا مالا فان نور الله بصيرتك وخالفت النفس الامارة بالسوء
وقبلت هدينا وأنبت الي الله بنية خالصة فلك أمان الله ورسوله واماننا وما
بيننا وبينك الا المحبة الخالصة لوجه الله تعالى ونكون نحن الجميع يداً واحدة على
اقامة الدين وإخراج اعداء الله من بلاد المسلمين . وقطع دابرهم واستئصالهم

من عند آخرهم ان لم ينيبوا الي الله ويسلموا وقد حررت اليك هذا الكتاب
وانا بالخرطوم شفقة عليك وحرصا علي هدايتك فارجو الله ان يشرح
صدرك لقبوله ويدلك على صلاحك ورشادك فى الدارين وها انا قادم الى
جهتك بجنود الله عن قريب ان شاء الله تعالي فان أمر السودان قد انتهى
فان بادرتني بالتسليم لامر المهدية والانابة الي الله رب البرية فقد حزت
السعادة الابدية وأمنت علي نفسك ومالك وعرضك انت وكافة من يجيب
دعوتنا معك وان أبيت بعد هذا الا الاعراض عن طريق الفلاح والرشاد
فانما عليك اثمك واثم من معك ولا بد من وقوعك فى قبضتنا ولو كنت
فى بروج مشيدة وهذا انذار مني اليك وفيه الكفاية لمن أدركته العناية
والسلام على من اتبع الهدى

(الكتاب الثانى)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد
فمن العبد المعتصم بالله محمد المهدى بن عبد الله الي كافة سكان مصر حكاما
وتجاراً وعمدا وغيرهم وفقهم الله وهداهم. ولرشادهم ولاهم. أمين. أهدى لكم
السلام وأعرفكم ان النجاة من عذاب الله انما تكون للمتمسك بدينه الذي جاءنا
به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقد رأيتم ما ناله من الاندراس الذي لا يخفى
ولما ان أراد الله إحياءه واظهار شعائره انجز موعد نبيه محمد صلى الله عليه
وسلم فاظهرنى بالخلافة المهدية. وأمرني بدعاية الخلائق الى العمل بالسنة المرضية
ومن عهد ظهوري بهذا المظهر الديني مازالت دولة الترك تجيش جيوشها
وترسل رجالها لمحاربتي من غير استناد الي دليل شرعى. ولا حكم مرعى. بل رغبة
فى ملك الدنيا الفاني الذى مآله الحسرة والندامة. وجلب عذاب الله يوم القيامة

وما زل الله يؤيدني وينصرني عليهم نصرا من عنده لا بحولي وقوتي وقد أهلك الله جميع عساكرهم الذين بالسودان على يدي وأحرقهم بالنار عيانا شاهدهم جميع من رآهم حين قتلهم الله بسيفي وما ذلك الا اظهار لكفرهم وتعجيل لعقوبتهم ولا شك ان جميع ذلك قد بلغكم وتواتر اليكم من الواردين. وما زلتم عن الحق معرضين. وعلى حب حطام الدنيا الخسيس عاكفين. مع علمكم بان الله قد ذم هذه الدنيا في جميع كتبه السماوية ولا سيما القرآن فقد اكثر من ذمها فيه ويكفي من ذلك قوله تعالى «اعلموا انما الحيوة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحيوة الدنيا الا متاع الغرور» وقوله تعالى «وما هذه الحيوة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهى الحيوان» واعظم شأن الآخرة عنده أعدها لعباده المؤمنين وجعل لهم فيها من النعم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وأكرمهم فيها بالنظر الى وجهه الكريم ودعاهم اليها بقوله تعالى «وسارعوا الي مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين» الآية وحيث فهمتم خسة هذه الدار الفانية وعظم تلك الدار الباقية فيلزمكم الاعراض عن هذا الفاني الخسيس. والمسارعة الى حوز نعيم الابد النفيس. ولا يخفى عليكم ما حصل منكم من التفريط في جنب الله وتربص الدوائر بحزب الله بالركون الى محبة نصرة أعداء الله ومع ذلك فقد سامحناكم في جميع ماجري منكم ان بادرتم الى اجابة دعوتنا والانتظام في سلك أصحابنا أول وصول كتابنا هذا اليكم ولا نقول لكم الا كما قال يوسف عليه السلام لاخوته «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين» وليكن في علمكم

ان أمر السودان قد انتهي ونحن قادمون على جهتكم بحزب الله قريبا ان شاء الله وما كاتبتكم بهذا الكتاب الا شفقة عليكم وخوفا من أن يحل بكم من العذاب ماحل باخوانكم الذين خالفوا أمرنا وغرتهم الاماني واعتمدوا على قوتهم الظاهرية التى أنستهم قدرة الله على كل شيء فان شرح الله صدوركم وتلقيتم أمرنا هذا بالقبول فأبشروا بخير الدارين وعليكم أمان الله ورسوله وأماننا في أنفسكم وأموالكم وأعراضكم أنتم وجميع من يجيب دعوتنا معكم وان ضربتم عن مقالنا هذا صفحا فاعلموا ان الله تعالى قادر قاهر لا يعجزه شيء في الارض ولا في السماء وقد وعدني بالنصر وأيدني بملائكته وجنده وأوليائه واخبرني بملكي لجميع الارض وبانه لا يثبت لقتالي انس ولا جن ولا بد باذن الله من وقوعكم في قبضتنا ولو اتخذتم نفقا في الارض أو سلماً في السماء وستعلمون غداً من الكذاب. فياعباد الله ارفقوا بأنفسكم وأصلحوا عاقبة أمركم ودعوا هذا الاعراض والتلاهي بشهوات الدنيا المنغصة بالعلل والامراض وتشوقوا للقاء الله فان الدار آخرة والحياة آخرة وهذه الدار قد ولت مدبرة فاتخذوها معبرة ويحكم ويحكم ان لم تداركوا نفوسكم وتنشلوها من هذا الوحل المفضي بكم الى العطل واياكم ان تغتروا بقوة حصن بلدكم فان الله أقدر من كل قادر وكم أهلك قبلكم من أهل الحصون المنيعة من هو أشد منكم قوة واكثر جمعا فاعتبروا بهم وبما فعله الله بهم لما بغوا وعثوا في الارض مفسدين فالله الله عباد الله هلموا الى النجاح والفلاح. قبل قص الجناح. وهذا ماحبرته اليكم وأنذرتكم به ولا داعي الي التطويل. فان الهداية من الله الجليل. أسأل الله أن يلهمكم رشادكم ويأخذ بنواصيكم الى طريق سدادكم هذا والسلام

ذكر فداء القسس والمسيحيين

لما سقطت الخرطوم أمسك اللورد ولسلي محمد عبد القادر وحاج شرفي محمد نور وشريف ساتي على وعبد القادر عبد الكريم ومحمد ابراهيم وأحمد النجيب وحاج شرفي بن القاضي محمود وكلهم من أقارب المهدي وأنسبائه وزجهم في السجن وهددهم بالقتل ان لم يكتبوا الى قريبهم المهدى يسألونه فداءهم بما عنده من الاسرى المسيحيين عموما والقسوس خصوصاً فكتبوا كتاباً الى المهدى قالوا فيه انهم مهددون بالقتل الا ان يتداركهم بالفداء بما عنده من القسوس والمسيحيين مراعاة لحق القرابة فاجابهم بكتاب قال فيه ان المسيحيين الذين لديه قد اعتنقوا الاسلام دينا وتشرفوا بصحبته والانتماء اليه حتي انهم صاروا أقرب اليه منهم كما ان الذين أمسكهم اللوردولسلى تجمعهم واياه جامعة الكفر ثم ختم الكتاب بقوله لذوي قرابته لابد من وقوعكم في قبضتنا انتم واللورد ولسلى وتذوقون السوء بما صددتم عن سبيل الله وفي الكتاب تعنيف شديد لهم على جرأتهم بمخاطبته بمثل هذا الطلب

ولما وصل كتابه الى اللورد ولسلى أطلقهم من السجن واغدق لهم العطاء وأعادهم الى وطنهم

هذا ولما علمت وأنا بام درمان بامر هذا الفداء تذكرت ماقاله لى المأسوف عليه غردون باشا حيث قال لي انك لاتجد من يسعى في خلاصك من الاسر وقد ساء وقع هذه الحادثة في نفسي ونفوس سائر الاسرى المصريين الذين علموا ان حكومتهم لاتسعي في خلاصهم من الاسر الا اذا كانوا مسيحيين ولكن خفف عني بعض ما أجده سعي السر غرانفيل باشا

سردار الجيش المصري في فكاكي من الاسر . على اني شكرته وان لم يقرن سعيه بالنجاح وبيد الله كل شيء

ذكر توجيه الجيش لمحاربة سنار

ذكرنا ما كان من بداية الثورة المهدوية حوالي سنار وما كان من اخمادها على يد عبد القادر حلمي باشا

ولما سقطت الخرطوم في قبضة المهدي وجه ابن عمه محمد عبد الكريم في نحو عشرين الف مقاتل لتضييق الحصار على سنار فوصل اليها في أواخر شهر رجب وأحاط بها احاطة السوار بالمعصم وسنعود الي ذكر تلك الحوادث حيث كان سقوط سنار بعد وفاة المهدي بثلاثة شهور

ولما ذهب المهدي لوداع الجيش خطب خطبة قال فيها ما يأتي

يا أنصاري الصادقين سيروا على بركة الله لقتال كفار سنار واعلموا ان الله معكم عليهم وسينصركم نصراً عزيزاً لانكم حزب الله وأولياؤه. وهم حزب الشيطان وحزب الله أقوى من حزب الشيطان وقد بشرني النبي صلي الله عليه وسلم بفتوح سنار قريبا وانه بعد انقضاء شهر رمضان نتقدم الى دنقلة ومنها الي مصر وفي العام الآتي نكون قد تجاوزنا مصر حيث نكون على أبواب الحرمين الشريفين

ذكر انتداب الشيخ الحسين زهراء الي كسلا

انتدب المهدى الشيخ الحسين زهراء ومعه ابراهيم عالم الحلاوي ومحمد حمزة البربري الى كسلا الاول والثانى بصفة نائبين عنه ليعقد مع مدير كسلا

شروط الصلح والثاني بصفة أمين لبيت المال

فساروا قاصدين كسلا وما كادوا يبلغونها حتى فاجاهم نعي المهدي الذي بث في الحامية روح الثبات وأخذت تماطل في وضع شروط التسليم ريثما يصلها الرأس ألولا الحبشي الذي عاهد الحكومة الخديوية على انقاذ حامية كسلا وكان من أمره ما نأتي عليه ضمن حوادث تلك المدينة حتى سقوطها الذي حصل بعد وفاة المهدي

ذكر وفود عوض الكريم ابي سن زعيم الشكرية على المهدي

ذكرنا ماكان من أمر عوض الكريم أبي سن زعيم قبيلة الشكرية وامتناعه من الدخول في دعوة المهدي واعتصامه بقبيلته في صحراء (ريره) بين النيل الازرق ونهر (اتبره)

ولما سقطت الخرطوم انفذ المهدي جيشا يبلغ ستة عشر ألف مقاتل الى قرية (رفاعة) ليزحف منها الى صحراء (ريره) حيث يلتقي بعوض الكريم أبي سن الذي فر من وجه الجيش وغادر محلته قاصدا أم درمان ولدي وصوله اليها علم ان المهدي موجود بالخرطوم فاجتاز النهر واستجار بمحمد صالح ساتي علي عم والد المهدي ووضع علي رأسه ترابا وفي رقبته جنزيرا من الحديد علامة على انه تائب نادم على مافرط منه وقدم نفسه للمهدي في سلاملك الحكمدارية فذهب محمد صالح ساتي على الى المهدي وقال له انني اجرت عوض الكريم والتمس منك ان تصفح عن زلته وتعدل عن عقابه وكان عبد الله التعايشي حاضراً فامتقع لونه وهمّ بالقيام من مجلس المهدي ليأمر بضرب عنق الرجل قبل ان يفوه المهدي بكلمة العفو عنه فامسك بجلابيه محمد صالح ساتي على

وقال له كما أنني أطلب له العفو من المهدي فانني أطلبه منك أيضاً لانك خليفة الصديق وأمير جيش المهدية المشار اليـه في الحضرة النبوية فتبسم التعايشي بسبب هذا المدح وقال له ان عفوي لا يكون الا تبعا لعفو المهدي فاجابه المهدي بانني عفوت عنه وأمر بادخاله ونفض التراب عن رأسه وباطلاقه من الجنزير ثم بايعه البيعة المعلومة وألقى عليه التعايشي تنبيهات فحواها أن لا يفارق معسكر المهدي حتي الممات وسنعود الى ذكر ما حاق به بعد موت المهدي حيث قتله التعايشي صبراً وأفنى قبيلته كلها وصادر جميع أموالها والدوام لله

ذكر تعيين حسين باشا خليفة

داعية من قبل المهدي فى قبيلة العبابدة

تقدم لنا ذكر حسين باشا خليفة مدير بربر وكيف كان سقوط المديرية على يده. ونقول الآن ان حسين باشا المذكور غادر بربر على أثر سقوطها ولحق بالمهدي فى كردفان فتلقاه بالاكرام وعامله معاملة صديق لا معاملة أسير حتي سقطت الخرطوم. وكان من يومئذ يتودد لعبد الله التعايشي ويظهر له الاخلاص ويعرض عليه قدرته على القيام بدعوة المهدية بين قبيلة العبابدة التي تسكن حوالى اسوان

وفى شعبان سنة ١٣٠٢ كتب له كتاباً بالامارة على قبيلة العبابدة فسار من أم درمان فى منتصف شعبان حتى اذا صار على مقربة من «ابو حمد» وصل اليه كتاب من عبد الله التعايشي يدعوه الى العودة الى ام درمان فعلم ان سبب ذلك وفاة المهدي فتابع سيره حيث لم يكن بينه وبين الخروج من منطقة نفوذ المهدوية غير يوم وليلة حتى بلغ الحدود المصرية آمنا وسلم للحكومة

أوامر المهدي المتضمنة تعيينه أميراً على قبيلة العبابدة

ولما وصل حسين باشا خليفة الى مصر صممت الوزارة على معاقبته فوجد بين أعضاء الوزارة من دافع عنه وأقنع زملاءه بوجوب ترك معاقبته حيث انه جاء طائعاً مختاراً ثم كان من أمره مانحن في غنى عن ايراده

ذكر ضربخانة نقود المهدي

ذكرنا المقادير العظيمة التي غنمها المهدى من الخرطوم من الذهب والفضة وفي أواخر شهر جمادى الاولى جمع أمين بيت المال الصياغ وأمرهم أن يضربوا نقوداً من الذهب على شكل الجنيه المصرى مكتوبا على صفحة منها (ضرب في مصر) وعلى الصفحة الثانية الطغراء العثمانية كما هو شأن الجنيه المصرى وزنة هذا الجنيه نحو ثلاثة دراهم من الذهب السناري الذى لا يشوبه أقل زغل وقيمته مثل قيمة الجنيه المصرى أى مائة قرش وأن يضربوا ريالا من الفضة زنته ثمانية دراهم منقوشا على وجه (ضرب في الهجرة) وعلى الوجه الثانى طغراء نقش فيها « بامر المهدى » وقيمة هذا الريال عشرون قرشاً مصريا

وبعد وفاة المهدى جمع التعايشي هذه المسكوكات وابدلها بالريال الذي سماه « مقبول » وسيأتى ذكر ذلك في مكانه

ذكر ختان اولاد المهدى

كثيراً ما كان يبلغنا ونحن محصورون في الخرطوم ان المهدي مصمم على ختان أولاده في جزيرة (آبا) التي جاءته مرتبة المهدية فيها وكثيراً ما نقل لنا الجواسيس انه كان يقول لاتباعه ان النبي صلى الله عليه وسلم أمره بختان أولاده في

تلك الجزيرة وقد ردد غردون صدى تلك الاشاعات في جريدته التي كان يكتبها يومياً زمن الحصار

وفي ذات يوم قال لي ما معناه «اني أرجو ان تحقق هذه الاشاعة حيث يكون من وراء تحقيقها ما يخفف عنا ويلات شدة الحصار» ويظهر ان المهدي لفرط دهائه كان يمهد لنفسه اعذاراً للتقهقر الى الوراء اذا اضطر له يوماما فكان يذيع بين الناس انه مأمور بختان أولاده في جزيرة (آبا) لكي اذا اقتربت الحملة الانكليزية من الخرطوم دون ان يظفر بها تقهقر راجعاً وأظهر للملأ ان هذا التقهقر لختان أولاده لا لجبن أو عدم قدرة على الوقوف في وجه الحملة الانكليزية

ولكن قدّر أنه ظفر بالخرطوم وأمن شر الحملة الانكليزية فاقام معالم الافراح لختان انجاله في أم درمان وذبحت نحو مائة بدنة من الابل ونحو مائتي رأس من البقر والغنم وذلك غير ما قدمه الامراء من الهدايا والمطاعم . وبالجملة انه اظهر في ذلك الاحتفال أبهة الملك والغنى بالرغم عن تظاهره بالتباعد عن تلك الاحتفالات وكان يزعم ان أمين بيت المال هو الذي قام بها من عنده دون ان يكون المهدى عالما بشيء منها

وكان أمين بيت المال يذيع ان المهدى كان لا يتناول شيئاً من خمس الغنائم الذي يخصه بل كان يفوض له انفاقه في سبل البر والاحسان وانه انفق منه نفقات الاحتفال بختان أولاد المهدى الذي تم في السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٣٠٢

ذكر تعيين حمدان ابي عنجة على جبال كردفان

حمدان أبو عنجة قائد الجهادية وأصله مولى من موالى التعايشة وكان

منتظما في سلك عساكر الباشبوزق في دارفور بوظيفة (بولكباشي) أي قائد خمسة وعشرين جنديا

ولما لحق المهدي بجبال (قدير)كان أبو عنجة جابياً للحكومة في احدى جهات دارفور فاغتال مبلغا من الضريبة وفر بها الى المهدى وهناك اجتمع مع عبد الله التعايشي وصار من حزبه فجعله قائداً على (الجهادية) وصار من اكبر انصار عبد الله التعايشي وسيأتي انه فتح (قندر)من مدان الاحباش الشهيرة

وعلى كل حال فان أبا عنجة ذو طباع شريفة وخلال حميدة ميمون الطالع ذو دهاء يعرف به كيف يتمكن من امتلاك قلوب الرجال بالاحسان واللين

ومن ألطف ما سمعته من ثقة ان المهدى أهدى أبا عنجة امرأة حسناء كان أبوها صنجقا فاستاء أهلها وقالوا اذا وطئت بنتنا بملك اليمين أفلا تكون تحت حر بدل أبي عنجة العبد فنقل اليه الخبر ومع انه كان قادراً على التنكيل بهم لم يفعله بل استدعى أم زوجته وأعطاها ألف ريال وجوارى وملابس وهكذا فعل ببقية اصهاره ثم دس من ينقل أخبارهم له فقيل لام زوجته ان صهرك عبد فقالت انه والله فوق الاحرار وقيل لصهره مثل ذلك فقال «انما أصل الفتى ماقد حصل» والخلاصة انه أرضاهم بالاحسان والحر كما لا يخفى اسير الاحسان

وقد أوردنا هذه العبارة للدلالة على دهاء أبي عنجة وان النجاح الذى صادفه فى جميع أحواله لم يكن غير نتيجة أعماله من أمثال هاته النادرة

وفي شعبان سنة ١٣٠٢ أبدى التعايشي للمهدي رغبته في انفاذ حمدان أبي عنجة الى جبال (النوبة)حوالي كردفان للغزو وجلب الارقاء والماشية فوافقه المهدى على رغبته وسافر حمدان أبو عنجة في خمسة عشر ألف مقاتل

جلهم مسلحون بالبنادق وأعطاه مدفعاً جبلياً وذخيرته

وما كاد أبو عنجة يسير من أم درمان عشر مراحل حتى بلغه نعي المهدي فكتب يستشير التعايشي في متابعة السير أو الرجوع فأشار عليه بالمضي لوجهته فتابع سيره وغزا الجبال وغنم شيئاً كثيراً من الماشية والنفوس وكان يرسل للتعايشي خمسها ولاخيه يعقوب بعضاً منها حتى كان من أمره مع محمد خالد زقل ماسنعود الي ذكره فيما يأتي

ذكر مرض المهدي ووفاته

في ليلة الاربعاء لاربع ليال خلون من شهر رمضان عام ١٣٠٢ هجرية أصيب المهدي باعراض حمية وفي مساء الغد ذاع خبر مرضه بين الناس فلم يكترثوا به لانهم واثقون بما كان يعدهم به من أن المنية لا تدركه قبل أن يفتح مصر والشام والكوفة والحجاز

وفي يوم الخميس الخامس من شهر رمضان اشتدت به أعراض الحمى فجيء اليه باطباء مصريين فقرروا ان الحمي من التيفوس وان حالته خطرة ووصفوا له العلاج ولما خرجوا من بين يديه زاروني بمنزلي وأخبروني بانه لا يرجى له شفاء

وفي صبيحة يوم الجمعة أمر الخليفة عبد الله التعايشي أن يخلفه في صلاة الجمعة خلافاً لعادته فانه كان لا يستخلف في الصلاة غير الخليفة علي حلو وكثيراً ما كان يستخلف رجلا من أهالي بربر اسمه احمد الجملي فقيل له ان الخليفة عبد الله أمي لا يدري الكتابة والقراءة فكيف يخطب بالناس فقال لهم ادفعوا له ورقة الخطبة ومروه فليقرأ منها كلمتين أو كلمة فدفعوا له الورقة وخطب

بالناس وصلى بهم وهم في غاية الاستغراب من جهله بالقراءة وتحريفه ألفاظ القرآن

وفي يوم الاحد ثامن رمضان اشتدت وطأة المرض على المهدي فكان ينظر الى من حوله من النساء نظرا يدل على الحسرة على فراقهن وكأنه يخاطبهن بقوله «ما كنت أحسب ان هادم اللذات يزورني قبل ان اتمتع بثمار فتوحاتي وانلذذ بالامر والنهي في المملكة الواسعة التي شيدت بناءها بعد معاناة اهوال تشيب الطفل الرضيع» وكان يرفع صوته مستغيثا قائلا «لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين» وكان يتجرد من ملابسه ويأمر بالماء البارد فيصب على بدنه وبات ليلة الاثنين وحالته تنتقل من سيئ الى أسوأ ولا علم لاحد من الناس باشتداد وطأة المرض عليه غير الخلفاء وأمين بيت المال وبعض ذوي قرابته

وفي يوم الاثنين تاسع رمضان سنة ١٣٠٢ عند أواخر الساعة الرابعة على الحساب العربي فاضت روحه وهو ملقى على الارض محاط بخلفائه ونسائه وبعض ذوي قرابته فصاحت بنته زينب امرأة الخليفه شريف وهي اكبر بناته فوثب عليها زوجها ولطمها فسكتت وصاح احمد سليمان امين بيت المال وخر مغشيا عليه حتى ظنوه قد فارق الحياة . أما الخلفاء فانهم اجتمعوا حوله وتشاوروا فيما يكون من امرهم فاظهر كل منهم تخوفه من افتضاح امرهم وان موت المهدى لابد ان يكون ذا مغبة سيئة إذ به يظهر للملا كذبه فيما كان يمدهم به من فتح البلاد وامتلاك الارض كلها مما هو واضح على صفحات منشوراته التى تقدم لنا ايراد كثير منها

وكان عبد الله التعايشي مندهشاً بعامل الفرح من جهة لان المهدى أوصى له بالخلافة وهو في الرمق الاخير من حياته ومن جهة أخرى كان

لا يؤمل من الناس الانقياد له لان موت صاحبه جاء مكذبا لكل الدعاوى التي كان ينتحلها لنفسه ويعد الناس بها ولذلك كان التعايشي مع الخلفاء في الشوري كمستطلع لأفكارهم ومراقب لما يبدو منهم من الهلع وعدم الثبات فأشار واحد منهم بوجوب اخفاء موت صاحبهم واصدار منشور باسمه يقول فيه انه أمر من النبي صلى الله عليه وسلم بملازمة الاعتكاف على العبادة الى أجل غير معلوم وذلك اعتمادا على منشور صغير اصدره قبل مرضه بثلاثة أيام قال فيه «انى نصبت لكم الخلفاء ووليت عليكم النواب والامناء وجعلت الامراء تابعين للخلفاء فلا تقصدونى لقضاء شيء من مآرب الدنيا بل اتركوني للاشتغال بامور العبادة والانابة الى الله وكونوا على علم بان ماتعذر قضاؤه على الامراء والنواب والامناء والخلفاء فان قضاءه متعذر عليّ أيضاً»

هذه خلاصة ذلك المنشور وقد نقل اليّ ثقة ان عبد الله التعايشي بعد ان سمع ما أشار به زملاؤه الخلفاء انصرف من مجلسهم وهو مضطرب كريشة فى مهب ريح واجتمع بأناس من خواصه وقص عليهم أمر وفاة المهدي وما أشار به الخلفاء فاظهروا له سوء مغبة هذا الاخفاء بعد ان يقف الناس عليه لانه ما من خفي الآ سيعلن وان الاقرب الى السلامة أن يعلن امام الناس وفاة المهدى والبيعة لنفسه فلقنه الشيخ المكى ابن اسماعيل الولي من مشايخ الابيض الجملة التي قالها أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي «من كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ومن كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات» ولكنه أبدل محمداً بالمهدي في القائه فخرج على الناس بباب المهدى وقال لهم هذه العبارة فتقدم الشيخ المكى وبايعه وبايعه الحاضرون وهم يبلغون عشرة أشخاص ثم احتفروا قبراً في نفس الغرفة التي

مات فيها وقالوا انه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفن حيث قبض كما دفن صلى الله عليه وسلم حيث قبض

ومن جهالتهم انهم لم ينزعوا مرقعته عنه بل غسلوه من فوقها كما غسل صلى الله عليه وسلم وكفن في ثوب واحد من خرقة (الدمور)

وفي منتصف الساعة العاشرة صلى التعايشي بالناس صلاة الظهر ثم استدعى نحو عشرين رجلا من أقارب المهدي ودخل بهم الى الغرفة واصطف الناس خارج الغرفة وبينهم وبين المسجد جداران فكانوا يسمعون التكبير متقطعاً من الغرفة فيكبرون وهكذا ظل الناس يكبرون على تكبير من في الغرفة من الساعة العاشرة الى منتصف الساعة الثانية عشرة حتى تجاوز عدد التكبيرات الثلاثمائة ثم انقطع التكبير حيث دفن الميت

وبلغني ان الخليفة على حلو قال ان هذه التكبيرات قليلة بالنسبة لما هو واجب لمقام المهدى

وبعد ان ووري بالتراب خرج التعايشي الى الناس ورقى المنبر وتلا الآية «وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الخ» الآية ثم بايعه الناس وليس فيهم من يجسر على القول بان المهدى مات كأنهم يجلونه عن هذا الامر وكثير من الدراويش هموا بقتل من فاه بهذا الخبر امامهم

هذا وقد ذكرت أن الاطباء الذين باشروا علاجه اخبروني باستحالة شفائه وكنت أتوقع حصول فشل كبير وخلف عظيم بين اتباعه حتى انى لزمت كوخي في يوم وفاته وأنا مترقب من وقت الي آخر ان يبلغني شيء أسر به وكان لي خصى أخذ مني وصار من خصيان دار المهدي وكان بعد خروجه من يدى يحتقرني ويهينني ولا يخاطبني بغير (يا ابراهيم فوزي) ولذلك كنت اكره لقاءه

فدخل عليّ في وقت العصر وقال لي يا ابراهيم فوزى فقلت نعم فقال انّ المهدي قد مات فكدت أطير فرحا لكنني أخفيت ذلك وابتدر الى ذهني ان ذلك الخصي ربما كان مدسوساً عليّ للوقوف على مبلغ شماتتي بموت المهدى فأجبته على الفور بأن قلت له كذبت أيها العبد لان المهدى لا يموت قبل ان يفتح الدنيا كلها ولا يموت في غير المدينة المنورة

وقد كتب التعايشى والخلفاء وأقارب المهدي منشوراً بنعيه الى جميع الجهات ملأوه بخرافات يضيق المقام عن سردها منها أنهم قالوا انه اختار الرفيق الاعلى ومنعوا من القول بانه مات انما يقال انتقل من دار الدنيا الى نعيم الآخرة وانه استخلف التعايشى وأوصي بطاعته وفي المنشور تفسير لما وعد به المهدى من ملك الدنيا كلها حيث قالوا ان ذلك سيتم لاصحابه وعللوا ذلك بان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد بصيرورة ملك كسرى وقيصر له ولم يحصل ذلك بالفعل الا في ايام خلفائه رضوان الله عليهم أجمعين

وقد اضطربت الروايات في مرض المهدى وموته فقال البعض انه مات مسموما من احدى النساء اللواتي أخذهن سبياً من الخرطوم ولكن الحقيقة هى التي أوردناها اذ لم يتناول المهدي سما ولا غيره بل مات بالحمي التيفوسية كما تقدم

ذكر طرف من سيرة المهدى

كان المهدي صاحب دهاء وحيل ولكن المتأمل اللبيب يجد في اخلاقه شيأً من البله مع طموح للمعالي وقد أوردنا في ترجمته انه كان مريداً عند الاستاذ الشيخ محمد شريف بن الاستاذ الشيخ نور الدايم بن الاستاذ قطب

الطريقة السمانية في الاقطار السودانية الشيخ أحمد الطيب

وصار من أمره مع استاذه ما أوردنا طرفا منه آنفاً وفي ابان دعوته سراً أبلغ الاستاذ الشيخ محمد شريف الحكمدارية كل ما دبره فلم يلتفت الحكمدار محمد رؤف باشا الى بلاغه مع انه أطلعه على كل مخبآته وما عقده مع الرؤساء في جهات النيل الابيض وكردفان من العهود وما أخذه عليهم من المواثيق

ولما ظهر بدعوته في جزيرة (آبا) أرسل بلاغا الى الحكمدارية ثم تلته واقعة (آبا) فانبرى لتكذيبه عدد ليس بقليل من العلماء فالفوا الرسائل مشحونة بالادلة الشرعية على بطلان تلك الدعوى وكذب مدعيها

ولما كانت تلك الرسائل مما يتعذر علينا إيراد بعضها هنا اكتفينا بالاشارة اليها فراراً من التطويل الذي يمله القراء

ومن هاته النصائح قصيدة ألفها أستاذه الشيخ محمد شريف أبان فيها أحواله فى بداية أمره حيث قال انه كان صواما قواما لا ينام الليل منذ دخل فى سلك الطريقة . وكان نهما يأكل كثيراً ولكنه منذ بداية أمره كان يخفي شرهه ليظهر امام الناس بالقناعة والزهد

وكان يلبس المرقعة مثل سائر دراويشه . أما اوصافه فانه كان طويل القامة أسمر اللون بخضرة عريض المنكبين مفتول الساعدين ضخم الجثة عظيم الهامة واسع الجبهة أقنى الانف واسع الفم والعينين مستدير اللحية خفيف العارضين أسنانه كاللؤلؤ وفي الفك الاعلى فلجة بين الاسنان حتى كنى بابي فلج

وبالجملة فانه كان ذاصورة جميلة جداً بين السود أمثاله وكان يتعمم على

فلنسوة من نوع مايتعمم عليه أهل مكة وعمامته كبيرة منفرجة من الامام يرسل عذبة منها على منكبه الايسر حتى تجاوز سرته ويضع على منكبيه رداء من (الدمور) ويتمنطق بمنطقة من الخوص أو بخرقة من الدمور ويلبس نعلا تشبه نعال أهل مكة مصنوعة في السودان وكان لبسها مخصوصا بالاعراب والضعفاء ويطلق عليها اسم (الشقيانة) اي نعل الشقاء فأبدل هذا الاسم باسم (السعيدانة) اى نعل السعداء ويحمل على الدوام في يده اليسري أو على منكبه الايسر سيفاً زعم انه سيف النصر الذى أهداه له النبي صلى الله عليه وسلم ويتوكأ على هراوة طويلة مصنوعة من النحاس مكسوة بجلد أو هراوة من النوع المعروف باسم (خيزران)

هذه أوصاف المهدي أوردناها هنا وقد رأينا صوراً كثيرة يقال انها صورته ولكنها كلها صور خيالية تبعد عن الحقيقة بعد السماء من الارض ولذلك لم نأت بصورة منها في هذا الكتاب لعلمنا بعدم انطباق واحدة منها على شيء من صفات المهدى وكذلك كل صور التعايشي خيالية أيضا لاتقرب من الحقيقة مطلقا

وتوفي المهدي وعنده مائة امرأة وعشر منهن أربع أطلق عليهن اسم أمهات المؤمنين . احداهن عائشة بنت ادريس وأصلها من بلاد دكرور فى السودان الغربى تزوج بها فى جبال (قدير) علي أثر موت زوجها قتيلا في واقعة يوسف باشا الشلالي واسمه آدم الاعيسر وكان متزوجا أيضاً بزينب بنت المهدي وبعد قتله تزوج بها الخليفة شريف

وكان المهدي يقول ان عائشة بنت ادريس بمنزلة عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما وولدت له أنثى اسمها زهراء تزوج بها يعقوب شقيق

التعايشي بعد وفاة المهدى

والثانية فاطمة بنت احمد شرفي الدنقلاوي كانت زوجة أخيه محمد الذى قتل فى واقعة الابيض وكان المهدى متزوجا بأختها وله منها عدة أولاد فماتت أختها وقتل زوجها فتزوج بها المهدى وجعلها من أمهات المؤمنين ولم ترزق منه غير ولد اسمه الكامل مات رضيعا ولها أم اسمها حليمة كانت تتزيى بزى الرجال وتتقلد السلاح وتركب الخيل وكانت تتصدر للوعظ فى مجالس الرجال وتقول لهم تمسكوا بالله ورسوله ومهديه وابن مهديه الكامل وأم المؤمنين والدته وجدة الكامل فانه لانجاة للانسان في الآخرة الابهؤلاء فأحضرها التعايشي وزجرها ومنعها من مخالطة الرجال وتوعدها ان عادت الى مقالتها هذه فصدعت بالامر أمامه ولكنها لما خرجت الى الناس قالت لهم ان التعايشي يحسدني كما حسدت قريش النبي صلي الله عليه وسلم

والثالثة فاطمة بنت حاج وهي بنت عمه التى تقدم لناذكر زواجه بها فى الخرطوم وانه طلقها لما ألحت عليه بوجوب السعي للارتزاق من صناعة المراكب ثم راجعها بعد خلافه بجزيرة (آبا) وبعد زواجه بنت أحمد شرف. وله منها ثلاث بنات تزوج عبد الله التعايشي باحداهن بعد وفاة أبيها وتزوج الثانية الخليفة على حلو

والرابعة فاطمة بنت حسين الحجازي وهي مصرية من أهالي مديرية الحدود استوطن أبوها فى جهة تقرب من جزيرة (آبا) وكانت متزوجة بابن عمها صالح الحجازي وكان المهدى قبل دعواه يختلف الي بيت زوجها الذى كان مريدا له وكان لايحجبها عنه لفرط اعتقاده في صلاحه فأظهرت

لزوجها رغبتها فى أخذ أوراد الطريقة عن المهدى فأذن لها ولقنها المهدى أوراد الطريقة فظهرت بمظهر الزهد والعبادة وفرت من بيت زوجها ولحقت بالمهدي في جزيرة (آبا) فادركها زوجها وسألها عن سبب خروجها من بيتها فقالت انى لاأقوى على التقيد بقيود الزواج لانى أصبحت لاأميل لغير العبادة والانقطاع للصوم وقيام الليل فلم يشك زوجها فى أنها كذلك فسألها بقاءها على ذمته بغير أن يطلقها على شرط أن تذهب الى حيث شاءت فبكت وقالت انى أخشى أن يعاقبنى الله على عدم رعايتى حقوق الزواج ولذلك أتوسل اليك بحرمة شيخى وشيخك هذا وأشارت الي المهدى أن تطلقنى فطلقها ورجع الى منزله وكان هذا كله مدبراً بينها وبين المهدى وقبل أن تنتهي العدة الشرعية سمع صالح الحجازى ان مطلقته تزوجت بشيخه وشيخها فاحتدم غيظاً وحمل السلاح وهجم على المهدى وأطلق عليه الرصاص فأخطأه وكانت فاطمة بنت حسين هذه فى منتهى الجمال بيضاء اللون

وكان صالح الحجازي المذكور قد حضر معنا حصار الخرطوم وقص علينا هذه القصة بغير زيادة ولا نقصان

ورزقت فاطمة المذكورة من المهدى بنتا اسمها مريم وهي التي تزوجها التعايشي بعد فراق اختها كلثوم

ولما سقطت الخرطوم اكرم المهدي صالحا الحجازي ولم يعاقبه بشيء وأصدر أمراً بعدم مصادرة شيء من أملاكه وبعدم نهب أمواله وكذلك بنت عمه اكرمته وأهدت اليه هدايا كثيرة من الاموال والجواري والخيول

وسوى هاته الاربع نسوة نحو ثلاثين من بنات اعيان السودان اهداهن له آباؤهن مثل بنت محمد احمد ام برير التى تقدم لنا ذكرها ونحو ثلاثين امرأة

من بنات اعيان المصريين في الخرطوم والبقية من الجواري اللواتي كن موسات فانه كان ذا ولع شديد بهن حتى انه كان كلما فتح بلدا ضم الى محظياته المشهورات من مومساتها . وكان كثير الشبق شديد الولع بالنساء وطريقة اجتماعه بهن انه يسكن غرفة منفردا فيها ونساؤه الاربع يتولين تطييب بقية النساء وتقديمهن له في غرفته فيختار منهن من يشاء

وعلى ذكر نساء المهدي وما استرسل فيه من قضاء الشهوات البهيمية وكيف انتهك الحرمات في سبيل قضاء الاوطار نذكر هنا انه كان لا يضع يده في يد امرأة ليست من نسائه ولا من محارمه وكتب منشوراً قال فيه من صافح امرأة ليست من محارمه فانه يجلد ثمانين جلدة لسوط ويؤمر بصيام شهرين متتابعين. فليتأمل القارئ كيف ساغ له التمتع بالحرائر كموطوآت بملك اليمين وكيف تغالى في عقوبة من صافح امرأة ليست من محارمه وقد زاد في منشوره (ولو كانت المرأة طاعنة في السن أو صغيرة غير مشتهاة) أفلا يصح بعد هذا انطباق المثل المشهور عليه (يستفتى في الابرة ويبلع المدرة)

وأما أولاده الذكور فيبلغون العشرة وكان عمر اكبرهم لما توفى هو حوالي العشر سنوات والبقية اطفال ليس لهم أهمية تستدعي ذكرهم ولكنا نذكر ثلاثة منهم وهم الفاضل ومحمد والبشري وأمهم فاطمة بنت أحمد شرفي التي توفيت في جبال (قدير) ويكنى المهدي باولاده الثلاثة المذكورين وتكنيته باسم الثالث أكثر شيوعا مع انه أصغر الثلاثة وذلك لانه ولد في جزيرة (آبا) في مبدأ دعوى المهدوية وزعم المهدي انه بشر بالمهدوية ليلة ولادته ولذلك سمى البشرى

وأما أطعمة المهدى فان الكلام عليها غريب في بابه فقد كان يظهر الزهد وعدم الميل الى الاطعمة ويكثر التنديد بالذين يأكلون غير ماخشن من

الطعام وكثيرا ما كان يربط على بطنه حجرا حتي ذاع بين الناس ان الذين يأكلون الاطعمة الفاخرة كفار لا نصيب لهم من الاسلام ولذلك صار كل أحد يجتهد فى اخفاء ما عنده من الاطعمة الدسمة ولا يخرج امام الناس الاخبز الذرة بادام الماء والملح أو (البليلة) وهي من حبوب الذرة تصلق بالماء وكان المهدي لا يخرج أمام الناس من طعامه غير هذين الطعامين

وقد تغالي المهدي فى إظهار الزهد فى الاطعمة حتي انه منع إيقاد نار فى بيته لطبخ أو خبز مدعيا ان ذلك ينافى التوكل على الله وكان الناس يقدمون له الاطعمة هدية فكنت ترى القصع محمولة الى منزله كل يوم تعد بالمئات فيتناول النساء منها حاجتهن بغير ان يشتغلن بطبخ أو خبز

وأما الطعام الذي يتغذى به المهدي فانه يصنع كل يوم فى منزل أمين بيت المال فكان يذبح الخرفان الحولية ويصنع ما يتبعها من الحلوي والفطائر وسائر الاطعمة الفاخرة ويرسلها الى منزل عائشة بنت ادريس وهي تقدمها الى المهدي وقت انفراده فى غرفته فكان لا يترك من الخروف الحولى غير عظامه عداما يتناوله من الاطعمة اللذيذة وقتي الغداء والعشاء أما الفطور فانه كان يتناول فيه ألوانا كثيرة كلها من الحلوي فنها انهم يمزجون رطلا من السمن بمثله من العسل ويضعونه على اللبن ويطبخونه مع دقيق الحلبة وتارة مع دقيق الدخن وأخرى مع دقيق البر ولا يكاد يشرب ماء الا ممزوجا بحامض لبن الابل مع السكر ومع هذا الانغماس فى الملاذ كان يظهر أمام الناس بمظهر القناعة والزهد والتقشف كانه لا يملك من نعيم الدنيا غير مرقعته التى هى واحدة وكان يكثر من التطيب بالروائح الحارة مثل عطر الصندل والمحلب فكانت رائحته تشم من البعد والبسطاء يعتقدون انها رائحة الجنة تضوع من عرقه

وقد خرج من الدنيا ولم يدخر لاولاده شيأ من المال كما انه لم يترك عند نسائه حلياً ولا شيأ من ضروب الزينة لانه قد كان حرم على النساء التحلى بحلى الذهب والفضة وغاية ما يتحلين به خرز من الزجاج والمرجان

هذا وقد ذكرنا انه أبطل تقليد المذاهب الاربعة وأصدر للناس منشورات ضمنها كثيراً من العبادات والمعاملات

ومن غرائب مذهبه انه تعمد الاجحاف بحقوق النساء فى كل مالهن وما عليهن فقال لا يلزم الرجل بنفقة امرأته مادام من المجاهدين في سبيل الله وقال ان مهر العذراء لا يزيد على عشرة ريالات ومهر الثيب خمسة ريالات ومن زاد على ذلك صودرت أمواله. وكان يجبر أولياء المرأة على تزويجها باى شخص كان من غير نظر الي كفاءة أو تعادل بين الزوجين مادام الزوج من المجاهدين فى سبيل الله. وبالجملة فان النساء فى مذهبه كمخلوق ليس من نوع الانسان وقد سار اتباعه على سيره فكنت تري عشرات النساء اللواتي أخذهن الامراء سبياً من الخرطوم وغيره من المدن يتضورن جوعا داخل البيوت ولا يقدم لهن أولئك الامراء غير قليل من طعام الذرة فاذا ضعفت احداهن وشوه الجوع محاسنها أعطاها مولاها اذنا بالذهاب الي منزل أهلها ان كان لها أهل فيطعمونها حتي تستعيد نضارتها فتعود الى منزله

ولقب المهدى عبدا من عبيده بلقب (خليفة زيد بن حارثة) رضي الله عنه ولقب آخر كان يؤذن له (بخليفة بلال المؤذن) ولقب كثيرا من أصحابه بألقاب خلفاء الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وكتب منشورا فى كردفان أمر فيه الناس أن لا يذكروا اسمه الا مقرونا بالسلام كالانبياء عليهم السلام وكانوا قبل ذلك يذكرونه مقرونا بالرضوان ثم كتب منشوراً آخر قال فيه

ان النبي صلى الله عليه وسلم اجتمع به وقال له عليك السلام يامهدي الانام انك لجدير بهذا المقام وانك أفضل من بعض الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وكان كثير من الجهلاء ينادونه بالنبوة والرسالة فلا ينهاهم وربما تبسم علامة على الاستحسان

ولكن وجملة القول ان المهدى على ما كان فيه من الزيغ والالحاد والزندقة وفقدان الذمة فانه كان أحسن سلوكا من عبد الله التعايشي وقد أحسن الاستاذ الشيخ محمد شريف حيث قال مهما يكن المهدي ضالا مضلا فانه خير من عبد الله التعايشي وان قال غيره (ان عبدالله التعايشي سيئة من سيئات المهدي)

ترجمة عبد الله التعايشي

نورد هنا ترجمة عبد الله التعايشي الذي أفضت اليه خلافة المهدوية وبعونه انقرضت دولتها وركدت ريحها

ولد عبد الله التعايشي بجهة (الكلكة) جنوب دارفور وبالقرب من (شكا) من قبيلة بدوية اسمها (التعايشة) تسكن هذه الجهة وتعيش بألبان ماشيتها التي جلها من البقر ولذا يطلق عليها اسم (بقارة) كما تعيش من لحوم صيد ضوارى الحيوان كالفيل وغيره

على أنه لم تكن قرابته لهذه القبيلة الا من جهة الارحام فقط لان جده المدعو بعلي كان دكروريا استوطن بلاد التعايشة وتزوج امرأة منهم فولدت له محمداً المشهور بلقب (تورشين) والد عبد الله التعايشي واخوة أحدهم احمد المشهور بلقب (دي) وهو والد الامير محمود اسير واقعة (اتبره)

وكان جده يحفظ القرآن وكذلك والده ولندرة من يحفظ القرآن فى قبيلة التعايشة حاز أبوه شهرة كبيرة لكنه كان فقيراً لا يملك شيئاً من المال بل كان قوام معيشته من صدقات أولى البر والاحسان

وأما لقب (تورشين) فمعناه الثور القبيح الخلقة وهذا اللقب من ألقاب الفروسية بينهم وكلمة الثور منتهى المدح على الشجاعة عندهم ايضا

ومن عوائد التعايشة في صيد الافيال ان من اصطاد منهم فيلا تقوم امرأته وسط الحي وتصرخ لسكانه وتقول ان زوجي الثور ابن الثور اصطاد فيلا فهلموا الى أخذ نصيبكم من لحمه فينسلون الى الفلاة وهم يترنمون بالاناشيد فى مدح ذلك الثور الذي قتل لهم الفيل ومن مزروعاتهم الدخن والفاصولية وعندهم نبات يشبه الارز ينبت في الفلاة دون أن يزرعه أحد

وبجوار قبيلة التعايشة قبيلة من العبيد يطلق عليها اسم (بنضله) بينهم وبين التعايشة صلة المصاهرة والقرابة وبجوار (الكلكة) بحيرة يصطادون منها السمك فيتركونه حتى يتعفن وتكثر ديدانه ثم يدقونه في الاهوان ويصنعونه أقراصا كأقراص السكر الاحمر ثم يطبخونه مع البامية الناشفة (الويكة) وهذا النوع يسمى (مندجى) وكان التعايشي يحب هذا الطعام كسائر قومه وقد سمعته مرة يعظ أقاربه التعايشة قائلا لهم « ان القصعة فى الجنة يبلغ عرضها ما بين أم درمان وجبال قدير وهي مملوءة بطبيخ المندجي أو العصيدة »

وأم التعايشي اسمها أم نعيم وكانت ذات شهرة بين التعايشة لانهم يعتقدون فيها اتقان الشعوذة فكان الناس يقصدونها للرقية وأخذ العروق التي يعتقد أهل السودان أن لها خواص للمحبة وقضاء الحوائج و إلجام أفواه الحيات والهوام السامة

وقد تزوجت بنحو عشرين رجلا والد عبد الله التعايشي أحدهم

وفي سنة ١٢٩٤ غادر التعايشي بلاده مع والده ممتطيين عجلا من البقر قد ذللاه بخطام على مألوف عادة البقارة الذين يذللون الثيران والبقر ويحملون عليها أثقالهم من بلد الى أخرى وكانا يقصدان الحج

ولما وصلا الى بلاد الجمع في الجنوب الشرقي من كردفان توفي والده بالجدري ثم مات العجل وبقي التعايشي بلا دابة فاعطاه أحد المشائخ حمارا سار عليه حتى لحق بالاستاذ الشيخ محمد شريف ومكث عنده حتي كان من أمره معه ما ذكرناه عند الكلام على اجتماعه بالمهدي

وكان التعايشي ذا دهاء وحيل فكان لا يجلس امام المهدى الا جاثيا على ركبتيه منكسا رأسه الى الارض حتى انه كان يزعم أنه لم يقع بصره أبداً على وجه المهدى وكثير من البسطاء يعتقدون صدقه

وكان يشجع المهدي على دعواه ويصف له قبائل دارفور وما عندهم من العدد والمدد وماهم عليه من الجهالة وما يمكن ان يصادفه من نجاح دعوته بين ظهرانيهم فسر به المهدي وأمره بالعودة الى بلاده كي يحضر امرأته التي كان تركها في بلاده فذهب وعاد بها ومكث عند المهدى حتي صارت واقعة (آبا) ويقول البعض ان المهدى أصيب برصاصة في ذراعه فاشار عليه التعايشي باخفاء جراحه لئلا يعتقد فيه من حوله انه ليس ذا خاصية تميزه عنهم فصدع بمشورته

وعندى ان هذا القول عار عن الصحة لانه لو أصيب المهدى في تلك الواقعة لما اطلع عليه التعايشي وحده حتي يلقنه هذه الشعوذة والحقيقة التي سمعتها ان المهدي اراد ان يركب فرسا في تلك الواقعة فقال له التعايشي

اذاً لايكون في مقاتلتك فارس غيرك ولا يشك العدو في انك المهدى فيصوب مقذوفاته عليك فترك ركوبها وركبها أحد اتباعه فانهال عليه رصاص الجنود كالمطر فخر صريعا يتخبط في دمه

ولما سار المهدي الى جبال (قدير) وكان التعايشي مجاريا مثل الاعراب الذين التفوا حول المهدي فى هاتيك الجبال صار يستعين به على تهذيب اخلاقهم وطباعهم واستمالتهم بالطرق التي تجذبهم اليه ومن ثم صار مشيرا للمهدي ووزيرا مفوضا اليه كثير من الامور وكان أقارب المهدى يبغضونه ويحتقرونه حتى أصدر المهدى المنشور الذى تقدم لنا إيراده بالثناء عليه فكفوا عن أذيته وأسروا عداوته

وكان التعايشي يحاكي المهدي ويرضي بالقليل من العيش فكان لا يتطلب من بيت المال الا ما يسمح له به أمينه (أحمد سليمان) الذى كان يبغضه ولا يعطيه في الشهر اكثر من مائة ريال ويخص الخليفة شريفا وأقارب المهدي بالنصيب الاوفر من بيت المال وقد رأيت أحمد (دي) عم التعايشي ووالد الامير محمود يتسول على منازل الناس وكذلك بقية أقاربه التعايشة الذين كانوا وقتئذ زهاء ثلاثين رجلا ولكن ذلك كان قبل ان تفضى خلافة المهدوية الى قريبهم

خلافة التعايشي

لما توفي المهدي وبويع عبد الله التعايشي ظهرت على الناس الكآبة سيما أقارب المهدي وأحمد سليمان بيت المال فانهم كانوا في وجل شديد من مغبة انتقامه منهم أما هو فكما قدمنا كان اكثر منهم دهشة وأشدهم خوفا من موت المهدي وما ينجم عنه من سوء العاقبة وقد أسر الى ذوى قرابته أنه يخشى تقدم

جنود الحكومة الى أم درمان لاعادة سلطتها على تلك الانحاء ولذلك عول على الاتفاق مع الخليفتين على بن حلو ومحمد شريف على ان يقتسموا البلاد فيما بينهم فيكون قسم التعايشي إقليمي كردفان ودارفور ويكون للخليفة على بن حلو البلاد التي على ضفة النيل الابيض وسائر ما يتبعها ويبتدئ ذلك من أم درمان الي الجنوب ويكون للخليفة محمد شريف شمال أم درمان والبلاد التى على النيل الازرق حتى دنقله والسودان الشرقي برمته

وقد فاوض التعايشي ذينك الخليفتين في أمر هذه القسمة فأظهر الخليفة على بن حلو استياءه منها وقال ان بلاد النيل الابيض لاتكفيه ولا بد من اضافة بلاد النيل الازرق عليها فأبي الخليفة شريف وقال ان الاراضي التى في قسمه هى الحد الفاصل بين مصر والسودان ولا ريب انه سيقوم بالدفاع عنها ولذلك يجب ان تضاف كردفان الى نصيبه فلم يرض التعايشي بهذه القسمة فافترقوا وفي نفس كل واحد من الحقد على الآخر مالا يوصف

أما التعايشي فكان يعرض ما يدور بينه وبين الخلفاء على الحاج الزبير رئيس حراسه وقتئذ وكان من أهالي مديرية بربر فاخذ يثبط عزيمته عن اتمام هذه القسمة ويعده بان البلاد كلها ستخضع له وانه يقدر على جمل الملك وراثياً في آل بيته وان الخليفتين على حلو ومحمد شريف لا تخشي مغبتهما اذ هما غران يخدعان بمثل اكاذيب المهدي وما ينتحله من الخرافات ويقول له ليس عليك من حرج ان اتيتهما من هذا السبيل فانهما ان اذعنا لك حفظا كرامة المهدى الذى فتح هذا السبيل وان كذباك فان العامة تصدقك كما كانت تصدق المهدي ويمكنك ان تتذرع بهذا التكذيب الى اسقاط منزلتهما والايقاع بهما

وعلى أثر ذلك اذعن عبد الله التعايشي لمشورة الحاج زبير وعدل عن طلب الهجرة الى كردفان للاستقلال بامنلاكها كما انه من ذلك الحين طرح مرقعته الرثة البالية التى كان يلبسها قبل وفاة المهدي إظهاراً للزهد ولبس مرقعة من نوع ما كان يلبسه المهدي وتمم على قلنسوة مكية كالتي كان يتعمم المهدي عليها وصنع له كوخا من البوص في المسجد على هيئة مقصورة وأمر الناس ان يحذوا حذوه فصنع كل واحد منهم كوخا في المسجد حتى اتصلت الاكواخ ببعضها وأمر الناس بترك صلاة الجماعة في أى مكان كان وان لا يصلى أحد في أم درمان بجماعة غيره وشدد عليهم في ملازمة قراءة (راتب المهدى) ف الصباح والمساء

وراتب المهدى هو أوراد وأدعية بعضها من المسبعات التى تنسب لمولانا الامام الدردير ومنها ماهو من الادعية والتوسلات التى تنسب الى حجة الاسلام الغزالى ومع شهرة مصدر هذا الورد التي لا تخفي على غير الاغبياء ادعى المهدي ان النبي صلى الله عليه وسلم لقنه هذا الورد كله بكامة وحكى من فضائله وثواب من واظب على قراءته خرافات واكاذيب يقصر القلم عن التعبير عن بعضها منها ان من قرأ هذا الورد نزل خمسمائة الف من الملائكة كالذين نزلوا يوم بدر ليحفظوه وينصروه وان تلاوته مرة واحدة تعادل تلاوة القرآن الف الف مرة ومثل ذلك كثير حتى قال المهدي ان المواظبين على قراءته ينالون مقامات الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم

وكان المهدى شدد فى النهى عن قراءة الصلوات النبوية المعروفة باسم دلائل الخيرات مدعيا ان ثوابها نسخ براتبه وسيأتي في غير هذا المكان مصادرة أموال من يتهم بقراءتها والحكم بكفره وأظهر التعايشي للناس تواضعاً

ولينا وخفض كثيراً من حدته التى كانت معلومة عند العموم حتى ذع بين الملأ ان السكينة نزلت عليه وقال هو ان روح المهدي حلت فيه وان اخلاقه لابد ان تتبع الروح اينما حلت

هذا ولم يكن القول بالتناسخ مذهب عبد الله التعايشى فقط بل هو مذهب سلفه المهدي الذى كان يزعم ان روح النبي صلى الله عليه وسلم حلت فيه

وجملة القول ان عبدالله التعايشي قبض على زمام البيعة وهو مضطرب وكان لايدرى كيف يدير دفتها كما كان شديد الخشية من انتقاض الخليفة شريف وأقارب المهدي عليه اذ هم أشد قوة منه وأكثر عدداً من رجاله ولذا لبث كأنه واحد من الخلفاء لايقطع أمراً بغير مشورتهم ولا يعمل بغير ارادتهم منتظراً مايكون من أمر مدينتي سنار وكسلا اللتين كانتا على وشك السقوط

اول أكاذيب التعايشي

ذكرنا ان الحاج الزبير أشار على عبد الله التعايشي بولوج باب اكاذيب المهدى فكان أول اكذوبة وضعها بعد مهلك المهدى بشهرين أن أصدر منشوراً قال فيه مايأتى

بعد ان أديت صلاة العشاء بالمسجد دخلت الى منزلي وبينما أنا جالس فى مصلاي اذ دخل عليّ شخص طار قلبي من رؤيته لانه لم يكن من نوع الانسان لان رأسه كانت تناطح السحاب وخصيتاه كجبلين عظيمين فلم أتمالك نفسي من الخوف فصحت مستغيثاً بالمهدى فأخذ ذلك الشبح يتقاصر ثم

جلس امامى وقال لي السلام عليك ياخليفة المهدى بل أنت المهدى نفسه فقلت وعليك السلام من أنت فقال أنا ملك من ملوك الجن كنت ساكنا وراء جبل (قاف) الذى يبعد عن هذا المكان مسيرة خمسمائة عام وقد مضى على خمس سنوات وأنا سائر بقومي من ذلك المكان لادرك المهدى فكان من أمرنا ان الخضر عليه السلام قابلنا وهو يبكي ويصرخ قبل أن نبلغ العمران البشري وأخبرنا بموت المهدى وخلافتكم عنه فلما وصلنا العمران البشري وجدنا جماهير الاولياء ومجامع الملائكة فى المساجد الكبرى يقيمون مأتم المهدي فاشتغلنا معهم فى اقامة شعائر المأتم ثم غادرنا المسجد الحرام بعد عصر اليوم وعسكرنا في البقعة التى تلى محل (العرضة) استعراض الجنود ومعى ستون ألف فارس من الجن غير المشاة قال التعايشي فقلت ومن أعلمك بظهور المهدى قال أعلمنا الخضر عليه السلام منذ ظهوره في جزيرة (آبا) فغادرنا جبل (قاف) منذ ذلك وكنا نسير فى السنة مسيرة مائة سنة فقلت ما تقصدون قال نقصد بيعة المهدى وادراك فضل صحبته والجهاد معه فقلت وفى أى المساجد أقيم مأتم المهدى فقال في المسجد الاقصى وفى المسجد الحرام وفى المسجد النبوي ثم دنا مني وطلب مني أن أبايعه فبايعته بيعة المهدي وأمرته بالبقاء فى المكان الذى يلى محل الاستعراض

ثم سأله التعايشى عن عمره فقال انه ولد فى زمن ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم وانه صار ملكا على قومه فى زمن موسى الكليم صلوات الله وسلامه عليه

ولما نشر التعايشى المنشور المتضمن هذه الاكذوبة سر الناس

وتوجه للمحل الذى نزل فيه أولئك الشياطين ولما دنا منه أوقف الناس ثم تقدم هو بفرسه واطال الوقوف والناس ينظرون اليه والي ما يأتيه من الحركات كأنه واقف يعظ أو يبايع وبعد بضع ساعات عاد فأخبر الناس بانهم بايعوه وانه كان مشغولا بترتيب فرقهم وتولية القواد عليهم مثل ترتيب جيش المهدية ثم قال انهم رغبوا الى ان اشيد داراً لى بجوارهم كي اتردد عليها وتكون موعداً بيني وبينهم كلما دعت الحال للمقابلة

ومن المضحكات ان رجلا دكروريا كان له كوخ بالقرب من ذلك المكان فاحتمل متاعه فى ذات يوم ومعه امرأته وبنته وجاؤا الى التعايشى فى المسجد فسألهم عن حالهم فقالوا ان لنا كوخا بالقرب من محل العرضة وقد هجرناه لكثرة ما فيه من الضوضاء والنيران وصهيل خيول الجن وسائر حركاتهم التي أفقدتنا النوم واطارت قلوبنا خوفا وفزعا فضحك التعايشى وقال لهم ما الذى أطار نومكم وأفزعكم ألم تعلموا ان هؤلاء الجن صاروا من اتباع المهدى وانهم خاضعون لحكمي ولا يجسرون على اذى أحد من انصار المهدى وان احكام المهدية تجرى عليهم كما تجري عليكم فقالوا يا سيدنا الخليفة ان خلقتهم غريبة مخيفة فمنهم رؤس بلا جثث ومنهم جثث بلا رؤس ومنهم الطيارون ومنهم ومنهم فقال عودوا الى مكانكم ولا تخافوا فرفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا نحن فقراء لا نملك غير هذا الكوخ وقد تركناه لهم فاسترسل التعايشى فى الضحك الذي ينم عن السرور وأمر باعطاء الرجل خمسمائة ريال بدل كوخه وان يعطي من بيت المال راتبا يقوم بحاجة عائلته

وسمعت التعايشى يوم ذهب لمبايعة الجن على زعمه يسأل الذين أدوا صلاة المغرب خلفه قائلا لهم هل رأيتم شيأ أو أحسستم بشيء . فسكت اكثرهم

وقال البعض قد أحسسنا برهبة ونحن فى الصلاة فقال لهم ان عيسى عليه السلام صلى معكم مأموماً بى وأشار الى المكان الذى صلى فيه فهرع الناس اليه يتبركون به وأحيط ذلك المكان بزريبة من الشوك ليبقى معروفا عند كل من يقصده من الزائرين

ذكر دعوة التعايشي اهالي السودان
لاداء فريضة الحج بام درمان

كان المهدى قد نهى الناس عن السعي لاداء فريضة الحج مدعيا ان البيت الحرام في ايدي الكفار ونشر جملة منشورات بهذا المعنى وكان يزعم أن مرافقته للجهاد خير من السعى لاداء الحج وزعم ان الهجرة معه كالهجرة مع النبي صلى الله عليه وسلم وهي أفضل من الحج وتغالي حتي قال ان رؤيته تعدل ثواب سبعين حجة

ولما هلك المهدى اجتمع التعايشي والخليفتان على حلو ومحمد شريف وقرروا فيما بينهم وضع اكذوبة ماسمع في الاسلام بمثلها الا ما سمع من أمر على بن مهدى صاحب اليمن فى القرن السادس من الهجرة وهي ان يصدروا منشوراً يقولون فيه ان الحج الى البيت الحرام قد أبطل وعزموا على تشييد كعبة فى أم درمان وجعل جبل (كررى) بدل جبل عرفات لتقام بهما شعائر الحج ويزور الناس قبر المهدى بدل زيارتهم قبر النبي صلي الله عليه وسلم وفعلا شرعوا فى اعداد ما يلزم لابراز هذه الضلالة حتى قالوا ان حفر بئر زمزم يكون بعد الوقوف بجبل عرفات واداء صلاة العيد بمنى ثم يرحلون الى البيت الحرام فيحفرون بئر زمزم ويعودون لقضاء أيام التشريق بمنى

ولما اذاع الخلفاء هذا الخبر دخل رجال من أهل العلم بعضهم من ذوي قرابة المهدي على أولئك الخلفاء واخبروهم ان هـذا الامر لو تم كان دليلاً قاطعاً على كذب دعوي المهدوية وخروجهم جميعاً من الاسلام كما تخرج الشعرة من العجين فانصاع أولئك الجهلاء وجمعوا الاوراق التي وصلت ايدى الناس واتلفوها ومنعوا الناس من الكلام فى هذه المسألة ومن تكلم جلدوه ثمانين جلدة اهـ

ذكر مسالة الشعرة من لحية المهدي

ذكرنا ما كان لاحمد سليمان أمين بيت المال من المنزلة السامية عند المهدي وانه كان واقفا على اسراره وكنه أعماله

وكان أحمد المذكور ذا دهاء يظهر امام الناس بالزهد والورع ويروي للناس انه رأي من كرامات المهدي ما هو كيت وكيت ويختلق من الاكاذيب ما يحيله العقل . ومن اكاذيبه انه جاء الى التعايشى وكان جالساً مع الخلفاء وأخرج من جيبه حقاً من الخشب وفتحه واخرج منه شعرة وقال ياخلفاء المهدى ان المهدي قبل مرضه بنحو أسبوعين أخبرني بانه راحل من هذه الدنيا ونزع من لحيته الكريمة شعرة ثم قال لي ياحبيبي أحمد خذ هذه الشعرة وابتلعها بعد وفاتي فان فيها سراً من أسرار المهدية وبعد ان تموت وتلحق بى أخبرك بهذا السر فوثب عليه الخليفة عبد الله التعايشي وأمسك بيده وقال له ان هذه الشعرة كانت امانة عندك وقد أمرنى المهدى باستلامها منك وكان الخضر عليه السلام حاضراً فسلمها أحمد سليمان له فابتلعها وأصدر منشوراً قال فيه ان فى هذه الشعر سر المهدية وقوة خلافتها

ذكر وقائع سنار وسقوطها

تقدم لنا ذكر وقائع سنار التي حصلت قبل مهلك حملة هيكس.

ولما ذبحت هذه الحملة قويت عزائم الدراويش وأحاطوا بها وضيقوا عليها وبعد سقوط الخرطوم وثب النور بك محمد قومندان الجنود النظاميين ومعه عثمان بك الدالي الصنجق وقبضا على المدير حسن صادق بك وسجناه في داره لاسباب لا نعلم كنهها والظاهر ان لا سبب لها الا سوء الظن بذلك المدير الذي لا يشك أحد في براءته من وصمة ما نسب له

وبعد ان مكث المدير أشهراً في السجن اجتمع القواد ودخلوا منزله وأطلقوه من عقاله واعتذروا له وكان العدو محاصراً للمدينة فخرج عليه المدير فى قوة كبيرة وهجم على موقعه ومزق شمله كل ممزق وعاد الى المدينة ظافراً منصوراً حتى اذا اقترب منها ألقى عصا سيره للراحة من وعثاء السفر وتناول الطعام عند مكان اسمه (الجميزات)

وبينما كانت الجنود وقوادهم مشتغلين بتناول الطعام اذ هجم عليهم العدو على غرة من جهتي النهر والفلاة واعملوا السيف فى رقابهم فتمكن كل من النور بك محمد وعثمان بك الدالي من جمع شمل بعض الجنود حيث قاتلوا متقهقرين حتى بلغوا معقل المدينة

أما المدير حسن صادق بك فقد تمكن العدو من الفتك به حيث فاجأه وهو يريد ركوب فرسه بضربة كانت القاضية

ثم ان القائمقام حسن عثمان بك كر على الدراويش بقوة ألزمتهم الفرار من وجهه وتمكن من حمل جثة المدير الى المدينة حيث دفنت هناك بالاكرام

اللائق وكانت هذه الواقعة فى شهر جمادى الاولى سنة ١٣٠٢

وفى شهر جمادي الآخرة وصل محمد عبد الكريم بمقاتلته لحصار مدينة سنار وقد ذكرنا ان المهدي بعثه بنحو عشرين ألف مقاتل

وفي أواخر شهر شعبان وصلت الى المهدي أخبار بان حامية سنار خرجت على معسكر محمد عبد الكريم وانتصرت عليه فأرسل الى المتمة يستدعي عبد الرحمن النجومى بمقاتلته فوصل الى أم درمان بعد وفاة المهدي باسبوع

وفي أوائل شوال سنة ١٣٠٢ وصل الى حامية سنار نبأ وفاة المهدى فقويت عزيمتها وخرجت على معسكر محمد عبد الكريم مهاجمة فاصيب محمد عبد الكريم برصاصة فى فخذه ثم انهزمت مقاتلته شر هزيمة وغنمت الحامية معسكرهم

ولما اتصل بالتعايشي خبر هزيمة محمد عبد الكريم انفذ عبد الرحمن النجومي الى سنار كما كان المهدي يريد انفاذه اليها حين استدعاه من المتمة

وفي أوائل شهر ذى القعدة سنة ١٣٠٢ وصلت درجة المجاعة فى سنار الى فقدان القوة بالكلية فتمرد الجنود علي قوادهم وشقوا عصا الطاعة وخرج كثير منهم واسلموا نفوسهم الى العدو الذى تشددت عزيمته وعاد الى موقفه الاول من الاحاطة بمعقل المدينة وتشديد الحصار عليها

ووصلت الى المدينة أخبار زحف عبد الرحمن النجومي عليها فاسرعت بطلب التسليم مع وفد ارسلته الى محمد احمد شيخ إدريس من أقارب المهدى ونائب محمد عبد الكريم الذى كان وقتئذ طريح الفراش من الاصابة بالرصاص فى الواقعة الاخيرة

وعند وصولها عقدت شروط الصلح بين الحامية والدراويش على ان لا يأخذ

الدراويش غير مال الحكومة وان لا يعتدوا على احد من الاهلين في ماله وعرضه وعلى هذا الشرط اسلمت الحامية نفسها فنكث الدراويش العهد على مألوف عادتهم ومدوا ايديهم الى الأعراض وعذبوا سكان المدينة الذين جاءهم من المصريين عذاباً اليما وغنموا منهم شيأ يعد بعشرات القناطير من الذهب الذي يوجد بكثرة فى مدينة سنار حيث ان منابع النيل الازرق التى يوجد بها هذا التبر داخلة فى دائرة مديرية سنار واهل سنار مشهورون بادخار الذهب بكثرة وقد عذبهم الدراويش عذابا يفوق الذي وصفناه فى عذاب أهل الخرطوم وهتكوا اعراضهم كما هتكوا اعراض اهل الخرطوم

وبعد مضى شهر على هذا التعذيب هدموا المدينة كلها وزحفوا بالاسرى الى أم درمان فوصلوها في أوائل شهر ذى الحجة الحرام ختام سنة ١٣٠٢

هذا وقد وصل عبد الرحمن النجومى سنار بعد سقوطها ببضعة ايام ولم ينل من الغنيمة شيأ

على ان حامية سنار كانت تستطيع النجاة لو قصدت حدود الحبشة قبل ان يصل اليها محمد عبد الكريم. وقد بلغنى ان المدير كان ينوى سحب الحامية الى جهة حدود الحبشة بعد أن علم بسقوط الخرطوم لفهمه ان الانكليز لا يتقدمون لانقاذ سنار بعد سقوط الخرطوم فخالفه اللذان سجناه معتقدين خلاف ذلك

والخلاصه ان نجاة حامية سنار كانت ميسورة لو لم يسجن المدير حسن صادق بك

هذا وقد أصدر التعايشى أمرا باعتبار مدينة سنار كمدينة ثمود تحرم سكناها والاستقاء بمياهها

وقد اغتال الامراء الاموال ولم يقدموا لبيت المال عشر الغنائم فتغيظ

عبد الله التعايشي واصر على الانتقام منهم وسنعود الي ذكر هذا الانتقام فى محله

وأخذ التعايشي نحو عشرين امرأة من نساء المصريين كانوا في تلك المدينة مسبيات وادخلهن منزله. والخلاصة ان سكان سنار جلهم مصريون مثل سكان الخرطوم وقد نالوا نصيبا من التعذيب والنهب وهتك الاعراض كالذى ناله اخوانهم في الخرطوم أو أشد وما الله بغافل عما يعمل الظالمون

حوادث كسله وسقوطها

كسله اسم مدينة هي عاصمة اقليم (التاكا) الذى بين محافظتي مصوع وسواكن وحدود الحبشة وأغلب سكانها مصريون مثل سائر مدن السودان وكانت محصنة بسور منيع من الحجارة وفيه أبراج ومعدات الدفاع متوفرة فيها منذ دخلت في املاك الخديوية المصرية على عهد ساكن الجنان محمد على باشا عزيز الديار المصرية

وكان السيد محمد عثمان الميرغنى نازلا في قرية (الختمية) بجوار كسله وهى قرية أسسها جده السيد محمد عثمان الميرغني وقد تقدم لنا ان المهدي كان يدعو السيد محمد عثمان الميرغني الى الدخول فى دعوته وكان يوالي ارسال الانذارات له تارة بالوعد وأخرى بالوعيد ففر من قرية الختمية لما رأى ان الخطر يقترب من جهته

وبعد فراره خندق بقية سكان الختمية على قريتهم وأمدتهم الحكومة بالاسلحة والذخيرة والجنود

وفى محرم سنة ١٣٠١ قدم الى كسله مصطفى هدل داعية من قبل

عثمان دقنه فتبعه جميع السكان ورفعوا لواء العصيان على الحكومة فارسل أحمد عفت بك المدير قوة تهاجم موقع تجمع العدو فعادت بخسارة عظيمة وكانت نساء العصاة (الهدندوه) يقاتلن مع أزواجهن ولهن فظائع ما سمع بمثلها فى الدنيا فقد كن يحملن وراء أزواجهن قطعا من الخشب فيجهزن بها على الجرحي وينزعن الملابس عن اشلاء القتلى ويضعن فى دبر كل قتيل قطعة من الخشب طولها ذراع فيولجن فى الدبر نصفها ويبقى النصف بارزا ويطرحن الجثث على وجوهها ليصير هذا المنظر الشنيع معرضا لنظر المارة

على ان هذه الفظيعة لم تكن من عنديات تلك النسوة بل ان مصطفى هدل هو الذى قال لهن من مثلت منكن بالقتلى هذا التمثيل بنى الله لها بيتا في الجنة

وكان مصطفى هدل هذا جاهلاً ضالاً وفى غضون حصاره كسله كان يزعم ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بكيت وكيت

وفى أواخر شهر ربيع الآخر هجم الدراويش على كسله فالزمتهم الحامية بالتقهقر بعد ان تكبدوا خسائر جسيمة

وفى شهر جمادي الآخرة اشتد الحصار وارتفعت اثمان الاقوات

وفي شهر شعبان سنة ١٣٠١ بينما كانت الحكومتان الانكليزية والخديوية تتداولان فى انفاذ حملة تنقذ غردون اتفقت الحكومة الخديوية مع يوحنا نجاشى الحبشة على انقاذ حاميات الحكومة التى فى السودان الشرقى وتنازلت له عن بعضها

وفي هذا الشهر أيضا أحس مصطفى هدل بضعف فى حامية خندق الختمية فصمم على أخذها عنوة فخاب سعيه حيث دفعته الحامية وهزمته شر هزيمة

وفي شهر رمضان سنة ١٣٠١ سعى ماسون بك الامريكاني في اخلاء كسله واجلاء الحامية عنها فلم يفلح لان الجنود رفضوا ان يفروا بغير عائلاتهم التي لا تستطيع الفرار

وقد لبث ماسون بك يخابر المدير أحمد عفت في الانسحاب من كسله فكان يجاوبه باستحالة ذلك ثم غادر ماسون بك مصوع ولم يفلح في سحب الحامية من تلك المدينة

هذا وقد كان انقاذ كسله ميسوراً بسبب قربها من حدود الحبشة ولكن أشياء كثيرة كانت من أقوي الاسباب التي ساعدت العدو على امتلاك المديرية. منها ان النجاشي يوحنا بعد ان أصدر أمره الى الرأس الولا بالقيام لانقاذ كسله عاد فنقض أوامره الاولى وكان سبب ذلك على ما علمته ان الدراويش كانوا يخادعونه ويعدونه بالمحالفة والمعاضدة وكان في المدينة بعض جواسيس يطلعون الدراويش على كل اسرار الحكومة وما يدبره المدير وكان الرأس الولا يخابر المدير ويطلب رأيه في ترتيب الزحف على المدينة لانقاذ حاميتها فكان المدير يجاوبه فيسرع أولئك الخائنون بابلاغ الدراويش ما دار بين المدير والرأس الولا من المخابرات

ولما وصلت انباء سقوط الخرطوم الى شرقي السودان قويت عزيمة محاصري كسلة وأرسل عثمان دقنه بالامداد لهم ثم تلاه قدوم الشيخ الحسين زهراء ومن معه من المندوبين وقد تقدم لنا ذكر بعثهم قبل وفاة المهدي

وفي أواخر شهر جمادى الآخرة عرض (شرمشيد باشا) محافظ شواطئ البحر الاحمر على النجاشي يوحنا عشرة آلاف بندقية ليتقدم لانقاذ حامية كسله ولكن في غضون ذلك كانت المجاعة قد برحت بالحامية حتى أكلوا

الكلاب والجرذان

وفي شهر رجب سنة ١٣٠٢ برحت المجاعة بحامية الختمية فعزم السيد بكري ابن عم السيد محمد الميرغني على التوجه لكسله لينضم الى من بها من رجال الحكومة وفعلا سار بنحو الف رجل فصادفهم في اثناء سيرهم مصطفى هدل وجنوده فذبحوا كل من كان مع السيد بكرى وجرح هو جرحا بليغاً ثم شرعوا في الهجوم على معقل الختمية لاستئصال من به من الحامية التى تمكنت من التقهقر بانتظام حتى دخلت معقل كسلة . ولقد أتى السيد بكرى من الاعمال الشريفة ما يناسب منصبه ويشهد له ولعائلته بطهارة الاصل وعراقة المجد

وفى منتصف شهر شوال سنة ١٣٠٢ فقدت الحامية كل أمل في النجاة كما فقدت القوت حتى قال لنا أحد المحصورين انهم طلبوا الاردب من الذرة باكثر من الف ريال فلم يظفروا

وعلى أثر ذلك عقد المدير أحمد عفت بك شروط الصلح مع الامناء الذين انفذهم المهدي قبل وفاته على ان لا يمدوا أيديهم لغير ما للحكومة من المال والذخيرة فخرجت الحامية وسلمت نفسها فى منتصف شهر شوال سنة ١٣٠٢ فامسكوا المصريين وعذبوهم ونهبوا أموالهم مثل ما حصل في الخرطوم وغيرها ومات كثيرون تحت الضرب والتعذيب وحمل جل المال الي أم درمان واحد عشر مدفعاً من الطرز الجبلي العتيق وأبقيت نحو تسعة مدافع تحت تصرف عثمان دقنه وغنموا أيضا نحو عشرة آلاف بندقية وشيئاً كثيراً من الذخيرة ولله الامر من قبل ومن بعد

ذكر اول واقعة بين الدراويش والاحباش

بعد سقوط كسلة فى قبضة العدو بثلاثة أسابيع قدم عثمان دقنه من سواكن ومعه زهاء عشرين الف مقاتل وقد استنفر الناس فاجتمع لديه نحو خمسين الف مقاتل زحف بهم الي (كوفيت) فى حدود الحبشة وتحصن فى المعقل الذى كانت حامية الحكومة متحصنة فيه قبل جلائها عن (كوفيت) وهناك أرسل كتاب تهديد الي الرأس الولا فورد له الرد بانه سيقدم عليه يوم كذا وفى ذلك اليوم هجم الرأس الولا على عثمان دقنه في ثمانين الف مقاتل من الاحباش فاحاطوا بالمعقل احاطة السوار بالمعصم فخرج عثمان من المعقل بمقاتلته فهاجمه الاحباش هجمة الاسود الضوارى على فرائسها فسقط جيشه كله قتلى واستطاع هو النجاة ومعه نحو خمسمائة مقاتل فظن ان الاحباش يتأثرونه الي كسلة فيستولون عليها حيث لا مقاتلة فيها يدفعون عنها غارتهم ولذا عاد عثمان دقنه الى كسلة وهو لا يصدق بالنجاة وكانت هذه الواقعة فى شهر ذي الحجة سنة ١٣٠٢ ويقال ان تقدم الاحباش كان لانقاذ كسلة فكان شأنهم معها مثل شأن الانكليز مع الخرطوم حيث جاؤها بعد ان سقطت فى قبضة العدو

ذكر قتل المدير احمد عفت ومن معه من القواد

لما رجع عثمان دقنه من (كوفيت) قبض على المدير أحمد عفت ومعه الصنجق حسن أغا سليمان الالباني ومعتوقه احمد أفندي شوقي معاون مديرية (التاكا) وتاجران يونانيان يدعى احدهما استيلي والثاني بادروس واودعهم السجن

بعد ان وضع فى ارجلهم من القيود ماتنوء بحمله الدواب وغل رقابهم باغلال الحديد وتركهم في اعماق السجن بلا طعام ثلاث ليال ثم دخل عليهم السجان وقال لهم قوموا الى الصلاة فقال له احمد عفت بك هل نطيق القيام ونحن بهذه الاغلال مع مانحن فيه من وهن الجوع فذهب الى عثمان دقنه وأخبره بما قاله احمد عفت بك فقال ليحضروا امامي فسيقوا اليه يرسفون فى القيود والاغلال كانهم أشباح بلا ارواح فسأل عثمان دقنه احمد عفت بك عن سبب امتناعه من الصلاة فأجابه بمثل ماجاب به السجان فامر بضرب اعناقهم فاظهروا جميعاً الفرح والارتياح وتقدم شوقي عتيق احمد عفت بك الى السياف وقال له أمهلني حتى اصلى ركعتين فامهله ثم قال له انى اسألك بحق مهديكم ان تضرب عنق قبل سيدى أحمد عفت بك فمد عنقه غير هياب لشيء فضربت ثم مد أحمد عفت بك عنقه مع الجلد والشجاعة فضربت أيضا ثم مد الصنجق حسن اغاسليمان عنقه فضربت ثم تلا ذلك ضرب عنقي اليونانيين استيلى وبادروس

شان اهل الخرطوم بعد ذلك

ذكرنا ما كان من أمر المهدى مع أهالى الخرطوم وقد أوردنا صورة المنشور الذى أصدره المهدى لاهالى الخرطوم وعلى اثره سمح لهم بالاقامة فى الامكنة المتخربة من المدينة واخذوا في السعى للارتزاق بالمهن الدنيئة مثل صناعة الخبز وفتح حوانيت الاطعمة وهم في كل آن عرضة لصنوف الاضطهادوفي كل يوم يقع بعضهم فى تهمة إخفاء المال فيعاد تعذيب الواحد منهم بما تقشعر منه البدن

هـذا وقد ذكرت انني كنت اقمت بكوخ فى أم درمان بجوار منزل يوسف منصور وبعد وفاة المهدي كانت لي زوجة على وشك الوضع كنت تزوجتها قبل سقوط المدينة وهى بنت احد الضباط المصريين العظام فانتقلت الى الخرطوم للحصول على قابلة مصرية بها وما كادت تمضي على ايام حتى نمى الى ان الحاج خالد العمرابى كتب الي التعايشي يقول ان ابراهيم فوزي قدم الخرطوم وهو يسعي فى توحيد كلمة بني جلدته المصريين للقيام بعمل ضد المهدية فما شعرنا في احدى الليالى الا بالنداء بان كل ذكر من الذين خرجوا من خندق الخرطوم يهدر دمه اذا بات في المدينة بل يجب ان يكون فى البقعة التى عند نقطة ملتقى النهرين الابيض والازرق وبينما كان الرجال يودعون اطفالهم ونساءهم للخروج الى محل الاجتماع اذ عاد النداء بوجوب خروج النساء والاطفال الى ذلك المكان أيضا فخرجنا بنسائنا واطفالنا ونحن فى حالة لا أقدر على وصفها وبعد وصولنا الي تلك البقعة جاءنا دراويش من أم درمان اخبرونا بان المراد من هذا الاجتماع قتل ابراهيم فوزى (المؤلف) وبيع بقية المصريين ارقاء فقضينا تلك الليلة فراشنا الارض وغطاؤنا السماء فكنت لانسمع غير صياح الاطفال وعويل النساء

وفى اليوم التالى مكثنا الى قرب منتصف النهار حتى جاءنا التعايشى ممتطيا حماراً يحيط به نحو الف حارس وامامهم أشخاص ينفخون في أبواق من العاج بصوت مزعج متقطع وهـذه الابواق تسمى (أم بايه) وسيأتى ذكرها في وصف موكب الخليفة

ولما دنا التعايشي من موقفنا أمرنا بالوقوف مصطفين رافعين أصواتنا بالتهليل ثم استدعاني من وسط الصفوف ومعي بضعة أشخاص من أعيان

الخرطوم ولما مثلنا بين يديه خاطبنا بما يأتي

« أيها الاتراك أهالى الخرطوم فضلة سيف المهدى عليه السلام انكم أضللتم الناس وغررتموهم بدنياكم فلماذا أيها المنافقون أقمتم بالخرطوم ولم ترحلوا الى أم درمان فهل أنتم لا تزالون مكذبين للمهدي أو ما هو السبب » فاجبته قائلا ياسيدنا الخليفة نحن نعوذ بالله من ان نكون مصرين على تكذيب المهدى ونحن نعترف امامك باننا مؤمنون بالمهدي وخلفائه والذي منعنا من الاقامة بام درمان هو عدم قدرتنا على تشييد الاكواخ فيها وتمكننا من الاقامة في خرائب الخرطوم بغير مشقة فاجابني التعايشي وهو مفعم بالغضب أنت منافق ولا أرى غير ضرب عنقك فقلت له ياسيدى الخليفة أنت تعلم الغيب وما تخفيه الصدور وان الخضر عليه السلام وزيرك ومشيرك وقد قال فيك المهدي عليه السلام انك أوتيت الحكمة وفصل الخطاب فاطرق بوجهه الى الارض وسر من هذا الاطراء ثم رفع رأسه وقال لى يا ابراهيم فوزي لقد تحققت براءتك مما نسب اليك وقد عفوت عنك وعن جميع أهالي الخرطوم ولكن لابد من مغادرتكم الخرطوم واقامتكم بام درمان لان الخرطوم دار كفر والمهدى عليه السلام قال لا تسكنوا في مساكن الكفار ولا تلبسوا ملابسهم ولا تزيوا بازيائهم فقلت ياسيدنا الخليفة نحن لا نملك أجرة اجتياز النيل فامر باجازتنا مجاناً فاجتزنا النهر وأقمنا بام درمان نقاسي من صنوف الذل ألوانا

ذكر الاجتماع العام لعيد الاضحي

ذكرنا ما كان التعايشي شرع في عمله من اقامة مشاعر الحج بام درمان وابطاله هذا المشروع قبل ابرازه من القول الى الفعل

هذا وقد دعا الناس للاجتماع في عيد الاضحي ليتحقق طاعتهم وليظهر امامهم بمظهر الملك والقوة فدعا محمود بن عبد القادر أمير كردفان وسائر أهلها ودعا أيضا أهالى الجزيرة فاجتمع في أم درمان زهاء خمسمائة الف مقاتل فخرج عليهم يوم العيد يحيط به نحو عشرة آلاف عبد يحملون الاسلحة النارية من طرز رامنجتون وامامه بوق (أم بايه) وهو بوق من العاج كان يستعمله كبار نخاسي النيل الابيض وكان المهدى قد ميز التعايشي عن بقية الخلفاء بهذا البوق الذى يكون علامة على دعوة فرسان الجيش بالتكوف حول التعايشي

وخرج التعايشي راكبا هجينا كان يركبه المهدي وأخذ يسير الهوينا حتي بلغ زريبة من الشوك أعدت ليصلى فيها هو والخلفاء والمقربون منه فاقيمت الصلاة قبل الزوال بنحو ساعة فصلى التعايشى بالناس اماما ثم خطب بهم الخليفة على حلو وهكذا كان حال التعايشى في ايام الاعياد يصلي بالناس اماما ويخطبهم الخليفة على حلو لان التعايشى أمي يجهل الكتابة والقراءة وبعد انقضاء الصلاة عاد الى منزله وقد سره ماراه من إقبال الناس عليه وطاعتهم لاوامره

وقد ذكرنا انه كان يخشى انتقاض أقارب المهدي ولكنه علم من أهالي الجزيرة انهم سيئو السلوك وقد حملوا الاهلين من المظالم والمغارم ما جعلهم يئنون تحتهما وأتوا من المنكرات ما يعجز القلم عن ايراده

ومن هاته الحوادث ان كريبا أحد حراس الخليفة شريف وقريب المهدى الذى ذكرنا انه قطع الصبي ثمانى قطع يوم سقوط الخرطوم ذهب الي المسلمية بمأمورية جمع الغنائم فرأى بجوار داره امرأة أرملة فى منتهى الحسن والجمال ولها بنتان لا يقلان فى الحسن والجمال عن أمهما فقبض عليهن

وادخلهن داره ووقع على أمهما أولا ثم افتض الفتاتين فقدمن على التعايشي ورفعن شكواهن اليه فاحالهن على القاضي الذي استدعى كربا ولدي استنطاقه اعترف بانه وطئ المرأة بملك اليمين لانها غنيمة أما الفتاتان فانكر افتضاضه اياهما

وفى هذا الاجتماع أصدر التعايشي أمراً بابطال وظيفة الامناء الذين فوض لهم المهدي النظر فى العرائض التى ترفع اليه لان جلهم من أقارب المهدي ثم أعلن ابطال وظيفة النواب الذين أقامهم المهدي لينوبوا عنه في نظر الظلامات التي ترفع اليه وأقام للقضاء بين الناس القاضى أحمد على الذى لقبه بقاضى الاسلام وأشرك معه نحو عشرين قاضيا كلهم من جهلاء الاعراب الذين لا يفقهون شيئاً غير أنهم يحفظون الفاظ القرآن الشريف

ثم أشار عليهم بعدم قبول الطعن فى الشهود وتحليف الشاهد على المصحف فكانوا يكتبون في أحكامهم ماياتى « ولعدم قبول الطعن فى الشهود كما أشار خليفة المهدى عليه السلام قد صار تحليف الشهود وحكمنا بكذا »

كل ذلك لينتقم من أقارب المهدى بقيام الناس عليهم ومقاضاتهم لرد مانهبوه منهم. وخرج الي محل القضاة في ذات يوم شاهرا سيفه وقال لهم ان لم تحكموا بين الناس بالحق فلابد ان أضع سيفى هذا فى رقابكم ثم خطب في الناس قائلا من كانت له مظلمة عندى فليتقدم لمقاضاتي امام القاضى والحاصل انه ظهر امام الناس بمظهر العادل الشفوق وقفل الناس راجعين الى بلادهم وقلوبهم مملوءة بالاخلاص له والانقياد الاعمى لطاعته وشرعوا في مقاضاة اقارب المهدى واستردوا اكثر ماسلبوه منهم

ذكر وفود الهنود على التعايشي

في أوائل سنة ١٣٠٣ وفد على التعايشي عشرة رجال منهم سبعة من الهنود المسلمين وثلاثة من بخاري فتلقاهم بالاكرام وقدم لهم الاغذية مدة أسبوع ثم أهمل أمرهم وشدد عليهم في مواظبة الصلوات الخمس في المسجد فساءت حالتهم حتى أصبحوا لا حرفة لهم غير التسول وكان بين الثلاثة البخاريين واحد اسمه محمد الامين فاخبر التعايشي بان له معرفة بالكتابة ونسخ الصور التي تستعمل في مطابع الحجر القديمة فامر بارساله الى المطبعة لمباشرة تلك المهنة وجعل راتبه خمسة ريالات يقبضها في السنة مرتين أو ثلاثا

ويظهر من حالة أولئك الهنود انهم فقراء وانهم قصدوا بلاد السودان عساهم أن يجدوا سبيلا للارتزاق

وكان من بينهم واحد اسمه كمال الدين وكان بارعا في أساليب الخداع والاحتيال ادعى انه ذو علم بصناعة المادة القابلة للانفجار وهي المسماه (عجينة الكبسون) وتناول من التعايشي نحو اثني عشر الف ريال ثم ظهر جهله وانكشفت حيلته وسنأتي على ذكر هذه المسألة في مكانها ان شاء الله

ذكر انتقاض الاشراف وتسليم الرايات

ذكرنا ما كان من أمر المداولة بين الخلفاء وتقسيم البلاد بينهم وتردد التعايشي في انفاذ تلك القسمة وعدم رضاه بها

ولما عاد محمد عبد الكريم بعد اسقاطه سنار واستحواذه على ما فيها من الذخيرة والامتعة طلب منه التعايشي أن يسلم ما لديه من الذخائر والاسلحة

والمال فامتنع واعلن الخليفة شريف عبد الله التعايشي بانه يريد التقدم الي بربر ومنها الى دنقلة كي يتقدم منها لفتح مصر فنعه التعايشي فلم يصغ لقوله وخرج في شمال أم درمان وعسكر هناك وأخذ في الاهبة للرحيل فجمع عبد الله التعايشي خواصه واستشارهم في هذا الامر فاشاروا بوجوب مقاومته وارغامه على الخضوع لاوامره فرأى التعايشي ان قوة الخليفة شريف أعظم من قوته وانه لا بد ان تدور عليه الدوائر اذا قصد اخضاعه بالقوة فعمد الى طريقة الحيلة والخداع توصلا الى هذه النتيجة فبذل المال الى الخليفة على حلو وطيب قلبه بالوعود ليكون معه على الخليفة شريف

وكان الخليفة على حلو متزوجا بأخت عبد الله التعايشي وبينهما من رابطة جنسية البقارة ما يدعوه الى تفضيله على الخليفة شريف فمال الى التعايشي الذى عمد الي أحمد شرفي صهر المهدي واستماله اليه بالهدايا والوعود فصار يرفع اليه أخبار الخليفة شريف وما دبره ووعده بالمساعدة في كل ما يطلبه منه

وفي ذات يوم ركب التعايشي ومعه الخليفة على حلو وقصد معسكر الخليفة شريف فوقفوا صفوفا للقائه ولدي وصوله الى الصفوف أخذ يبكي وينتحب فاحاط به كل من الخليفة على حلو وأحمد شرفي وغيرهم من خاصته وسألوه عن سبب بكائه فلم يرد عليهم وأخيراً قرب منه الخليفة شريف وأقارب المهدى فرفع رأسه وأشار بيده الي الامام وقال لهم هاهو المهدى امامكم يعض على أنامل الندم ويقول لي كيف تختلفون قبل ان يمضى على انتقالي من بين ظهرانيكم سنة ألم يعلم أصحابي انك خليفة الصديق فبكى الحاضرون وفي مقدمتهم الخليفة شريف وترامو اعلى ركاب التعايشي يقبلونه ويسألونه

الصفح عن زلتهم ثم طلب من الخليفتين علي حلو ومحمد شريف ان يسلماه راياتهما فسلموها وأمرهما بتسليم ما عندهما من الاسلحة والذخيرة والجهادية ففعلا وأصبح الخليفتان لا يملكان شيئاً من الاسلحة النارية وكان التعايشي يعد الخليفة علي بن حلو سراً باعادة ما أخذ منه ولكن لم يوف له بشيء بعد ان تمكن من انفاذ غرضه وقلب له ظهر المجن ومع ذلك كان يكرمه ويجزل له العطاء ويشاوره في كثير من الامور

ومن ذلك اليوم مال اصحاب الخليفة شريف وقواده عنه واحتقروه لما رأوا من ضعف عقله الذي أثرت عليه هذه الخديعة التي لا تؤثر على عقول الصبيان فانحازوا الى جهة التعايشي مظهرين له التزلف والتودد مضعفين له جانب الخليفة شريف الذي أخذ يعد قواده وأصحابه بان له أملاً كبيراً في اعادة نفوذه بواسطة القوة الضخمة التي تحت قيادة ابن عمه محمد خالد زقل في دارفور

وفي الحقيقة ان التعايشي كان في وجل شديد من القوة التي كانت مع محمد خالد زقل ويحسب لها حسابا ولذلك عاد الى استجلاب مودة الخليفة شريف وأبقى جميع أقارب المهدي الذين كانوا منتشرين في البلاد لجباية الخراج في مناصبهم ريثما ينظر في أمر محمد خالد زقل وكانت هذه الحادثة في أوائل سنة ١٣٠٣

ذكر القبض علي امراء سنار وفرار الشيخ مضوي

لما كان الامراء الذين اسقطوا سنار من أتباع الخليفة شريف لم يجسر التعايشي على مطالبتهم عما غلوه من غنائم سنار مع انهم لم يؤدوا الى بيت المال العشر منها

ولما استولى التعايشي على ماعندالخليفة شريف من الاسلحة والذخيرة اصبح قادراً على مناقشة اولئك الامراء الحساب على مااغتالوه من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة فاستدعى اليه أعيان سنار الذين أخذت منهم الاموال وأخذ يلين لهم الكلام ويعدهم بنيلهم نصيباً مما أخذ منهم اذاهم أوضحوا له كمية المال واسم من استولى عليه من الامراء فأوضحوا له كل ذلك فأمر بالقاء القبض على محمد عبد الكريم القائد العام لانه علم من كلامهم انه استولى على نحو خمسة قناطير من الذهب واستولى بقية الامراء على مقادير عظيمة من التبر

وقد علم التعايشي أيضاً ان الشيخ مضوى احد الامراء عذب مصريا اسمه على مرزوق كان ناظر الشونة وأخذ منه خمسين رطلامن التبر المسبوك فأمر بالقاء القبض عليه فلم يجدوه بام درمان اذ كان متغيبا فى قريته (العيلفون) فأمر باشخاص مائة راكب يقصدون تلك القرية التي تبعد عن أم درمان مسيرة مرحلة واحدة للقبض عليه فاسرع احد اقاربه بمغادرة أم درمان وأبلغه الخبر فركب راحلته قاصداً حدود الحبشة وزور خاتم التعايشي على مكتوب أمر فيه الامراء بتقديم مايلزم الى الشيخ مضوى وانه ذاهب بمهمة الى بلاد الحبشة فتناول بهذا المكتوب نحو ثلاثة آلاف ريال وبلغ حدود الحبشة آمنا ولم يصبه سوء ولحق بالشيخ عجيل الحمراني في جهة (غبته)

ولنعد الى ذكر الامراء الذين قبض عليهم التعايشي فنقول .انه أبقاهم في السجن بضعة شهور لم يظفر في خلالها بشيء مما اغتالوه واصروا على الانكار فأمر بمصادرة ماظهر من أملاكهم مثل الجواري والعبيد والدواب والامتعة

الرحمن النجومى فى دنقلة وانقضى الامر على ذلك

ذكر عصيان الجهادية بالابيض وقتل امير كردفان

لما غادر المهدي الابيض الى (الرهد) ومنها الي أم درمان استخلف على اقليم كردفان عمه محمود عبد القادر وقد ذكرنا انه استخلفه في جبال (قدير) لما بارحها الى كردفان فكأنه تفاءل باستخلافه وظل محمود عبد القادر قابضاً على زمام إقليم كردفان حتى توفي المهدى فاستدعاه التعايشي لحضور الاجتماع العام في عيد الاضحى الذي كان عقب وفاة المهدي ثم أعاده الى عمله في الابيض

وكان محمود عبد القادر هذا ابن عم والد المهدى ومن أصحابه القدماء الذين شاركوه في تأسيس دعوي المهدية وكان متظاهراً بالزهد والقناعة وكان المهدى يكرمه ويجله

وكان في حامية الابيض التي تحت قيادته الف وخمسمائة جهادى منهم نحو تسعمائة من جنود الحكومة الذين أسروا في واقعتي يوسف باشا الشلالي وسقوط الابيض والباقي من عبيد الاهالي الذين صادرهم منهم محمود عبد القادر وهؤلاء الجهادية يقودهم صف ضابط منهم اسمه (الجاك) فعهد اليهم محمود عبد القادر حراسة الجبخانات ورعى الماشية وجعل البعض حراساً له ولقواده وكان مع ذلك لا يعطيهم رواتب تقوم بضرورياتهم فاستاؤا من هذه المعاملة واضمروا الخروج عليه فنمى اليه الخبر فارسل يدعو قائدهم الجاك للحضور الي المسجد لتلقي أوامر جديدة فاعتذر عن الحضور وأرسل اليه بعض أعوانه فقبض عليهم محمود عبد القادر وضرب أعناقهم فاستشاط الجاك غيظاً ونفخ أبواقه وهجم برجاله على الجبخانه فدافعه محمود عبد القادر نحو

أربعة آلاف من فرسان الدراويش الذين انهزموا امام نيران الجاك وتركوا له الجبه خانه فاستولي عليها ودخل منازل الدراويش وانتهب ما فيها من المال والمتاع وغادر الابيض الي جبال النوبة وأعلن دخوله فى طاعة الحكومة المصرية وسمي نفسه (الجاك باشا) ومنح رتب لمن معه من القواد وأخذ يجبي الضرائب من سكان الجبال وأوصى قواده بعدم التعدى على حقوق الاهلين وان لا يأخذوا منهم الا الضريبة المفروضة فساروا سيرة حسنة امتدحهم بها سكان الجبال فارسل خلفهم محمود عبد القادر ثلاثة آلاف من رجاله مسلحين بالاسلحة النارية تحت قيادة الهاشمي أحمد الجبلي فهزمهم الجاك باشا شر هزيمة وقتل قائدهم وذبح عددا كبيرا منهم ثم سار اليه محمود عبد القادر فى أربعة آلاف مقاتل فالتقى الجمعان وثبت الجاك ورجاله ثبات الابطال وقتل محمود عبد القادر وقتل اكثر رجاله وولي الباقون الادبار وهم لا يصدقون بالنجاة

ولما اتصل بالعايشى خبر قتل محمود خاف عاقبة امر الجاك ولكنه سر من جهة أخرى بقتله لانه قريب المهدى وعضد من قوة الخليفة شريف فاسرع بانتداب على الهاشمي العمرابى في مائتي رجل وسير خلفه قريبه عثمان آدم المشهور (بجانو) وأمرهما بالبقاء في الابيض وان لا يتعرضا لحرب الجاك وكتب الى حمدان ابي عنجة يأمره بالهجوم على الجاك بجميع قواته فهجم عليه باكثر من عشرين الف مقاتل واصلاه حربا أظهر فيها الجاك ورجاله اعظم بساله حتي قتلوا عن بكرة ابيهم

ذكر اعمال ابي عنجة في الجبال

لما هزم ابو عنجة الجاك عاد الي غزواته في الجبال حتي اقترب من جبال

تقلى التى ذكرنا شأنها مع المهدي وقتله ملكها لما جاءه زائراً في الابيض فهجم على من فيها وقتل رجالها وساق النساء والصبيان سبياً وباعهم ارقاء مع انهم أعراب مسلمون كما تقدم لنا الكلام عنهم

ثم غزا أبو عنجة قبيلة الحوازمة التي تسكن بين دارفور وانتهب مالها وماشيتها وقتل زعيمها (نواى) الذي كان لحق بالمهدي في جبال (قدير) وكان المهدي وعده باعفائه من مرافقته الى الخرطوم فاخلف وعده وساقه اليها ففر نواى ولحق بقومه في كردفان فقتله أبو عنجة انتقاماً منه وانتهب أموال قبيلته

ذكر اشخاص محمد خالد زقل من دارفور وسجنه

أوردنا في الجزء الاول ماصار اليه شأن محمد خالد زقل واستيلاءه على دارفور وقد صار فيها كملك مستقل حيث جمع حوله جيشا كثيفا يربو على مائتى الف مقاتل

وكان التعايشي متخوفا منه كما تقدم ولما استولى التعايشي على أسلحة الخليفة شريف وذخيرته وراياته كتب أحمد سليمان أمين بيت المال كتابا الى محمد زقل اخبره فيه بكل ما كان عقب موت المهدى من الحوادث كما اخبره بوقوع الخليفة شريف في الفخ الذى نصبه له الخليفة عبدالله التعايشي حتى اسلمه مابيده من الذخيرة والاسلحة والرايات وقال له في الختام انقطع الامل الا منك وحذره من الوقوع فى فخ مثل الذى وقع فيه الخليفة شريف

وكان التعايشي قد شدد في مراقبة أقارب المهدى حتى لا تصل منهم كتب الى محمد خالد زقل فوقع كتاب احمد سليمان أمين بيت المال فى قبضة

التعايشي فأسرع باصدار أمر الى محمد خالد زقل بمغادرة دارفور بمن معه من الجيش فامتثل الامر وغادر دارفور حتى اذا بلغ كردفان اعترضه أبو عنجة ودفع اليه أمرا من التعايشي بتسليم كل الجيش الى ابي عنجة المذكور فاطاع محمد خالد ولم يبد أقل اعتراض

ولما تمكن أبو عنجة من الاستيلاء على جيش محمد خالد زقل شرع في تجريده من أمواله الخصوصية ولم يترك له قوت يومه ثم كبله بالحديد وأرسله الى أم درمان يرسف فى القيود والاغلال ولدى وصوله اليها زجه التعايشى فى السجن فبقى فيه بضعة شهور ثم أطلق سراحه

وبلغ مجموع الخيول التي استولي عليها حمدان أبو عنجة من محمد خالد زقل ما ينيف على عشرة آلاف جواد وعدد الاسري كان يربو على خمسة عشر الف جهادي مسلحين بالاسلحة النارية وظفر أبو عنجة بكل أموال زقل وكانت عظيمة جداً وأرسلها الى التعايشي

ولما اتصل بالتعايشي نبأ القبض على زقل جمع بطانته وأخبرهم بذلك وقال لهم قد ذهبت كل مخاوفى وصرت آمناً مطمئناً على مركزى وأنا أطلب منكم منذ اليوم ان تساعدونى على القيام بامور هذه المملكة المترامية الاطراف حيث لم يبق لى معارض فى جميع انحائها ومن ثم بدأ بتوالية الاعراب على البلاد واستئصال شأفة الذين ولاهم المهدى من أقاربه ومواطنيه

ذكر القبض علي احمد سليمان امين بيت المال وعزله

أحمد سليمان أمين بيت المال محسى الاصل من أهالي بلدة اسمها (رفاعة) على ضفة النيل الازرق الشرقية اجتمع على المهدي في جزيرة (آبا) فاحبه

واكرمه واطلعه على كنه اسراره وكان أحمد سليمان يتفانى فى محبة المهدي وخدمته وقد ذكرنا انه كان متوليا تقديم الاطعمة له وكان يقود خطام دابة المهدي حافيا وفي جبال (قدير) ولاه المهدي أمانة بيت المال مفوضاً له فيه العمل بلا أدني مراقبة أو مسؤلية يعطى من شاء ويمنع من شاء

وكان أحمد سليمان يحتقر عبد الله التعايشي ويبغضه ولا ينفذ له ارادة مع ما كان فيه التعايشى من سمو المنزلة عند المهدى لان أحمد سليمان كان يرى نفسه عند المهدي فى منزلة اسمي وأرفع من منزلة عبد الله التعايشي مهما بلغ هذا من القرب منه

وفي إبان اقامة المهدي بكردفان وقع خلاف بين التعايشي وبين أحمد سليمان فامر التعايشي بسجن أحمد سليمان فسجن واتصل الخبر بالمهدى فكاد يفقد صوابه لشدة مالحقه من الغضب فارسل الي السجن وأطلق أحمد سليمان وعنف التعايشى على اقدامه على مثل هذا الامر حتى ظن بعضهم انه سيعزله من الخلافة ويقصيه من بين يديه

وقد تغالى المهدي في الثناء علي أحمد سليمان حتى قال انه رأى مكتوبا على ساق عرش الرحمن جل شأنه ان أحمد سليمان أمين المهدي عليه السلام

وقد قلنا انه كان يكرم ذوى قرابة المهدى ويخصهم بالنصيب الاوفر من المال ولا يعطى التعايشى اكثر من مائة ريال في كل شهر. أما أقارب التعايشى فلا نصيب لهم ألبتة حتى ان يعقوب أخا التعايشي ووكيل رايته كان يتردد على باب أحمد سليمان شهرين أو ثلاثة فلا يمنحه بعدها اكثر من خمسة ريالات وقد رأيته مراراً واقفاً على باب أحمد سليمان موقف اذلاء السؤال فلا يؤذن له بالدخول الي حضرته

وجملة القول ان من ينظر بعين الامعان يتحقق ان أحمد سليمان كان أقرب مقرب للمهدي وأصدق صديق له وأعظم مستشار أمين عنده حتي ان أولاد المهدي و نساءه لا يجسر أحدهم ان يقول أمامه كلمة تمس أحمد سليمان

ويظهر جليا من هذا ان أحمد سليمان كان لا يأتي أبداً أمراً يوجب انحراف المهدي عنه ولهذا أرجح صدق ماسمعته من الواقفين على كنه سيرة المهدي من ان أحمد سليمان كان لا يضع خيطا في إبرة بغير ان يكون المهدى الآمر له بوضعه وهو كثير الاختلاء به وكان لا يحجب عنه حتى لو كان المهدي مختليا باحدي نسائه وغرفته مغلقة وطرقها أحمد سليمان أجابه من الداخل وأذنه بالولوج عليه وهذا منتهى القربي ونهاية الزلفي

ولما توفى المهدي كان التعايشي ينتظر من أحمد سليمان ان يتقرب منه ويخدمه بمثل ما كان يخدم به المهدي ويقود دابته حافيا كما كان يقود دابة المهدي فلم يفعل بل غاية الامر انه زاد في احترامه للتعايشى رعاية لمنصبه وزاد في مرتباته وخص ذوي قرابته بنصيب أقل من القليل من بيت المال وعكف على البذل والانفاق على أقارب المهدى وزاد أعطية نسائه وأولاده وأمهاتهم

وكان أحمد سليمان يتوقع شرا يصيبه من التعايشى على أثر إفضاء الخلافة اليه وقد ذكرنا كتابه الى محمد خالد زقل وبعد ان سجن أبو عنجة نقل انتدب التعايشي من بطانته أناسا ضبطوا بيت المال وكلفوا أحمد سليمان بتأدية الحساب عن الدخل والخرج منذ ولي على بيت المال فسخر من هذا الاقتراح واحتج بأن المهدي لم يأمره بضبط الحساب في دفاتر ولذلك لا يمكنه

أداء مثل هذا الحساب فاصدر أمراً بعزله وزجه في السجن فبقي فيه اكثر من سنة ثم أطلقه وعهد بامانة بيت المال بعده الى رجل من أهالى جزيرة الخرطوم كان تاجراً في الابيض اسمه ابراهيم بن عدلان وسنعود الى ذكر بقية أعماله وما كان بعد ذلك من صلبه

الاشاعة بعودة الانكليز الي دنقلة

لما أخلت الحملة الانكليزية دنقلة احتلها محمد الخير أمير بربر في أوائل سنة ١٣٠٣ وسرح مقاتلته الى جهة الشمال حتى بلغوا جنوب حلفا التي كانت يومئذ مقر الحملة الانكليزية التي تقدمت منها بعض طوابير وحاربت جنود محمد الخير وانتصرت عليهم فاستنتج محمد الخير من تقدم الانكليز الى جنوب حلفا انهم يقصدون التقدم الى دنقلة لاخضاع السودان كله حيث سمعوا بهلاك المهدى فاسرع بابلاغ الخبر الى عبدالله التعايشي فانقض هذا الخبر عليه انقضاض الصاعقة وارتاع روعا أفقده الصواب لان تقدم الانكليز يقضي على آماله التي شرع في تأسيسها وهي استبداده بالملك وانفراده بالسلطان اذ يصير ارضاء الخليفة ومنحه بعض السلطة واجبين لتوحيد الكلمة فجمع أهل شوراه وكتب الى محمد الخير يأمره بالتقهقر أمام الانكليز وتركهم حتى يبلغوا أم درمان وفي اليوم التالي أعلن خبر تقدم الانكليز وأمر المقاتلة ان يعسكروا شمال أم درمان فخرجت معهم وفى أصيل النهار لحق بنا التعايشي والخليفتان على حلو ومحمد شريف

ولما مالت الشمس للغروب توضأنا من النهر وصلي بنا التعايشى صلاة المغرب على ضفة النهر ووجوهنا متجهة الى النهر وبعد اداء الصلاة برز القمر

وقرصه مستدير ولونه أحمر كهيئته في مثل ليلته عند بروزه اذ كانت ليلة السادس عشر من شهر ربيع الآخرة سنة ١٣٠٣ فوقف واحد من الدراويش بجانب التعايشي وهو جالس ورفع صوته قائلا (السلام عليكم يا أصحاب المهدى عليه السلام) فردوا التحية فقال حولوا نظركم الى جهة الشرق وانظروا الى القمر كيف برزولونه أحمر فان هل رأيتموه بهذا اللون قط فاجابه الخليفة على حلو قائلا لا . لا . لم ننظره أبداً بهذا اللون فقال انى سمعت المهدي عليه السلام يقول ونحن في قدير « اذا فتحنا الخرطوم فان الله يجعل لاصحابى آية يعرفون بها النصر المبين الذي يصاحبهم الى الابد فقلنا ياسيدنا المهدى وما هي تلك الآية فقال هى خروج القمر في لون أحمر » فوقف التعايشى وقال للرجل صدقت ياصاحب المهدى فها أنا ذا أقرأ كتابة على صفحة القمر وهى « هذا نصر المهدى وأصحابه الى الابد » فضج الناس بالتهليل والتكبير حتى خلت السماء قد انطبقت على الارض ثم بعد اداء صلاة العشاء عدنا الى أم درمان وقضيت ليلتى متعجبا من جهالة دراويش المهدى الذين يعلمون ان التعايشي لا يقرأ ما يكتب على القرطاس فكيف يصدقون انه يقرأ ما يكتب على صفحة القمر وأخيراً كذبت الاشاعة وعاد الانكليز الى حلفا اذ هم في الحقيقة لم يقصدوا التقدم الى دنقلة بل كانوا يقصدون طرد الدراويش من جنوب حلفا ففازوا عليهم وأبعدوهم عن جنوبها

أما تلك الوقائع فان تفاصيلها لم تصل الينا من مصادر نثق برواتها وغاية الامر ان التعايشى لما علم بعدم صحة النبأ ذهبت مخاوفه ولم ينشر شيئاً من تلك الوقائع التى عدها تافهة لا تستحق الذكر

ذكر انفاذ عبد الرحمن النجومي الي دنقلة

في أوائل سنة ١٣٠٣ انفذ التعايشي عبد الرحمن النجومي الي بربر ومنها الي دنقلة ومعه جميع المقاتلة التابعين لراية الخليفة شريف فوصل الي دنقلة في أواخر السنة واتخذ مدينة (العرضى) قاعدة إقليم دنقلة مركزا لمعسكره العام ووصلت طلائع جيشه الى جنوب حلفا وسنعود الي ذكر بقية أخباره الى قتله في واقعة (طوشكى) والله الموفق

انتقاض دارفور علي التعايشي واخضاعها

لما غادر محمد خالد زقل دارفور هب رجل اسمه يوسف من ذراري سلاطين دارفور واستخلص البلاد من ايدي الدراويش الذين تركهم بها زقل ونودي به سلطانا علي أقاليم دارفور كما كان اسلافه فكتب التعايشي الى عثمان آدم جانو يأمره بحشد أهالي كردفان والتقدم بهم الي دارفور لاخضاعها فحشد جيشاً يربو علي الخمسين الف مقاتل منهم نحو عشرة آلاف كانوا مسلحين بالاسلحة النارية وهجم بهم على (الفاشر) عاصمة دارفور فقابله السلطان يوسف فى جمع كثيف ودافعوا دفاع الابطال وانجلت الحرب عن هزيمة أهل دارفور وقتل السلطان يوسف ودانت البلاد بطاعة المهدوية فاستولي عليها عثمان آدم وأخذ يوالي الغارة على الجبال التي حول دارفور فاجتمع لديه من الارقاء زهاء عشرين الف مقاتل سلحهم بالاسلحة النارية

وأرسل عثمان آدم بما غنمه من دارفور الي التعايشى على مألوف العادة وأرسل اكثر من ثلاثمائة فتاة من فتيات دارفور سبايا الي التعايشي الذي سر

من عمله وكتب اليه بالولاية على إقليم دارفور وكردفان وجعله قائد جيوشها وسيأتي ذكر بقية أعماله وحروبه مع أبي جميزة مدعي المهدوية

ذكر لحاق قبيلة الشكرية بالحبشة وقتل زعمائها

في أوائل سنة ١٣٠٤ كتب التعايشي الي قبيلة الشكرية يدعوها الي الشخوص الى أم درمان بماشيتها وكانت وقتئذ نازلة في باديتها بصحراء (ديره) بين نهري (اتبره) والنيل الازرق فايقنت ان دعوتها الى أم درمان لم تكن لغير نهب ماشيتها ومصادرتها فعولت على الالتجاء الي بلاد الاحباش وكان زعيمها عوض الكريم بن أبي سن الذي ذكرنا أخباره مع المأسوف عليه غردون وقدومه على المهدى تائبا نادما مقيما يومئذ فى أم درمان

وبعد أيام قلائل من دعوة التعايشي لقبيلة الشكرية جاءته الاخبار بمغادرتها ديارها ولحاقها ببلاد الاحباش فاحتدم غيظا وأمر بالقاء القبض على عوض الكريم بن أبي سن وسائر أفراد أسرته الذين هم من قبيلة الشكرية فقبض على نحو مائتى رجل من خيارهم وكبلوا بالحديد وزجوا فى السجن حتى أمر التعايشي بقتلهم صبرا فقتلوا جميعا ولم ينج منهم أحد

أما الذين هاجروا الى الحبشة فلم يكونوا أسعد حالا من الذين قضى عليهم في السجن لان رداءة هواء بلاد الحبشة استأصلت إبلهم التي كانت تعد بمئات الالوف وأبادت نفوسهم التى يقرب عددها من ثلاثمائة الف نسمة. وبالجملة فان تلك القبيلة التي كانت من اكبر قبائل السودان واكثرها ماشية وأشدها بطشا وقوة هلكت عن بكرة أبيها وذهبت ماشيتها ولم يبق منها غير بضعة آلاف نسمة متفرقين فى البلاد وهم فى نهاية الفقر المدقع

فسبحان من يغير ولا يتغير

ذكر قبيلة الضباينة والقبض على زعيمها في الجهات الجنوبية

فى نهر (اتبره) قبيلة تسمى الضباينة يربو عدد نفوسها على أربعمائة الف نسمة ولها من الماشية من نوع الابل والبقر مايربو على ماشية قبيلة الشكرية وهى رحالة وزعيمها محمود عيسى زائد الشامى وهو من أسرة تولت زعامة تلك القبيلة منذ قرون وتؤكد هذه الاسرة ان جدها شامي قدم السودان من الديار الشامية منذ قرون أيضا وكان محمد زائد هذا ذا ثروة واسعة وله من الموالي والارقاء مالا يدخل تحت حصر حتى انك ترى قرى مملوءة بارقائه وكان كريما جوداً يقرى الضيوف ويعطى المال بآلاف الريالات وكانت له قصعة من الخشب يحملها خمسون رجلا . وقد أخبرنى واحد من الذين حضروا مصادرة أمواله انهم أحصوا النوق الموسومة بالنار على فخذها الايمن اشارة الى انها معدة لركوبه خاصة لا يسوغ لاحد من مواليه أو أسرته ركوبها اجلالا لمقامه فكانت نحو أربعة آلاف راس من اكرم أنواع النوق والهجن

وكان محمود عيسى زائد يبغض المهدوية ويبطن ولاء الحكومة وان كان يمالئ المهدوية ويتظاهر بطاعتها حتي ان عثمان دقنة كان يكتب له قبل سقوط كسلة محرضاً على وجوب شن الغارة على حامية (الجيرة) قبل سحبها لانها قريبة من قرية (التومات) محل اقامته فلا يفعل وبعد أن سقطت كسلة أرسل عثمان دقنة نحو أربعة آلاف مقاتل تحت قيادة عوض الكريم كافوت الجملى فقبضوا على محمود عيسى زائد على غرة وصادروا أمواله وحملوها

الي الخليفة التعايشي ومن جملتها (القصعة) التى جعلها التعايشي اناء يقدم فيه شيأ من تافه الطعام الى المدعوين في أيام المواسم والاعياد ولكن محمود زائد كان يقرى ضيوفه عليها صباحا ومساء طعاما نفيسا هو خليط من قمح ولحم ولبن وسكر أو عسل مصفي وسيق. محمود زائد الى التعايشى يرسف في القيود والاغلال فطرحه في السجن وفى سنة ١٣٠٧ استأصل الزاكي طمل قبيلة الضباينة وأطلق الخليفة محمود زائد فمات غما بعد ان أصابه من عذاب السجن وفقدان القوة مابرح به خمس سنوات متواليات

ذكر انتقاض قبيلة جهينة

ذكرنا بعض اخلاق وعادات قبيلة جهينة التي تسكن جنوب سنار وقلنا ان زعيمها المهدي اباروف شخص الي المهدى في جبل (قدير) وعاد من عنده داعياً له فى قومه الذين جمعهم وظل يحارب بهم مدينة سنار حتي سقطت ثم عاد الى بلاده فيما وراء سنار

وفى أوائل سنة ١٣٠٣ أرسل التعايشى جابيا بقاريا اسمه أبو ام فضالي لجباية الخراج من قبيلة جهينة وسائر البلاد الواقعة جنوب سنار فحملهم من أنواع المظالم وضروب الحيف ماعجزوا عن تحمله فرفعوا شكواهم الى التعايشى الذي عنفهم واتهمهم بالمروق من الدين لأنهم شكوا اليه أصحاب المهدي فهبت قبيلة جهينة وزعيمها وأخرجت ابا أم فضالى قسرا من بين ظهرانيها واعلنت خروجها على التعايشى الذي لما اتصل به هذا النبأ أسرع بانفاذ نحو خمسة آلاف مقاتل جلهم مسلح بالاسلحة النارية فطاردوا قبيلة جهينة وقتلوا زعيمها المهدى اباروف واسرته وأصدر التعايشي أمراً بمصادرة أموال هذه

القبيلة وانفذ الامراء الى الجهات التي بها مساكنهم فكنت ترى الابل والبقر قد ضاقت بها الارض على وسعها ونزلت أثمان النوق حتي صار ثمن الواحدة خمسة قروش مصرية وزاد الطين بلة مصادرة ماشية قبيلة الكبابيش فى نفس الوقت الذي صودرت فيه أموال جهينة وماشية الكبابيش تربو على ماشية جهينة كما سنوضحه فيما سيأتى

والحاصل ان قبيلة جهينة بادت كلها وذهبت ماشيتها ولم يغن عنها ولاؤها للمهدى وقيامها ضد الحكومة

ذكر حرب قبيلة الكبابيش

ذكرنا قتل ابن زعيم قبيلة الكبابيش في الابيض لما كان المهدي نازلا بها وعلى أثر قتله جاهرت قبيلة بالكبابيش بالعصيان على المهدوية وابتعدت من المناهل والمراعي القريبة من كردفان وتوغلت في الصحراء التى بين كردفان ودنقلة

ولما استولت المهدوية على الخرطوم وانسحب الانكليز من دنقلة كتب التعايشي الى الشيخ صالح زعيم الكبابيش يدعوه الي الطاعة ويمده تارة ويتوعده أخري فلم يلتفت الي وعده ولم يرهب من وعيده بل توغل فى الصحراء حتي صار على مقربة من الواحات الجنوبية فانتدب التعايشي محمد نوباوى شيخ قبيلة بنى جرار التى هى بطن من بطون قبيلة الكبابيش وهو الذى دخل على الطيب الاثر الجنرال غردون وقتله

وانتدب التعايشى معه عدداً كبيراً من الفرسان فساروا من أم درمان مخترقين الصحراء حتي بلغوا منهل (أم بادر) وكان الشيخ صالح نازلا به

ومعه نحو مائتي رجل من أسرته ومواليه وبقية القبيلة متفرقة في المراعي والمناهل فاحاط محمد نوباوي بخيام الشيخ صالح في الغلس فانتبه من في الخيام مذعورين وركب الشيخ صالح فرسه وكذلك بقية من معه وأخذوا يطلقون الرصاص على الدراويش حتى نفدت ذخيرتهم فاستلوا سيوفهم وهجموا على صفوف الدراويش فاخترقوها وزحزحوهم عن مواقفهم وأصيب الشيخ صالح برصاصة في ذراعه فخر صريعا عن جواده فتقدم اليه محمد نوباوي ليشد وثاقه فابتدره بالشتم ولعن المهدي وخليفته وقال له أمثلي يساق أسيراً فامتنع محمد نوباوي عن قتله احتراما لما بينهما من صلات النسب فتقدم أحد الدراويش وقتله وحز رأسه ورؤس اخويه ورجال أسرته الذين سقطوا قتلى بعد اصابته وحملت الرؤس الى التعايشي فسر بها وخرسا جداً على ما أوتيه من النصر وانتدب الزاكي عثمان ومعه كتبة وجنود ووجههم الى محل الواقعة كي يجمعوا الغنائم وبلغني من أولئك الكتبة ان عدد الرؤس من الابل كان يربو على مليون ويقرب عدد البقر من الخمسمائة الف رأس أما الماشية الصغيرة فانهم لم يعتنوا بتعدادها لكثرتها وأرسلت هاته الماشية وبيعت مع غنائم جهينة في أم درمان وقد ذكرنا أن ثمن الناقة انخفض الى خمسة قروش مصرية وجيء بالجماعات من النساء سبايا وبالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة

وكانت قبيلة الكبابيش هذه أعظم قبائل السودان واكثرهن ماشية وثروة وزعيمها أغني زعماء القبائل في السودان وكان قد وفد منذ خمسة وعشرين عاما على المغفور له الخديو اسماعيل باشا وقدم له هدايا وتحفا فاكرم وفادته وأعاده الى بلاده بالعز والاكرام ومن أعجب ما شاهدته ان اكبر بنات الشيخ صالح هذا كانت تحمل على رأسها في أم درمان اناء تبيع فيه الماء لتحصيل قوتها وقد كانت هذه المرأة

وسائر نساء أسرتها يلبسن نعالا من خالص التبر واذا خرجت احداهن من دار الى أخري مشى حولها مائة من الجوارى وعلى كل واحدة من الحلى ما لا يقل عن مائة أوقية من التبر يظللان على مولاتهن بالاردية الحريرية وقد شاهدت اكثر هاته العقيلات متسولات فى الاسواق فسبحان المعز المذل

وفي ذات يوم كنت جالسا بالقرب من مقصورة التعايشي فقال له أحد جلسائه ان بنت صالح زعيم الكبابيش تبيع الماء انوت يومها فاظهر الأسف وقال من الواجب علينا اكرامها وأرسل في طلبها فجاءت فسألها عن حالها فاجابته واكثرت من الثناء والاطراء عليه فامر أحد غلمانه باعطائها شيأ من النقود ضمته فى كفها وخرج الناس وراءها ليعلموا مقدار جائزتها فاذا هى سبعة ريالات من عملة النحاس تقدر قيمتها بسبعة قروش مصرية فقالت المرأة انظروا لجائزة الخليفة ومبلغ إكرامه لمثلي

هذا وجملة القول ان قبيلة الكبابيش بادت ولحقت بغيرها من القبائل والدوام لله وحده

ذكر القبض علي شارل نيوفيلد

شارل نيوفيلد ألماني استوطن اصوان مزاولا مهنة الاتجار بتقديم لوازم الجيش في الحدود فاحرز من هذه الحرفة ثروة واقتنى عقاراً وزاد في ثروته انه منذ بداية أمره كان يحسن معاشرة الوطنيين ويتشبه بهم في الاخلاق والعادات حتى كانه واحد منهم ولم يظهر على ملامحه انه متكلف لهذا التشبه حتى نال حظوة عظيمة عند جميع السكان زادت في نجاحه وفتحت في وجهه

أبواب الكسب وساعدته على احراز الثروة

وفي أواخر سنة ١٣٠٣ انفذ الشيخ صالح زعيم قبيلة الكبابيش الذي تقدم لنا خبر قتله وفداً الى الحكومة الخديوية يسالها امداده بالاسلحة والذخيرة ليقوى على دفع غارة المهديين عن نفسه فاعطت الحكومة رجال الوفد مائتي بندقية من طرز رامنجتون بذخيرتها وأخذوا في الاهبة والاستعداد لاختراق صحراء الجمب من حلفا الى منازل قبيلتهم وفي إبان ذلك اجتمع شارل نيوفيلد بتاجر من أهل كردفان اسمه خوجال أم برير فقال له التاجر ان لدي كمية وافرة من الصمغ والعاج وريش النعام فاتفقا على ان يذهب نيوفيلد صحبة وفد الكبابيش وبواسطة نفوذ زعيمهم يخترق بقية الصحراء الى الابيض ومن هناك يحمل الصمغ والعاج وريش النعام بغير ان يشعر به أحد من دراويش المهدية وقد جعل له خوجال نصيبا وافرا من تلك السلع نظير مخاطرته التي يتعذر معها نجاحه ووصوله الى مقصده

وقد عرض نيوفيلد أمره على ولاة الامور في الحدود فلم يمانعوه فغادر حلفا صحبة الوفد ومعه محظية حبشية وكان دليل الوفد ميالا لجهة المهديين فابلغ عبد الرحمن النجومي الذى كان وقتئذ في دنقلة وأطلعه على خطة سيره وارشده الى المكان الذي يقابلهم فيه المبعوثون من عنده فسار شارل نيوفيلد مع الوفد وهو لا يعلم شيأ من القدر المخبوء له فسار بهم الدليل فى بادية معطشة حتى فقدوا الماء مدة أربع وعشرين ساعة

وكان النجومي قد أنفذ وراءهم خمسمائة راكب تحت قيادة محمد حمزة الانقريابى وبينما كانت القافلة سائرة والظمأ قد بلغ غايته من رجالها والدليل يعدهم بقرب الوصول الى الماء اذ داهمهم العدو على غرة وتمكن من أثقالهم فانحاز

الرجال الى ربوة مرتفعة واطلقوا النيران دفاعا عن انفسهم فهلك من هلك وأخذ الباقون اسري وصعد نيوفيلد على مكان آخر مفضلا الموت على الوقوع في اسر أولئك الطغاة المتوحشين فامسك العدو محظيته وجعلها بعضهم كترس يتقي به مقذوفات مولاها الذي شلت يمينه عند ما تحقق انه يقتل محظيته اذا أصر على عزمه الاول فاسلم نفسه ووقع أسيراً فى يد العدو الذي جرده من ملابسه ووضع الاغلال فى عنقه وساقه ماشياً على قدميه حتي بلغ دنقلة بعد مسيرة عدة ايام فامر عبد الرحمن النجومي بصلب أسرى الكبابيش وارسال شارل نيوفيلد الى الطاغية التعايشي بام درمان

ولما أوقف بين يدى التعايشى صاح قائلا هذه صفة الكافر التى وصفها لنا المهدى ثم عرض عليه اعتناق الاسلام فابى فامر بصلبه فسيق الى محل (المشنقة) ثم ارجعوه الى التعايشى وهكذا فعلوا ثلاث مرات وبعد ايام رضى باعتناق الاسلام دينا ونطق بالشهادتين واذ ذاك أمر التعايشى بزجه في السجن حتي اطلقه اللورد كتشنر باشا وسنعود الي ذكر بقية حوادثه والله الهادى

ذكر حروب الاحباش الي قتل النجاشي يوحنا

تقدم لنا ذكر اول واقعة جرت بين المهديين والاحباش التي انتصر فيها الرأس الولا على عثمان دقنة فى كوفيت وقبل الكلام على هذه الحروب نذكر طرفا يتعلق (بالقلابات) وما يتبعها من بلاد (القضارف) مواطن تلك الحروب الهائلة فنقول

القلابات اسم لبلدة على شاطيء نهر (اتبره) جنوب القضارف وهي آخر حدود الحكومة الخديوية في بلاد الاحباش من جهة الجنوب بالنسبة لموقع بلاد القضارف

وكان سكانها الاقدمون من دكرور السودان الغربي ولا نعلم كيف جاؤا من بلادهم واخترقوا السودان من الغرب حتى وصلوا لآخر نقطة من شرقه الجنوبي وكان أولئك السكان يؤدون جزية لمملكة الحبشة

ولما احتلت الحكومة الخديوية السودان جعلت القلابات من أهم المواقع التي حصنتها لدفع غارة الاحباش عن بلادها وكان آخر زعيم من أولئك الدكروريين صالح شنقه الذي نال من الحكومة الخديوية لقب بك واستمر على دفع الجزية للاحباش كما كان اسلافه

أما القضارف فانها البلاد الواقعة شمال القلابات يحيط بها نهر (اتبره) من جهتي الجنوب والشرق وهي بلاد مخصبة جداً وتجارتها واسعة وفيها من النباتات مالا يوجد في السودان كله وثمن مايحمله الجمل من الذرة من نوع اسمه (الكرق) يخالف الذرة الرفيعة بعظم حبه وبياض لبه الذي يستخرج منه مواد نشوية تشبه مايستخرج من الارز بضعة قروش مصرية وفي بلاد القضارف غلة تشبه الحلبة في اللون الا ان طعمها كالشهد في الحلاوة اسمها (الشمشم) تغلى على النار بالماء فتتحول الى حلاوة الشهد فيأكلونها ويشربون ماءها

وعاصمة هذه البلاد تدعى (ولد أبو سن) وهي مدينة كبيرة فيها منازل مشيدة باللبن الاحمر والآجر وقصور شامخة مشيدة بالاحجار وأصحابها تجار مصريون وسوريون ويونان وبعض من الفرنسويين والارمن

وحول هذه المدينة حدائق غناء وفواكه لذيذة كالعنب والتين والقشطة والموز والرمان والبورتقال ومن أعجب ما علمته عن القضارف ان النخل يثمر فيها مرتين فى السنة وكذلك العنب الذى يثمر مرتين فى السنة

مرة في الشتاء واخري في الصيف موجود فيها وفي الخرطوم

وفي القضارف مدن أخري غير عاصمتها يسكنها اتراك ومصريون ويونان وأرمن وهي لا تقل عن عاصمتها وأشهرها (عصار) و (دوكه) وسكان القضارف قسمان سكان القري وسكان البوادي الذين جلهم من قبيلة (الضبانية) التي تقدم لنا ذكر زعيمها محمود عيسى زائد وكلتاهما متوفرة لديها أسباب المعيشة ومتحصلة على نعومة العيش من أسهل الطرق وأقربها وسيأتي ذكر خراب تلك البلاد وانها الآن قفر ليس فيها عشرة آلاف ساكن بعد ان كان تعداد سكانها يربو على مليون نسمة

وكان لعوض الكريم أبي سن زعيم قبيلة الشكرية الذي قتله التعايشي صبرا ابن اسمه عبد الله أمه من قبيلة الجعليين مال الي اخواله ورغب عن خطة والده وقومه الشكرية وعدولهم عن قبول دعوة المهدوية وقدم على المهدي الذي ولاه الدعوة له في القضارف فقام بها وأدخل البلاد في دعوة المهدي

وكان في منزل صالح شنقه زعيم دكروري القلابات رجل يعلم الصبية القرآن الشريف فلحق بالمهدي وعاد من عنده يحمل أوامره بالدعوة له في القلابات فانسحبت حامية القلابات الي بلاد الحبشة انفاذاً للمعاهدة التي أبرمت بين الاحباش والحكومة الخديوية فاحتل ذلك الداعية القلابات باسم المهدي ومنع اداء الجزية للاحباش لذين كانوا وقتئذ مشتغلين بدفع غارة الايطاليين عن بلادهم في الجهات التي تلي ساحل مصوع واسم هذا الداعية محمد بن ارباب وغادر صالح شنقه القلابات مع الحامية ولم يشأ البقاء فيها

هذا وقد كانت دعوة المهدوية قد دخلت في بلاد الحبشة على يد رجل من أمراء الاحباش المسلمين اسمه محمد جبريل وفد على المهدي قبيل وفاته

بايام قلائل فاعاده الى بلاده بمنشور دعا الاحباش فيه الي اعتناق الاسلام وطرح النصرانية والاجماع على طاعة محمد جبريل لقتال الكفار وهاهى صورة المنشور نقلا عن كتاب المنشورات

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وعلى آله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدى بن عبد الله الى أهالي (قيرا وقوما وقما وحما ولموا والنارية بلد الجن وليكاونونوا ولي بن وهروسي وقبا وكفاه وكونتا وكويشاوشتا وقونه ولاموا وابارروكواونبوا وسوروا) وفقهم الله لطاعته واتحفهم بمرضاته آمين بعد السلام عليكم اعلموا وفقكم الله لما يحبه ويرضاه وجعلكم من الفائزين ان الدنيا قد ولت مدبرة وان الآخرة قد تزينت مقبلة ومع ذلك فانما في الدنيا خسيس جداً وما في الآخرة نفيس جداً وعلى العاقل ان يسعي لنفيس دائم ويعرض عن خسيس فانٍ وكثيراً ما حل بابناء الدنيا من الدمار والحسرات وكثيراً ما اجتبي الله ابناء الآخرة ورفعهم اعلا الدرجات وأجزل لهم المسرات وأنواع الخيرات وان الله تعالى قد أظهرنى رحمة للمؤمنين ونقمة للصالحين وسيفا قاطعا للملحدين فمن أراد الله سعادته ونجاته من خزي الدنيا والآخرة لباني وأجاب دعوتي ونصرني وآواني ومن غلبت عليه شقوته أعرض ونأى وكذب وعصي فمن لبانى فاز ونال من الخير العميم مالا يعد ولا يحصى ومن أعرض فقد دمره الله وخذله خذلانا مبينا وحيث فهمتم هذا البيان فاني على حسب المصلحة الدينية قد عينت لكم السلطان محمد جبريل عاملا عليكم في دين الله لاقامته ودعاية العباد الي سلوك سبيل الرشاد فينبغي بوصول هذا عندكم ان توازروه وان تشدوا

عضده وتسمعوا أمره ونهيه مادام على الحق والصدق وان تحاربوا معه كل من ضل واعرض عن الاتباع. وسلك طريق الغواية والابتداع. ولا تركنوا الى الراحة والبطالة فان الجهاد فضل عميم. وثواب جسيم. منوه عليه بسواطع أدلة القرآن العظيم. وأحاديث النبي الكريم. وكفى من ذلك قوله تعالى «الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله باموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنت لهم فيها نعيم مقيم» الآية وقوله صلى الله عليه وسلم «رب غدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها» أو كما قال وحيث كان كذلك فاذا وصلكم جوابي هذا فشمروا في طاعة الله ورسوله وابذلوا أرواحكم فى نصرة دين ربكم بحيث من كان منكم على دين النصرانية يرفضه ويدخل الاسلام ويبادر بالتسليم والانخراط في سلك المهدية قال تعالى «ان الدين عند الله الاسلام» «وانيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل ان يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل ان يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون أن تقول نفس ياحسرتي على ما فرطت في جنب الله وان كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين أو تقول حين تري العذاب لو أن لى كرة فاكون من المحسنين» فرد الله على من هذا حاله بقوله «بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ويوم القيامة تري الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة» الآية فهذه الآيات وما ماثلها مما يرغب فى دين الاسلام والتسليم لامر المهدية وينفر عما سواه وأما من كانوا منكم على دين الاسلام فتأييده وتشييده هو غايه مقصودهم فليشمروا فى نصرتنا ابتغاء مرضات الله ادام الله توفيقكم وجعلكم من

عباده المؤمنين آمين وفي هذا كفاية لمن له قلب والسلام ١١ شعبان سنه ١٣٠٢
وانت أيها الامير محمد جبريل أوصيك بتقوى الله فى سرك وعلانيتك وإيثار آخرتك على دنياك وأن لا تقدم على أمر مالم تعلم حكم الله فيه فان الامارة خطرها عظيم وخطبها جسيم ولا بد لصاحبها من الخلود في النعيم المقيم أو العذاب الاليم قال تعالى «فاما من طغي وآثر الحيوة الدنيا فان الجحيم هى المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوي» ونظرا لذلك فان امارتنا لك معلقة على شرط اتباع الكتاب والسنة فان غيرت أو بدلت فلا امارة لك فافهم ذلك واسترشد به ولكمال المعلومية لزمت التحشية فى تاريخه

هذا ولما دخلت دعوة المهدوية فى بلاد الاحباش ادرك النجاشي يوحنا خشونة مركبه ومغبة أمره حيال هذه الدعوة التى هاله انتشارها فلم ير وسيلة لدفع شرها غير التدرع بالجبروت ومقاومة دعاتها بضروب القوة والقهر بيد أنه تمادى في هذا السبيل حتى فقد الروية والنظر القصى للعواقب فانشب مخالب الاضطهاد الديني فى مسلمى رعيته وخالف تقاليد اسلافه حيث اكره نحو مائة الف من أهل القبلة على اعتناق النصرانية وعذبهم عذابا اليما

على ان حرية الاديان فى بلاد الحبشة كانت لا تزال بالغة حد الكمال حتى ان شقيقة النجاشي يوحنا اعتنقت الاسلام وتزوجت باحد الامراء المسلمين فلم يعنها أخوها ولم ينقصها شيأ من الاحترام الواجب لمثلها

وقد قام كثير من أمراء الاحباش المسيحيين ومحضوا النجاشى النصح بالعدول عن هذا الاكراه فلم يكترث بنصحهم وظل على رأيه القائل وكان منيليك نجاشى الحبشة الحالي أول معترض على عمل النجاشي يوحنا

وعلى أثر ذلك نزح كثير من مسلمي الاحباش ولحقوا بالتعايشي فولى عليهم رجلا منهم اسمه (محمد فقرا) وعسكروا في الشمال الشرقي من القلابات عند نهر (اتبره) بالقرب من جهة (العراديب)وسموا معسكرهم (تبارك الله)

وفي أواخر سنة ١٣٠٣ وفد على التعايشي محمد أرباب أمير القلابات فأكرم وفادته وأعطاه أسلحة نارية وخيولا وأعاده الى القلابات وأوصاه بالغارة على اطراف بلاد الاحباش فاغار عليها في تلك السنة وخرب عدة قري وأحرق الكنائس واتلف ما فيها من التماثيل وكذلك أغار محمد فقرا على القرى التي هي حيال معسكر (تبارك الله) واثخن فى أهلها

وكان فى جهة (غبته) اعرابى اسمه عجيل الحمرانى فى السودان الشرقي فر باكثر قبيلته من وجه المهدويين ولجأ الى بلاد الاحباش فامدوه بالاسلحة ووكلوا به الدفاع عن حدودهم في جهة (غبته) فكان يوالي الغارة على القري التي على ضفة نهر (اتبره) وكانت غاراته لا يلحق المهدويين منها أقل ضرر بل كان شرها واقعا على الضعفاء سكان تلك القرى الذين دخلوا في طاعة المهدويين قسراً

وفى أوائل سنة ١٣٠٤ تواترت الاخبار بتقدم الاحباش الى معسكر القلابات و (تبارك الله)

وفي أوائل شهر ربيع الآخر سنة ١٣٠٤ هجم الراس عذار على محمد أرباب في القلابات وقتله واكثر مقاتلته وفر الباقون الي (القضارف) وهجم جيش حبشي على محمد فقرا فى (تبارك الله) ففر بجميع مقاتلته عند تراني الجمعين ولحق بالقضارف أيضا وطارت الاخبار بذلك الى التعايشي فى أم درمان فانتدب يونس بن الدكيم فى عشرين الف مقاتل فسار من أم درمان الي

القلابات فوصلها فی شهر رجب وانسحب الاحباش منها بغير قتال

ولما استقر يونس بجيشه فی القلابات بذل الامان لتجار الاحباش فجاؤا اليها بسلعهم فوثب عليهم وصادر أموالهم وساقهم اسرى يرسفون فی القيود والاغلال الي أم درمان فاذاع التعايشي بين الناس ان يونس غزا بلاد الحبشة وخرب عدة مدن واستولي عليها وأن هؤلاء اسري تلك الوقائع ولم تمض أيام حتي ظهرت الحقيقة وعلم الكل ان أولئك الاسرى كانوا تجارا أمنهم يونس ثم غدر بهم ونهب أموالهم وساقهم اسرى الي التعايشي

أما يونس الدكيم هذا فانه تعايشي من قبيلة التعايشة وكان فقيراً لا يملك شروى نقير وهو أحد أزواج والدة التعايشي قدم على المهدي فی الابيض وبقی مع التعايشي يقاسی من شظف العيش أمره حتى توفي المهدي فجعله التعايشي قائدا على نحو عشرين الف مقاتل وله نوادر مضحكة تدل على سخافة عقله. منها ان الناس كانوا يأتونه فاذا وقفوا بين يديه صوبوا نظرهم الى الارض فيقول لهم لماذا لا ترفعون ابصاركم نحوي فيقولون وهل يستطيع أحد النظر الى وجهك الذي يفوق وجه السبع فيرتاح الي ذلك ويأمر بعزف الطبول وركب جواده ويأمر مقاتلته باطلاق النيران فی الهواء. ومنها انه اذا جلس بين اتباعه فلا كلام له غير الثناء على نفسه ومنها انه كان يقول اذا التقينا بجيوش الترك نقتل في الدقيقة مئات منهم ونخترق صفوفهم ونزحزحهم عن مواقفهم الي غير ذلك من الاكاذيب فقد علم الخاص والعام ان يونس هذا من أجبن خلق الله وانه يفر من مواطن القتال كما تفر النعامة من صفير الصافر

ومن أعجب خرافاته انه كثيراً ما كان يقول انه سيفتح لوندرة عاصمة الانكليز وانه سيتزوج باكرم عقيلاتها

وصلى بالناس مرة صلاة الظهر ثماني ركعات فقال له أحد الحاضرين اسجد للسهو فغضب وقال وهل أنا جاهل حتى يرشدني مثلك فان سجود السهو لا يكون للزيادة بل للنقص لان العبد اذا أمره مولاه بحراثة أربعة أفدنة مثلاً من أرضه ثم رأي نفسه قادرا على حراثة ثمانية أفلا يكون ذلك موجباً لرضى مولاه عنه بخلاف مالو أمره بحراثة أربعة أفدنة فحرث ثلاثة او اثنين فان هذا النقص يكون موجباً لغضب مولاه عليه وحينئذ يجب ان يقدم المعذرة وهذان المثلان ينطبقان على الصلاة ثم أمر بالرجل فجلد بالسياط حتى مزق جسمه وسيق الى السجن وخزعبلات يونس كثيرة يضيق المقام دون سرد القليل منها والحاصل انه كان جاهلا سخيف العقل ظلوما غشوما قاتله الله

وفي أوائل سنة ١٣٠٤ استقدم التعايشى حمدان أبا عنجة من الجبال فقدم فى جيش عرمرم ومكث بام درمان بضعة شهور ثم انفذه التعايشى الى القلابات لتعزيز الحامية التى بها حتى تصبح قادرة على أخذ الثار من الاحباش فسار أبو عنجة قاصداً القلابات وبينما كان سائرا في الطريق بلغه ظهور رجل فيها ادعي انه المسيح عيسى بن مريم صلوات الله وسلامه عليه

ولما وصل أبو عنجة الى القلابات وعرض على يونس أوامر التعايشي بتوليته القيادة العامة على الحامية أرسل يونس يبلغ التعايشي ذلك الخبر فامره ان يسير حيال هذه المسألة بماضي عزيمته المعروفة مطيعا لابى عنجة

أما ذلك المتنبي فانه من أهل دكرور وله معرفة بضروب السيمياء والشعوذة حتى انه كان يصنع امام الملأ اشياء من تلك الخزعبلات يخالها الرائي حقيقة لا ريب فيها

وأصل ذاك الدكروري من جيش يونس الدكيم غادر أم درمان معه وكان أحمق طائشا حدثته نفسه بانه سيبلغ أربه من انحال دعوي انه عيسي روح الله لما اشتهر من ان نزول المسيح عليه السلام يعقب ظهور المهدى المنتظر فجهر بدعواه وصنع امام الناس خيالات من السيمياء ظنها دراويش المهدي الاغبياء من أعظم المعجزات فآمنوا بذاك الكذاب وبايعوه علي الطاعة العمياء وبايعه سبعة عشر قائدا من اكبر قواد جيش المهدوية الذين مع يونس ولم يداخلهم ادنى شك في صدق ما ادعاه

ومن العجب ان بين أولئك القواد ابن بقارى وهو فقيه من عائلة بقارى التي لها مدرسة يؤمها طلاب العلم في جزيرة السودان

وعرض السبعة عشر قائدا أمر تلك النبوة على قائدهم العام يونس فرافقهم الي محل الرجل ورأي من خزعبلاته ماراج على عقله الذي هو اكثر سخافةمن عقول قواده السبعة عشر الا انهخاف عاقبةالاسترسال فى هذا الامر فارسل يبلغ التعايشي بتفصيل المسألة سرا

ولما وصل أبو عنجة الي القلابات ومعه اكثر من أربعين الف مقاتل وكثيرمن المدافع والسوارخ وبضعة آلاف فارس أحاط بالمعسكر احاطة السوار بالمعصم واستدعي يونس ووضع يده على مخازن الذخيرة واستولي على الجبهخانة ثم قبض علي المتنبي وسأله عن دعواه فقال انه جاء بعد المهدى وان الله أرسله لشد عضد التعايشي فقال له ألست فلان بن فلان ولا تزال امرأتك وبنوك بام درمان فاجاب بالسلب فامر بصلبه فصلب ثم قبض على السبعة عشر قائدا الذين صدقوه وقال لهم هاهو صاحبكم مصلوب فقالوا كلا بل شبه لكم وقرؤا قوله تعالى «وما قتلوه وما صلبوه» الآية فامربهم فصلبوا

وعادت المياه الي مجاريها وتبددت غياهب الفتنة التي كنا نظن أنها تأتي بانقلاب يكون من ورائه فرج قريب وما ذلك الا لانا كنا كالغريق يتشبث بسعفة تتقاذفها الامواج

ثم استدعى التعايشي يونس الدكيم الي أم درمان وعنفه على ما ظهر من خوره وضعف عزيمته حيال دعوى ذلك الكذاب وسيأتى ذكر تعيينه على دنقلة

ولما اتصل بالتعايشي نبأ مهلك ذلك الكذاب خرج ذات يوم وبيده منشور فرقي المنبر الذى أعده للخطابة وكان منبر المسجد العام في الخرطوم فنقله الى أم درمان وأعده للخطابة وقص على الناس أمر ذلك المتنبي ثم دفع المنشور الي من يقرأه وفيه بعد البسملة والحمدلة مانصه

وبعد فيقول عبد ربه خليفة المهدى عليه السلام الخليفة عبد الله بن السيد محمد خليفة الصديق وأمير جيش المهدية لما أتى الخبر بصلب الشخص المدعى كذبا انه نبي الله عيسى وصلب أعوانه الذين صدقوه داخلتني شفقة شديدة على هؤلاء لانهم من أصحاب المهدى عليه السلام الاقدمين فاستغفرت الله لهم فانكشف لي حالهم انكشافا روحياً فرأيتهم بعيني في طبقات جهنم وابن بقاري فى الطبقة الاخيرة منها وقد شفعت فيهم فجاء النبي صلى الله عليه وسلم والمهدى عليه السلام فقالا لي انهم ماتوا وهم كفار ولا شفاعة فيمن يكفر بالرحمن اه ملخصا

على انا نستدرك هنا تفصيل شيء من الشعوذة التي أثرت على عقول أولئك الاغبياء فنقول ان هذا الرجل كان يدعو الاشجار فتسعى اليه واذا سألوه المطر فى غير أوانه جادت السماء بمطر كأفواه القرب ولكن لا تجاوز

دائرة جلوسه وانتفخت جثته مرة فملأت غرفة كان فيها وخرجت من نوافذها وأراهم مرة اشباحاً في الفضاء لم يشكوا في انها ملائكة السماء نزلوا لخدمته وموازرته وبالجملة فان هذا الرجل كان بارعاً في الشعوذة متضلعاً من علم السيمياء بكيفية لايدرك كنهها أولئك الاغبياء

ذكر فتح قندر بالحبشة

لما استقر حمدان ابو عنجة في القلابات سار الى (قندر) عاصمة مملكة الاحباش القديمة في ألفى فارس وألفي مسلح ببنادق رامنجتون فالتقى بنحو عشرة آلاف فارس من الاحباش في ضواحى المدينة ورفعت الحرب اوزارها بضع ساعات ثم انجلى القتال عن هزيمة الاحباش وتمزيق جيشهم شذرمذر وسقط منهم ستة آلاف قتيل في ساحة النزال

ودخل ابو عنجة المدينة ونهبها جنوده وغنم منها شيئاً كثيرا من الذهب والفضة وعددا ينيف على العشرة آلاف رأس من الخيول والبغال ونحو ثلاثة آلاف نسمة من النساء والغلمان بيعوا أرقاء والنساء بينهن فتيات في منتهى الحسن والجمال ألوانهن تكاد تضارع ألوان المصريات خلافا لما عرف من ألوان الاحباش الذين كانوا يجلبون فيما مضى من الازمنة الي مصر والسودان

ثم دخل الكنيسة وهشم مافيها من التماثيل وقتل القسس واحتمل ما فيها من الآنية ذات القيمة واضرم النار فى المدينة كلها وقفل راجعا الي القلابات

وأرسل للتعايشى بعدد عظيم من الغلمان والفتيات ونحو الف رأس من البغال وخمسين حمارا وقسم بقية الغنائم على رجاله بعد ان أخذ ما اشتهاه منها

وأرسل مقداراً عظيماً أيضاً من التبر والفضة الى يعقوب اخي التعايشي

وبذل أبو عنجة الامان لتجار الاحباش وعاهدهم على ان لا يأخذ منهم غير خمس سلعهم فهرعوا الى القلابات بتجارة البن والعسل والسمن والقمح وغيرها من محصولات بلاد الحبشة فكان يتحصل من هذه الضريبة ما يقرب من نفقات أبي عنجة وحاميته

وفاة ابي عنجة وولاية الزاكي طمل

في رجب سنة ١٣٠٦ توفى حمدان أبو عنجة على أثر تناوله مسهلاً ودفن بالقلابات وتبادل الناس اشاعة ان احدي محظياته واحبهن اليه دست له السم في ذلك المسهل فاستدعاها التعايشي اليه وكانت ذات جمال باهر فدهش لدى وقوع بصره عليها وتلعثم لسانه عن استنطاقها عن الجناية التي اتهمت بها فامر بادخالها الى منزله ولم يجسر بعد على سؤالها عن شيء كيلا يسوءها سماعه ولم يكتف بذلك بل حظر على الناس الكلام في هذا الصدد

ولما اتصل بالتعايشي نبأ وفاة أبي عنجة جزع جزعاً شديداً وظهرت عليه علامات الحزن والكآبة فانتدب قاضي الاسلام أحمد علي ومعه أربعة قضاة ليسافروا الى القلابات ويحملوا الاوامر بتولية الزاكي طمل بدل حمدان أبي عنجة

والزاكي طمل هذا تعايشي أحد أبويه من عبيد (البنضلة) وكان خادما في إحدى شركات النخاسة في النيل الابيض وكان جباراً قاسياً ظالماً سفاكا للدماء وسيأتي ذكر خبر قتله

واقعة القلابات وقتل النجاشي يوحنا

ما فتئ النجاشي يوحنا منذ واقعة (قندر) يتأهب لاخذ الثار وجلاء

المار وجواسيس التعايشي يرفعون اليه في كل يوم أخبار تأهب النجاشي للغارة على القلابات فلذا صار يوالى ارسال الامداد وأمر بتحصين القلابات بزريبة من الشوك حصينة لا يمكن تسورها تبلغ مساحتها عشرة آلاف متر تقريبا

وأعلن النجاشي قومه انه زاحف الى القلابات في وقت عينه قبل أوان الزحف بالفعل ببضعة شهور فعلم التعايشي بالامر وقبل حلول الاجل هلك حمدان أبو عنجة فارسل التعايشي أحمد على القاضى ومعه أربعة من القضاة حاملين أوامر تولية الزاكى طمل وقد أسر اليهم ان يراقبوا الحركات الحربية حيث اقترب ميعاد زحف الاحباش على القلابات

ولما وصل أولئك القضاة الى القلابات تلقاهم الزاكي طمل بالاكرام واغدق عليهم العطاء الوافر من أصناف الرقيق والنقود

وفي شهر شعبان سنة ١٣٠٦ هجرية هجم النجاشي يوحنا على (القلابات) في مائتى الف مقاتل تقريبا جلهم من الفرسان واحاطوا بالقلابات وضربوا خيامهم حولها وجلس النجاشي امام خيمته يحيط به خدمه وحشمه ووزاؤه وهجمت جيوش الحبشة على القلابات هجمة الاسود على فرائسها واضرموا النار في الزريبة فتقهقر الدراويش الى الجنوب واستولى الاحباش على نسائهم وأولادهم ونهبوا دورهم

وبينما كان الاحباش مشتغلين بالنهب وصل الى الدراويش مدد من جهة الشمال تحت قيادة فرج الله باشا السودانى الذي كان قومندان نقطة أم درمان الذى جعله المهدى قائدا من قواده بعد ان سلم له وقد تقدم ذكر ذلك

وكان هذا المدد بضعة آلاف من الجهادية المسلحين بالاسلحة النارية

وهم من جنود الحكومة القدماء فتقدم فرج الله باشا بجنوده وأطلق النار على الاحباش فاصيب النجاشي يوحنا برصاصة وهو جالس امام خيمته فقضت على حياته في الحال وانتشر خبر موته في عسكره فولوا منهزمين وساقوا السبي امامهم فتأثرهم الزاكي طمل حتي ارخى الليل سدوله فالقوا عصا التسيار التماسا للراحة فداهمهم الزاكي في الغلس على غرة ووضع السيف فى رقابهم فانتبهوا من نومهم مذعورين وقتل منهم خلق كثير وفر الباقون واستخلص السبي من أيديهم وأرشدهم أحد الرواد الى تابوت وضعت فيه جثة النجاشي ففتحوه وحزوا رأسه وقبضوا على سائر اسلابه ومن بينها تاج مرصع بالاحجار الكريمة وخاتمه وملابسه وعاد الزاكي الي القلابات مسروراً وغادر أحمد على ومن معه من القضاة (القلابات) يحملون بشرى الانتصار الي التعايشي ومعهم رأس النجاشي وسائر الاسلاب

أما سرور التعايشي بهذا الانتصار فانه مما يعجز القلم عن وصفه حيث مكث أربعين يوما يذبح البدن ويدعو الناس الى تناول الطعام على قصعته المعلومة ولا حديث له غير هذا الانتصار وقد سمعته مرة يقول لمن حوله هل فى الدنيا دولة تضارع الحبشة فيقولون كلاّ فيقول ان فتح مصر لايكلفنا ما تكلفناه فى الانتصار على الاحباش فيجيبونه بان حرب أوروبا برمتها أسهل من حرب الاحباش ثم أخذ يقول ان النبي صلي الله عليه وسلم أخبره بهذا الانتصار قبل وقوعه ببضع سنوات ثم قال ان المهدى عليه السلام أخبره بان ترك الحبشة الذي أشير اليه فى الحديث الشريف مغنيٌّ بزمن الخليفة عبد الله التعايشي

ولما نصبت رأس النجاشي يوحنا فى السوق ووضع تاجه وسائر اسلابه

فى مقصورة المسجد هرع الناس لرؤيتها وهم يشكون فى صحة هـذا النبا ويقولون ان هذه الاسلاب قد سرقها بعض الجواسيس من معسكر النجاشى وأوصلوها الي التعايشي

هذا وقد كنت أنا وسائر الذين يترقبون الخلاص من نير المهدوية نود من صميم افئدتنا انتصار الاحباش وفوزهم على الدراويش في القلابات عساهم يتقدمون منها الاستيلاء على بقية السودان ولذا جاءت أخبار هزيمتهم بعكس ما كنا نود فسبحان من يؤتى النصر من يشاء

شان خط الاستواء والمهدويين

أورد تحت هذا العنوان حوادث خط الاستواء مع المهدويين فاقول ذكرت فى أوائل الجزء الاول الاسباب التي حملت الطبيب الاثر غردون باشا على فصلي عن ولاية أقاليم خط الاستواء وبينت باسهاب المساعى السافلة التى بذلها أمين أفندى طبيب الحامية وقتئذ لنيل أمنيته من الولاية على أقاليم خط الاستواء وكيف دفع السائح (ينكر) على الوشاية بى عند غردون باشا حتى عاملني بالمعاملة القاسية التي شرحتها ثم ما كان من أمر ظهور براءتى عنده بارشاد الضابطين اللذين كشفا له حقيقية المسألة

وعلى أثر هاته الحادثة امتلأ غردون باشا غيظاً من أمين أفندي وتبدلت ثقته ومحبته فيه بوصمه بالخيانة والكراهية

ثم لما عدت مع غردون الى الخرطوم فى المرة الثانية وتحادثنا في شؤون كثيرة عن خط الاستواء علمت من حديثه انه حاقد على أمين بك حاكم خط الاستواء سيء الظن به

ولما استولى كرفساوي على أقاليم (بحر الغزال وشكا وحفرة النحاس) غزا حدود خط الاستواء وعاد دون ان يظفر بشيء منها

وفي سنة ١٣٠٥ كان بام درمان رجل اسمه عبد الله الطريفي وهو عم الحاج الزبير الذى ذكرنا فى أول خلافة التعايشي انه أرشده الى سلوك الطريق الذى سار عليه وكان عبد الله الطريفى هذا جابياً من قبل المهدوية فى إقليم القضارف فاغتال منه مالا جزيلا باتحاده مع ابن أخيه الحاج الزبير وفي سنة ١٣٠٤ أرسل التعايشى الى (القضارف) من أوقفه علي خيانة الحاج الزبير وعمه عبد الله الطريفى فقبض عليهما واستصفى ما اغتالاه من المال وزجهما فى السجن وبعد بضعة شهور أطلقهما وجعلهما تحت المراقبة النظرية فعمدا الى وسيلة يتقربان بها اليه فدخل الحاج الزبير علي التعايشي وأخبره ان عمه عبد الله الطريفى كان نخاسا فى جهات خط الاستواء وله معرفة جيدة بأخلاق وعوائد أهالى تلك البلاد وأبان له الثمرات التى تعود من فتح خط الاستواء من جلب العاج وريش النعام والارقاء من تلك الديار فعول التعايشي على انفاذ عبد الله الطريفي لفتح تلك الاقاليم

وعبد الله الطريفى هذا كان نخاسا وفى بداية ظهور دعوى المهدوية قبضت عليه الحكومة وسجنته لاتيانه أمرا من انواع الحيل وذلك انه كتب على بيض الدجاج لفظ الشهادتين وبعدهما ذكر اسم المهدى الذى عدهذا التزوير من كراماته وكان عبدالله الطريفى هذا ذادهاء وحيل ومكر سيء

ولما صمم التعايشي على انفاذ حملة لفتح خط الاستواءاستدعاني الى داره فذهبت اليه وانا فى وجل شديد من هذه الدعوة فدخلت عليه فالفيته جالساً وحده فلما وقع بصره عليّ هش وبش فقبلت يده وجلست على الارض

أمامه وقد ذهب روعي لما آنست من بشاشته فخاطبني بما يأتي.

يا ابراهيم فوزي اني عزمت على انفاذ حملة لفتح أقاليم خط الاستواء وبما انك كنت حاكماً عليها فانني أود انفاذك اليها لتكون مرشداً صادقاً ومستشاراً أميناً لقائد الحملة واني أود ان تكون راضياً بالقيام بهذه المهمة التي أعهد اليك القيام بها لانني عالم بانك صرت من أخلص المخلصين لنا.

فاجبته بأني أشكر مولاي على ثقته بي واعاهده على القيام بما عهده الي بالصدق والوفاء. فسره هذا الجواب واعطاني عشرة ريالات وتناولت معه الغداء على قصعة الضيوف وانصرفت الي منزلي مملوء الجوانح بالسرور وقد رايت انى استطيع النجاة من اسر هؤلاء البرابرة المتوحشين لدى وصولي الي خط الاستواء فقضيت ليلتي لا يزور الكرى جفني لشدة ماداخلني من السرور الذى تلاه الترح حيث استدعاني التعايشي الى مجلس حافل بالقضاة والخلفاء وارباب الشورى وبعد أن شكرني علي قبولى القيام بمهمة الدلالة لقائد حملة خط الاستواء عبد الله الطريفي قال لى انى اخشي عليك متاعب السفر واود ان تكون قريبا مني ولذا أقلتك من مأمورية مرافقة عبد الله الطريفي ولكني اكلفك بوضع رسم مشفوع بالتعليمات التي يجب العمل بها اذا وجدت بواخرنا النهر مسدوداً فوعدته باحضار الرسم في الغد وبعد خروجي علمت ان سبب تاخيري ان عبد الله الطريفي وابن اخيه الحاج الزبير وشيابي عنده حيث قالا له ان ابراهيم فوزي كان حاكما لاقاليم خط الاستواء وقد شهد وقائع فتحها مع غردون باشا وانه من أعرف الناس باخلاق وعوائد أهلها وانا نخشى من مغبة وصوله الى تلك البلاد اذ بذلك يمكنه ان يأتي أي عمل يريده من ضروب الاضرار بنا وانه اذا لم يستطع ذلك فانه يستطيع

الفرار الى ماوراء بحيرة فيكتوريا نيانزا دأثرت وشايتهما على التعايشي وعدل عن انفاذي مع تلك الحملة

هذا وقد اشتغلت ليلتي بعمل الرسم وتدوين التعليمات وفي اليوم التالى قصدت دار التعايشى فالفيته جالسا ومعه الذين كانوا معه بالامس وغيرهم من الامراء وهو يلقي التعليمات على عبد الله الطريفي قائد الحملة فقدمت له الرسم فتناوله كاتبه واوقفه على كل مافيه فالتفت الىّ وشكرني وقال انى عزمت على انفاذ الحملة ووجهتها كيت وكيت فهل عندك نصيحة فقلت نعم يا مولاى وقد مالت نفسي للانتقام من عبد الله الطريفي وابن أخيه الحاج الزبير لوشايتهما التي سدت في وجهى بابا كنت أرجو الخلاص بولوجه

فقال التعايشي هات ماعندك فقلت ان عبد الله الطريفي وسائر الذين انتدبتهم لهذه الحملة كانوا نخاسين وقد ذاق أهالى خط الاستواء من مظالمهم ماجعلهم يبغضونهم أشد البغض وهم قوم لاخلاق لهم اذ كانوا يقتلون النفس التي حرم الله قتلها الا بالحق ليكتسبوا من وراء قتلها دجاجة فلذلك ترى أهالى تلك البلاد يبغضونهم ويفرون من وجوههم كما يفر الانسان من الضوارى فاذا ذهب هؤلاء النخاسون الى تلك البلاد جاءت النتيجة بعكس رغائبك حيث يلجأ الاهلون الى حاكم خط الاستواء ليكونوا معه على الذين ذاقوا مرارة سيطرتهم فيما مضى ورزحوا تحت نيرهم زمنا والاولى عندي ان يعهد مولاي قيادة الحملة الى أحد آل بيته ويشد أزره بجيش من الجهادية ليكون قادراً على كبح جماح هؤلاء النخاسين الذين بمجرد ان تطأ اقدامهم أرض تلك الارجاء يعودون الى أعمالهم السيئة التى تاباها عدالة مولاي وماوصلت الى آخر هذه العبارة حتى بدت علامات السرور على وجه التعايشي والتفت الىّ

وبالغ في الثناء على وشكرني قائلا إن ماقلته حل في لبي كجرة مملوءة بماء الشهد وعملا بنصيحتك ـ أعين احد آل بيتي لقيادة الحملة وقد ارجأت أمر سفرها الذي كنت مزمعا انفاذه في الغـد ريثما اختار القائد الجـديد الذي لابد من امهاله اياما ياخذ في خلالها اهبته للسفر

وكان من جملة الحاضرين عبد الله الطريفي وابن أخيه الحاج الزبير فخرجا يتعثران في أذيال الفشل ووجوههما مكفهرة والله أعلم بما في قلوبهما من الغيظ والاحنة عليّ

ولدي خروجهما قابلا أحد اصدقائي المصريين وقالا له أيليق من فلان ان يأتي ما أتاه امام الخليفة فقال لهما الجزاء من جنس العمل لانكما بداتما بالوشاية عليه فنجحتما في الاضرار به وهكذا يكون جزاؤكما

وعلى أثر هذه الحادثة انتدب التعايشي احد اقاربه المسمى عمر صالح ومعه نحو الخمسمائة جهادي وجعله قائداً للحملة وجعل عبدالله الطريفي كدابل له. ويبلغ مجموع رجال الحملة نحو ستة آلاف رجل جلهم مسلحون بالاسلحة النارية

وفي اواسط سنة ١٣٠٥ غادرت الحمـلة أم درمان على اربع بواخر ولما وصلت الي اماكن السدود وجدتها متراكمة بها فتعذر عليها متابعة السير الى جهة الجنوب فمكثت بقية سنتها تعالج فتح السدود فهلك من رجالها كثير وهلك أيضا عبـدالله الطريفي مع من هلك وقوبلت الحملة من أهالى البلاد بنفور عظيم وامتنع الاهلون من تقديم الاغذية للرجال الذين انقسموا شطرين أحدهما اشتغل بتحصيل القوت بالسلب والنهب من القبائل القريبة من شاطىء النهر والآخر اشتغل بفتح السدود

هـذا وقد رايت ان اورد هنا شذرة من وصف السدود اتماماً للفائدة التي

ربما تشوف اليها القارىء فاقول

يبتدىء خط السير فى النيل الابيض من الخرطوم قبل ان يختلط مع النيل الازرق وهذا النهر هادي، وضفتاه متراميتان عن بعضهما حتى يتعذر في بعض الامكنة رؤية من بالشاطئ الشرقى الشاطئ الغربي مثلا ولو بالنظارة المعظمة وذلك من بعد بركة السنيورة فاذا غادرت بحر الغزال متجها الى الجنوب عند حدود الاقاليم الاستوائية كان الامر بعكس ذلك فتشاهد ضفتي النهر متقاربتين والماء مندفع بقوة حتى ان خريره يصم الآذان

وتربة تلك البلاد من طينة لزجة تكاد تضارع المواد الغروية الشديدة اللزوجة كالصمغ ونحوه

وينبت علي ضفتي النهر حشيش فى طول قصب السكر والناظر اليه لايشك انه قصب السكر ولكنه مملوء بشوك صغير يتطاير على من يدنو منه وتحدث منه قروح قلّ ان يبرأ من تعلق به ولشدة اندفاع ماء النهر تتقطع من الجزر قطع من الطين عليها اجزاء من هذه الحشيشة التي يطلق عليها اسم (ابو صوفه) فتتراكم عند مضيق النهر وتمنع سير السفن وطريقة ازالتها هي ان تقطع اجزاء صغيرة يدفعها التيار الى المتسع من النهر

هذا ماكان من امر حملة المهدويين واما امين باشا حاكم خط الاستواء فانه غادر (اللادوه) عاصمة الاقاليم الاستوائيه الى الجهات الجنوبية على اثر ما اصاب جنوده من الفشل منذ عامين امام (كرم الله كرقساوى) داعية المهدي فى (شكا وبحر الغزال) وقد تقدم ذكر غارته على حدود خط الاستواء

ولما وصل عمر صالح الى (اللادوه) ووجدها خالية علم ان الحامية لحقت (بالرجاف) جنوب اللادوه فتقدم نحوها وشن عليها الغارة وذبح بعض من بها من

الجنود وفر البعض فاجتمعت الحامية في مكان اسمه (اللابورية) وهاجوا الدراويش فدارت الدائرة على الحامية وقتل كثير من جنودها وفر الباقون الي (الدقليه) فاعاد الدراويش الكرة عليهم واستولوا على خطوط النار عنوة وتقهقرت الجنود ثم كرت على الدراويش وقتلت منهم خلقاً كثيرين واجلتهم عن الدقليه فغادروها منهزمين لايلوون على شيء ولحقوا بواخرهم في (اللادوه)

وفي غضون اشتغال الحامية بدفع غارة الدراويش وصل المستر ستانلي الرحالة الذى كلفته الحكومة الخديوية بسحب حامية خط الاستواء عن طريق زنجبار

ولما سمعت الجنود بامر هذا الانسحاب وعلمت ان طريقها الي جهة زنجبار مملوءة بالمخاطر والصعوبات ولادواب للحمل فى تلك الارجاء واشيع بينهم ان مسافة الطريق تبلغ مسيرة سنة تمرد السودانيون منهم على امين باشا وقبضوا عليه وسجنوه وعينوا حاكماً ضابطاً من صغار الضباط السود كما قبضوا على سائر الضابط المصريين والموظفين الملكيين وزجوهم فى السجن

ثم نمى الى أولئك الجنود المتمردين ان الدراويش متقدمون نحوهم فهرعوا الى لقائهم في جهات جبال (الدقليه) فقام ضابط سوداني يدعي سليم مطر وهجم علي السجن واطلق امين باشا وساروا الي جهة قريبة من بحيرة فيكتوريا نيانزا وقابلوا المستر ستانلي هناك فعهد المستر ستانلى الي سليم مطر تسكين ثائرى الحامية واستمالتهم لمرافقته فتوجه الى (الدقليه) وحاول اقناع الجنود بوجوب امتثال أمر الخديو الذى يحمله ستانلي فلم يفلح ورموه بالخيانة وكادوا يبطشون به وظل المستر ستانلى ينتظر عودته نحو شهرين ثم اجتاز النهر وابتدأ مسيره الى زنجبار

ثم لحقته في الطريق كتب من الضابط سليم اغا مطر يخبره فيها بحبوط مسعاه فتابع المستر ستانلي سيره حتي وصل زنجبار بعد مسيرة تسعة شهور هلك فيها اكثر من نصف الذين رافقوه من متاعب السفر حيث كانوا يسيرون على الاقدام ولولا سوء تصرف امين باشا وذبحه الافيال الهندية والثيران المروضة لكانت رحلة ستانلي الي زنجبار من ايسر الاسفار اذ الذين رافقوه لايبلغون ألفي نسمة والثيران المروضة التي ذبحها تقرب من ثلاثة آلاف راس عدا بضعة افيال

وعلى أثر ذلك صفا الجو للمهديين في خط الاستواء وانطلقت ايديهم فيه يجلبون منه العاج والريش وسائر محصولاته ولله الامر من قبل ومن بعد

ذكر عزل محمد الخير من بربر وموته

ذكرنا ماكان من امر محمد الخير وقيامه بدعوة المهدي في بربر واحتلاله دنقلة بعد جلاء الحملة الانكليزية عنها

وفي اوائل سنة ١٣٠٤ حين استتب السلطان للتعايشي على البلاد ووجه اهتمامه الي عزل الامراء الذين ولاهم المهدي واستبدالهم بذوي قرابته اوعز يعقوب اخو التعايشي الي الحاج على سعد امير الجعليين الذين يسكنون القري التي بين بربر وام درمان ان يكثر من الشكوى الى التعايشي ويتذمر من أعمال محمد الخير وقبح سيرته فيهم ويرميه بكل منكر وفظيعة وكان محمد الخير قد احتكر وظائف الجباية والقضاء لاقاربه واتباعه ووعد يعقوب الحاج على سعد بالولاية بدل محمد الخير فاغتر بوعده واسترسل في الطعن على محمد الخير

ونسب له أموراً هو براء منها وتغالى فى تقبيح سيرته وتشديد النكير عليه فارسل التعايشي يستدعي محمد الخير الي أم درمان فقدم عليه وعند ذلك عقد التعايشى مجلسا عاما جمع فيه بين محمد الخير والحاج على سعد فاسمع هذا الأخير محمد الخير مطاعنه فيه فبكى وانتحب ورفع يديه الي السماء قائلا اللهم اني أشهدك انى برىء من هذا كله وكانت هذه المطاعن مما يتجافي القلم عن ذكره ومن جملتها رمي محمد الخير بارتكابه الزنا وقد ذكرنا انه كتب للمهدي على أثر فتح بربر يقبح له استباحة اعراض المصريين بضروب السبي التى سار عليها ملتمسا منه الكف عن ذلك فاجاب التماسه وهذه الحسنة ادل دليل على أن الحاج على سعد كاذب في مطاعنه على محمد الخير لانه لو كان فاسقا كما ادعى لما رغب عن سنة السبي السيئة ولما رأي وجوب الكف عن هتك اعراض المصريات فى بربر

على أن هذه الاذكايب مدبرة بين التعايشى واخيه يعقوب يقصدان بها ابعاد محمد الخير عن بربر ليخلفه فى وظيفته شخص بقارى ولما كان محمد الخير له شهرة بين اهالى السودان رأوا أنه لايحسن الاقدام على عزله بدون اسناد فظائع اليه مثل التى فاه بها الحاج على سعد

وفي ذلك اليوم أصدر التعايشي أمره بعزل محمد الخير وتولية عثمان الدكيم بدله فسار الى بربر في خمسمائة فارس ونهب القري التي فى طريقه واتلف الزرع قبل ان يحصد وكان هذا العمل من مقدمات القحط الذى ضرب اطنابه فى السودان وستري تفصيله فيما سيأتي

أما عثمان الدكيم هذا فهو شقيق يونس الدكيم واعماله واخبار جهالته تفوق الذي ذكرناه عن شقيقه

هذا وقد بقى محمد الخير فى أم درمان بضعة شهور ثم سجن بتهمة انه

فاه بكلام يمس شرف التعايشي ثم أطلق والحق بدنقلة كأحد صغار القواد وتوفي بها في سنة ١٣٠٧

وحدث أناس من الذين حضروا وفاته انه لما احتضر جزع وقال انني كنت اظن أن دعوة المهدية لله ورسوله فدعوت الناس اليها وأما الآن فقد علمت انها دعوة الشيطان اراد بالاسلام والمسلمين شرا بظهورها وان الله تعالى سيؤاخذني على ماجنته يداي ان لم يرحمني ويعف عن سيآتي ثم نطق بالشهادتين وفاضت نفسه

النور ابراهيم الجريفاوي وتجار المصريين في بربر

النور ابراهيم الجريفاوى دكروري استوطن ابوه أوجده قرية (الجريف) التي تبعد عن الخرطوم جهة النيل الازرق ببضعة اميال وكان مشتغلا بصناعة اللبن وحرقه وبيعه لسكان الخرطوم لتشييد المنازل

وقد ذكرنا انه اغتال قدراً من المال دفعته له الحكومة ليورد لها به الغلال فسرّب المال الي جيبه وكان اذ ذاك من أعضاء مجلس السودان حائزا للرتبة الرابعة ثم لحق بدعاة المهدى

ولما عزل الخليفه التعايشي محمد الخير من بربرولي النور الجريفاوى هذا امانة بيت مالها وكان النور هذا مشهوراً لدى سكان الخرطوم ابان اشتغاله بصناعة اللبن بالورع والتدين ودماثة الاخلاق وحسن المعاملة مع الحقير والعظيم والصغير والكبير

ولما دخل في سلك موظفي المهدية انسلخ عن هذه الصفات وانقلبت كلها الى ضدها وصرت لاترى منه غير رجل ظالم غاشم خرب الذمة قد نبذ

الورع والتقوى وراء ظهره شرس الاخلاق سيء المعاملة لايقول الا سوأ والويل ثم الويل لمن كانت له حاجـة عنده وألف ويل له ان كان مصريا فانه لايسمع منه غير الشتائم المؤلمة ولا يرى منه الا سائر ضروب الاهانة وحاجته لاتقضي ولو كانت على طرف الثمام وبالجملة انه قد صفا له الجو حتي خلناه شخصا غير ذلك الذى كان يبيع اللبن ولاغرو فان الظلم كمين في النفوس تظهره القوة وتخفيه الضعف

وفى إبان اسناد امانة بيت مال بربر اليه كان يفد اليها ألوف من التجار المصريين من أهالى مديرية اصوان ولم يكن غرضهم الحقيقى الاتجار بل كانوا ميالين الى دعوة المهدية وانما تذرعوا بالتجارة لقضاء مآربهم من المبايعة وحمل تعاليم المهدية الى بلادهم ونقل اخبار الحكومة للتعايشي فكتب النور الى التعايشي يقول له ان هؤلاء التجار رواد للحكومـة الخديوية وهم يتسترون بالتجارة وعندهم من المال مايجب ان يكون حقا لبيت المال فكتب التعايشي الى النور يامره بمصادرة أموال اولئك التجار مع انه لايجهل انهم معه على الحكومة وليسوا مع الحكومة عليه ولكن طمعه فى أموالهم ألجأه الى سلبها

وعلى اثر ذلك وثب النور الجريفاوى على تجار المصريين وقبض على بضعة آلاف منهم وعذبهم ومزق اجسامهم بالسياط كي يدلوه على أموالهم التى بلغت قـدراً طائلا ثم اطلقهم وهم لايصدقون بالنجاة بعد أن وردوا موارد الموت فعادوا الى بلادهم بقلوب مملوءة ببغض المهديين وحب الفرار من دعوتهم

السودان الشرقي

بعد أن دارت الدائرة على عثمان دقنه فى (كوفيت) وفر من وجه الراس

الولا عاد الى كسله ثم استخلف عليها ابن أخيه وغادرها الي (طوكر)

ولم تمض سنة حتى ثقلت وطأة عثمان دقنه على الاهلين فارتفعت أصواتهم بالتذمر من مظالمه الفادحة التي أحسوا بثقل وطأتها عليهم فهرعوا الى الخليفة يشكون مالاقوا فلم يجدوا منه غير التسويف والمطل والاتهام بالانحراف عن جادة الصراط المستقيم فثاروا على عثمان دقنه عدة ثورات

وفي أواخر سنة ١٣٠٣ كتب التعايشي الى عثمان دقنه يستقدمه وكانت أول مرة استقدمه فيها بعد ان قبض على زمام الملك فشخص من (طوكر) الى بربر ومنها الى أم درمان فاستقبله التعايشي بصنوف الاكرام وبعد انقضاء أيام عيد الاضحى أعطاه خمسة آلاف مقاتل من البقارة فسار بهم الي كسله عن طريق (القضارف) ثم سير خلفه الحاج محمد أبا قرجة في عشرة آلاف مقاتل وسلمه أمرا بانه امير شرق السودان بدل عثمان دقنه الذي عزل من الامارة وجعل كواحد من القواد فسار أبو قرجة على طريق القضارف أيضاً قاصداً كسله ولدى وصوله اليها أعلن عزل عثمان دقنه وولايته بدله فسكنت الاضطرابات وأمنت السبل وفتح طريق الاتجار بين مصوع وكسله . وبعد بضعة شهور أصدر التعايشي أمرا الى أبى قرجة بمغادرة كسله الى (طوكر) واستخلاف حامد على أحد أقارب التعايشي على كسله فسار أبو قرجه الى (طوكر) وعسكر فيها وجرت بينه وبين الحكومة في سواكن مخابرات سلمية أوجبت ارتياب التعايشي فى الثقة به فعزله عن الامارة وأعادها الى عثمان دقنه

وفي غضون ولاية أبي قرجة تقدمت جيوش الدراويش الى (هندوب) وضيقت الحصار على سواكن فخرجت حاميتها عليهم وفرقت جموعهم فعادوا الى (طوكر) وعسكروا فيها

أما أبو قرجة فقد ولاه التعايشي على بربر فمكث بها ثلاثة شهور ثم عزله وولى بدله الزاكى عثمان البقاري ونفي أبو قرجة الى خط الاستواء وسنعود الى ذكر هزيمة عثمان دقنه من (طوكر) والقضاء على نفوذه فى السودان الشرقي

ظهور المهدي ابو جميزة في دارفور

لما رسخت قدم عثمان آدم في دارفور أثخن فى القبائل نهبا وسلباً وخرب المدن وحمل الاهلين نيراً ثقيلا حتي باتوا ولاهمّ لهم غير الخلاص من ذلك النير فقام بين ظهرانيهم رجل من المشايخ اسمه محمد كان يجلس تحت شجرة من الجميز حتى كنى باسم (أبى جميزه) وادعى انه المهدي المنتظر وكان مشعوذاً ذا قدرة على عمل خيالات يخالها الناظر حقائق فاتبعه أهل دارفور كلهم وترامت أخباره الى الممالك المجاورة لها فنسل اليه كثير من سكانها ولحقوا به واجتمع حوله جيش كثيف عسكر به في الجهات الغربية وكتب الي عثمان آدم يدعوه الي التسليم فارسل له جيشا تحت قيادة (الختيم موسى) التعايشى فهزمه شر هزيمة وبعد اللتيا والتي وجد القائد الي النجاة سبيلا

فارسل عثمان آدم الي التعايشي يعلمه بامر أبى جميزة ويطلب منه الامداد فارتاع التعايشى لهذا النبأ وأرسل الامداد الى عثمان آدم الذى أرسل لحرب أبى جميزة جيشاً آخر تحت قيادة (محمد بشاره) التعايشي فلم يكن نصيبه غير نصيب القائد الختيم موسى ثم توالت الحروب بين أبى جميزه وعثمان آدم فكانت الدائرة تدور على دراويش عثمان في جميعها وخضعت بلاد دارفور الغربية كلها لابى جميزة وشمرت معه على حرب عثمان آدم الذي ضاقت الدنيا

في وجهه كما ضاقت في وجه التعايشي الذي أصدر أمرا الي عثمان آدم بالتقهقر من دارفور الى كردفان

وبينما كان عثمان آدم يتأهب للتقهقر زحف عليه أبو جميزة في جيش عرمرم ولكنه في غضون سيره أصيب بمرض الجدري ثم توفي بعد أيام يسيرة فتابع أصحابه مسيرهم قاصدين (الفاشر) محل اقامة عثمان آدم الذي قسم جيشه قسمين جعل أحدهما كمينا وتربص هو مع الآخر فتقدم جيش أبو جميزة حتى اجتازوا موقع الكمين والتقوا مع عثمان آدم فخرج عليهم الكمين من الخلف وصاروا بين نارين فسقط منهم عدد كثير وتمسك الباقون باذيال الفرار فأثرهم عثمان آدم وقتل منهم خلقا كثيرين وما زال عثمان آدم متأثرا للمنهزمين حتي اجتازوا حدود دارفور ولحقوا بمملكة (أبي ريشه) وحملت الى التعايشي رؤس جماعة من وزراء أبي جميزة وهجر أهالى دارفور ديارهم الى ممالك الغرب كي يعتصموا بها من انتقام الدراويش فتخربت البلاد وصارت بلقعا ليس فيها ساكن ولا مساكن وانقطعت جباية الخراج وأصبح عثمان آدم وجيشه في حاجة عظيمة الى النفقات فوجه اهتمامه الي الغزو في الجبال التى حوالي دارفور ليتحصل منها على قوته وقوة حاميته

شأن التعايشي وقبيلة التعايشة

لما تغلب التعايشي على مناظريه وسلب من أقارب المهدي القوة التى كانت في ايديهم استبد هو بالملك وانفرد بالسلطان على كل بلاد السودان وأضعف نفوذ الخليفتين على حلو ومحمد شريف حتى صارا لا يعبأ بهما خصوصا محمد شريف فقد وصلت حالته الى فقدان الضروري من القوت وانحط شأن

أقارب المهدي حتي صاروا فى حالة يرثى لها ولا سيما أولاد المهدى فانهم صاروا يقاسون من شظف العيش ومرارة الفقر مايعجز القلم عن وصفه

وفى أواسط سنة ١٣٠٥ اتجهت عزيمة التعايشي الى استنفار قبيلة التعايشة من ديارها في جنوب دارفور ليشد بها عضده ويكون ذا عصبة امام الاقوام الخاضعة لجبروته وكان قبل ذلك يتألف قبائل البقارة لينال منهم مزايا العصبية والموازرة اذ لم يكن معه من أقاربه التعايشة الانحو ثلاثين رجلا احتكر لهم الوظائف وولاهم الاعمال الخطيرة واستوزر أخاه لابيه يعقوب وأشركه في سلطانه حتي صار ذا نفوذ كبير وأصبح يضارع أخاه التعايشي في كل خواص الملك والسلطان وصار يعقوب هذا القائد العام للجيش والمدبر المطلق لامور مملكة أخيه

وكتب التعايشي الى عثمان آدم فى دارفور يأمره باستنفار قبيلة التعايشة كما كتب الى رؤساء هذه القبيلة يخبرها بانه صار ملكا عظيما وسلطانا فخما على جميع الاقطار السودانية وانه فى حاجة شديدة لمعاضدتهم فانقسمت قبيلة التعايشة الى قسمين.أحدهما رأي وجوب المبادرة لتلبية نداء التعايشى والآخر أظهر بغضه قائلا لايرجى خير من سفل نال ملكا من طريق المصادفة صعلوك كان متسولا بين ظهرانينا بالامس واليوم نذهب لنتزل على حكمه ونضع أنفسنا بين يدى جبروته ثم هجر هؤلاء ديارهم ونزحوا الى مملكة (وداى) مفضلين النأى عن الديار على اللحاق بالتعايشى وانصاع القسم الآخر لمطالب التعايشى ونزحوا من ديارهم الى دارفور ومنها الى أم درمان وكانوا زهاء مائة ألف نسمة أو يزيدون

وقد أنفق التعايشى على استقدامهم أموالا طائلة حتي بلغوا أم درمان فتلقاهم

بالحفاوة والاكرام ووزع عليهم الاقوات والملابس

وكان بين هؤلاء القادمين (الغزالي احمد خوف) زعيم التعايشي وكان حائزا للرتبة الثالثة من الحكومة وكان التعايشي يمده بالحيل والهيلمان لدى وصوله أم درمان فلم يوف له بوعده وسنعود الى ذكر بقية أخبار عثمان آدم وموته

هذا وقد كانت قبيلة التعايشة تحب السكر والتمر وطريقة تناولهم السكر أن يكسروه قطعاً صغيرة ويأكلوه كما يأكلون الخبز

ومن النكات المضحكة ما نورده عن أحد المصريين الذين يشتغلون فى معامل الذخيرة للتعايشي وذلك ان الزاكي عثمان الذي كان أمير بربر كلفه بتعبئة خرطوش لغدارة صغيرة فأتم المصري العمل وذهب الى منزل الزاكي ليدفع له الخرطوش فتلقاه بالاكرام وقدم له طبقاً كبيراً مملوأ بقطع السكر الصغيرة وجاءه باناء فيه نحو خمسة أرطال من اللبن الحليب فأخذا يأكلان من السكر ويشربان من اللبن ثم قال صاحبنا المصري لمضيفه لماذا لا تضع السكر فى اللبن فقال وهل يوضع السكر في اللبن فقال نعم وتناول المصري السكر وألقاه فى اناء اللبن فصاح به مضيفه فقد اتلفت السكر واللبن معاً فقال له المصرى لا تعجل فسكت الزاكى ثم هز كتفيه ورأسه علامة على اليأس فقدم له المصرى اناء اللبن وقال له ذقه فقال له والغضب باد على وجهه لا اذوقه حتى تذوقه قبلي فشرب المصري وناوله الاناء فشرب منه ثم وضع الاناء من يده قائلا (قاتلكم الله يامعشر المصريين انكم خبيرون باتقان كل شيء) أما نحن فلا نعرف ان مزج السكر باللبن يصيره حسنا مثل هذا ولم نتعود منذ خلقنا الله إذابة السكر في اللبن ثم سأل المصري وهل يكون السكر لذيذا كهذا اذا القيناه فى الماء فقال نعم فاظهر الارتياب ثم دخل الي بيته وعاد منه بسكر وقال

له ألقه في الماء لتذوق طعمه فالقاه المصرى في الماء فأمره ان يشرب منه قبله كما شرب في المرة الاولى ثم عاد فشرب منه واخذ في ابداء الاستغراب فساله المصرى عن سبب امتناعه عن الشرب قبله فقال انني كنت اظن ان طرح السكر في اللبن ربما تولد منه ضرر واخذ المصرى يصف له الاطعمة التي يصلحها السكر ثم انصرف عنه

ولقد اطلعت على منشور كتبه التعايشي الى قبيلة التعايشة يحبب اليها القدوم عليه وفيه انني ملكت بلاداً فيها جبال من السكر وشجر التمر وان أهالي هذه البلاد الذين هم (الجلابة) صاروا عبيدي فسارعوا بالقدوم الىّ لتاخذوا النصيب الاوفر من جبال السكر وشجر التمر وتقضوا وطركم من نساء الجلابة وتركبوا الخيول والحمير والهجن

ولما وصلوا الي كردفان كانوا يسالون من لاقاهم عن جبال السكر وشجر التمر ومدوا ايديهم ونهبوا سائر قرى كردفان وقتلوا مئات من الاهالي الذين رفعوا ظلامتهم الى التعايشي فكان جوابه لهم لاتتأثروا من فعل المهاجرين لانهم اخوانكم وشاهدوا ماحل بكم من الله تعالى ولا تنسبوه الي هؤلاء المهاجرين اذ الفاعل الحقيقي هو الله

ذكر ضربخانة التعايشي

اسلفنا ذكر ضربخانة المهدى وما ضرب فيها من المسكوكات من نوع الجنيه المصرى والريال الذي نقش عليه (في الهجرة) وفي الطغراء (بامر المهدي)

ولما عزل التعايشي أحمد سليمان أمين بيت المال وخلفه ابراهيم عدلان كانت مسألة الضربخانة من الامور التي احتج بها التعايشي على سوء ادارة

أحمد سليمان وشدد النكير عليه مدعيا ان اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينقش في النقود ولا انشئت دار للمسكوكات على عهده صلي الله عليه وسلم فامر بجمع النقود التي ضربت في عهد المهدي فجمعت وانشأ ضربخانة لسك النقود من نوع الريال وجعل نصفه من الفضة والآخر من النحاس وضرب على أحد وجهيه (ضرب في أم درمان) وعلى الآخر طغرا مكتوب فيها (مقبول) فسمى الريال المقبول وكان في كل سنة يأمر بتخفيض الجزء الفضي حتى صار الريال كله من النحاس الا الطلاء الذي يغيرون به حمرة النحاس

ولقد هبطت قيمة هذا الريال الى حد أن صار لا يساوي اكثر من ملليم اما المسكوكات الذهبية فقد منع اعادة ضربها كل ذلك ليحتكر لنفسه الذهب والفضة ولا يدع للناس ما يتعاملون به غير النحاس

على ان التعايشي لم يكن يجهل ان ضرب المسكوكات وانشاء الضربخانة كان بامر المهدي الذي ذكرنا ان أحمد سليمان كان لا يضع خيطا في خياط الا بعد صدور أمره له بوضعه والحاصل ان التعايشي لم يترك شيئاً وضعه المهدي الا نقضه

ذكر انشاء دار للذخيرة والبارود

لما سقطت الخرطوم جمع المهدويون رجالا من المصريين كانوا عمالا في الجبخانات وجعلوا لهم رواتب طفيفة ليشتغلوا بتعبئة الخرطوش ووضع المواد المفرقعة فيه ثم أدرك التعايشي ان البارود والذخيرة التي عنده لا بد من نفادها فاخذ يسعى الى التوصل الى طريقة استخراج البارود فعهد الى يوناني اسمه (ديمتري بردغاجي) استخراج البارود وانشأ داراً لهذا العمل

جماعا تحت نظر أخيه يعقوب وانفق أموالا طائلة لاتمام هذا العمل ورتب لعماله رواتب كبيرة فنجحت تجارب بردغاجي واستخرج شيأ من صنف البارود وعرضه على التعايشي الذى سر بهذا النجاح وسجد شكرا لله على ما منحه من النعم ومكث بردغاجي مشتغلا باستخراج البارود بضع سنوات وبينما كان ذات يوم يباشر عمله اذ التهب جزؤ من البارود وتفرقع فامات بردغاجي وعماله واحرق الدار ونسف جدرانها فاستاء التعايشي وأظهر الحزن وركب الى محل الحادثة وأمر بجمع الاشلاء ودفنها

وكان التعايشي يتغالى في استرضاء بردغاجي ولدى شروعه في عمل البارود منحه خمسمائة ريال وحظية من حظياته وجواري وغلمانا للخدمة وجعل راتبه الشهرى مائة ريال عدا رواتب عماله

أما المواد التى يستخرج البارود منها فانها فحم شجر الصفصاف وملح البارود وكبريت المامود وكان يستخرج في كل شهر عشرة قناطير من البارود

وانشأ دار الاستخراج ملح البارود وكلف أحد الصيادلة المصريين بالعمل فيها

وكذلك انشئت دار لعمل المادة المفرقعة التى توضع في الكبسون المسماة (عجينة الكبسون) واسند العمل فيها الى (ليتن بك) مدير بحر الغزال وحسن افندى زكى أحد أطباء الحامية في الخرطوم

وانشئت أيضا دار لعمل الخرطوش وأطلق على الجميع اسم (الورش الحربية) وكان المشرف عليها كلها يعقوب اخو التعايشي

وشيدت دار لحفظ الاسلحة وسميت (بيت الامانة) وكانت رواتب رؤساء

العمل مائة ريال شهريا من ريالات التعايشي لكل واحد منهم واقل راتب لاصغر عامل عشرة ريالات

ذكر موت لبتن بك مدير بحر الغزال

ذكرنا أخبار لبتن بك وسجنه قبل سقوط الخرطوم

ولما سقطت الخرطوم أمر المهدي باطلاقه فخرج من السجن في حالة يرثى لها من الفقر والحاجة ولما اشتدت به الحال قدم نفسه للخليفة التعايشي وقال له انى أعرف صناعة تجهيز عجينة الكبسون فاثني عليه وأمر له بجائزة

وفي سنة ١٣٠٥ مرض لبتن بك ولما حضرته الوفاة أوصي سلاطين باشا على بنتيه وامرأته التى أصلها سودانية تنصرت بدعوة الآباء الكاثوليك ثم تزوجت لبتن بك ورزقت منه بنتين

وبعد وفاة لبتن بك زوج سلاطين باشا امرأته بحسن أفندي زكى الذي كان يساعد زوجها في عمل عجينة الكبسون

واعتنى سلاطين باشا بامر البنتين اعتناء عظيما حتى غادر أم درمان

المقدم عمر الجعلي واستخراج الرصاص

لما نفد ما في مخازن التعايشى من الرصاص جاءه ذات يوم رجل من الجعليين اسمه المقدم عمر مشهور بالشعوذة يختلف على مدينة الخرطوم ويحتال على ضعفاء العقول ويطلب منهم المال لشراء الادوات كي يحول النحاس والرصاص ذهبا

وقد عرفه الناس فصاروا لا ينخدعون باكاذيبه فقال للتعايشى انى أقدر

على استخراج الرصاص من احجار ام درمان فاعطاه التعايشي عشرة من العمال وامر باعداد مايلزمه من آلات النفخ وعدد العمل ومنحه قدرا من المال فاخذ يوصي اقاربه بشراء الرصاص فاذا اجتمع لديه بضع أقات وضعها في التنور ووضع حولها الحجارة ثم أضرم النار حتي يذوب الرصاص وتحترق الحجارة فحينئذ يستدعي يعقوب اخا التعايشي لمشاهدة نتيجة العمل فياتي يعقوب ويري الرصاص مذابا وسط الحجارة فيعتقد انه تحلل من الاحجار فيبلغ اخاه التعايشي فيامر للمقدم عمر بالعطايا من الجواري والمال

وفى ذات يوم صعد التعايشي المنبر وتكوف الناس حوله فقال لهم ان النبي صلى الله عليه وسلم اخبره بان المقدم عمر الجعلي يستخرج له من الحجارة رصاصاً يكفيه لفتح الدنيا كلها وان الخضر عليه السلام اخبره بان وجود الرصاص في جوف الحجارة من كرامات المهدى عليه السلام

ولكن لم تمض بضعة شهور حتى فقد المقدم عمر الرصاص الذى كان يشعوذ به عليهم وانقطع عن العمل مدعيا ان ادوات النفخ قد ضعفت فصنعوا له غيرها فلم يات بشيء ثم وكل التعايشي مراقبته الى أثنين من جواسيسه فعلما انه كان يبتاع الرصاص من الخارج لان الناس الذين كانوا يبيعونه له كانوا يلتقطونه من حول متاريس الخرطوم وغيرها من مواقع الحروب ثم يذيبه وسط الاحجار فاستدعى التعايشي المقدم عمر وعدد له سيآته وما ارتكبه من الغش فاجابه المقدم عمر بان ماقيل عنه من الغش ليس بصحيح ثم قال له ألست قلت ان النبي صلي الله عليه وسلم والخضر عليه السلام اخبراك بكيت وكيت مذكراله مافاه به على المنبر وزاد أن قال له إن دعوى المهدية قامت اركانها بمثل هذه الاخبار فان كذب هذا الخبر فالمهدية كلها كذب في كذب فاغتاظ

التعايشي واستفتى القضاة فافتوا كما أوعز اليهم بقطع يده ورجله من خلاف فقطعا في السوق وفى اليوم التالي توفي المقدم عمر وانقضى الامر

ذكر احراق كمال الدين عظام قتلى الخرطوم ونبش القبور

لما توفي لبتن بك واستمر حسن زكي في عمل عجينة الكبسون ونفدت المواد الكيماوية التى تستخرج منها هذه المادة اهتم التعايشى لهذا الامر فقام رجل يدعي كمال الدين من الهنود الذين ذكرنا نبأ قدومهم على المهديين وقال للتعايشي اني اقدر على استخراج عجينة الكبسون بغير احتياج الى المواد الكيماوية التي نفدت فسر التعايشي هذا القول وقال له من أي شيء تستخرجها فقال من عظام الاموات فقال له هاهى عظام كفار الخرطوم وأمر باعداد مايلزم لانجاز العمل فجمع كمال الدين عظام قتلى الخرطوم واحرقها بالنار ثم سحقها في الاهوان ووضعها في أحواض كبيرة وصب عليها الماء ثم نبش قبور قدماء أموات الخرطوم وصنع في عظامهم مثل ماصنع فى عظام القتلى ثم اقفلت الابواب على الاحواض وتركت ستة شهور فتولدت منها الديدان وتصاعدت الروائح المنتنة منها

وبعد الستة شهور جاء يعقوب شقيق التعايشي ومعه جمع من الامراء وفتحوا الابواب فراوا الديدان تولدت والروائح الكريهة تتصاعد منها فسألوا كمال الدين فقال ان تولد الديدان وتصاعد الروائح علامتا نجاح العمل فاذا أقفلت الابواب ثلاثة شهور اخرى ثم فتحت بعدها وجدت هذه الاحواض مملوءة بعجينة الكبسون التي تؤخذ مباشرة لوضعها فى الخرطوش فلم يصدقه يعقوب وعاد الى ام درمان واخبراخاه بان كمال الدين كاذب محتال فاحتدم التعايشى

غيظاً على كمال الدين ولكنه لم يعاقبه بعقوبة

وبلغت نفقات هذا العمل اكثر من اربعة آلاف ريال انفق كمال الدين جلها فى حاجاته الخصوصية عداما أخذه من الجواري والركائب

وبعد وقوف الخليفة على حيلة كمال الدين أصدر أمره له والجنود الذين قدموا معه بأخذ الاهبة للعودة الى بلادهم وأعطاهم كتبا بالدعوة للمهدية وخرج لوداعهم فقال له كمال الدين انى أريد منك أن تعطينى شيأ على سبيل التذكار فاعطاه التعايشى نعله فأخذ يقبلها ووضعها فى جيبه فطلب منه القاضي احمد على رد النعل الي صاحبها فلم يفعل حتي أعطاه اربع جوار وحمارا

ثم قال القاضي لمن حوله لو طلب منى كمال الدين كل ما أملكه من حطام الدنيا لافتديت به نعل الخليفة وقصد القاضى من هذه الاقوال أن يبلغها الحاضرون للخليفة فتزداد ثقته به وسار كمال الدين ورفقاؤه الى سواكن ومنها الى الاقطار الهندية

تخريب بلاد الجزيرة

(وحشد أهلها بام درمان)

في أواخر سنة ١٣٠٤ هجرية اصدر التعايشى أمراً عاما الى جميع سكان الجزيرة من الخرطوم الى حدود الحبشة والى حدود مديرية بربر من جهة الشمال وحدود مديرية فشوده من جهة الجنوب بالوفادة الى أم درمان وتوعد من بقى فى داره ولم يهدم منزله بيده ويأت الي أم درمان وضرب لذلك أجلا هو أواخر شهر رجب من السنة المذكورة ومن لم يصدع بالامر فى ذلك الاجل عد عاصياً محاربا للمهدوية

وما اقترب الاجل حتى خربت جميع القرى والمدن التي فى الجزيرة وقدم سكانها الي أم درمان وتركوا غلالهم وحاصلات أرضهم فى البلاد مودعة فى بطون الارض فنهم الذين ساروا فى البر حتي اجتازوا النهر الي أم درمان باجرة باهظة فرضها عليهم أصحاب الزوارق ومن سار فى السفن الشراعية أدي أجرة لاتقل عن عشرة أضعاف الاجرة الاصلية لركاب السفن الشراعية وبعد اجتماع سكان هاته البلاد فى أم درمان وهم سكان مديريات الخرطوم وسنار وفيزوغلى أنزلهم التعايشي في أم درمان في أماكن متفرقة حيث جعل سكان كل قرية أو مدينة وحدهم فهلكت ماشيتهم التى لم تجد مرعى بام درمان وانتدب التعايشي سرية من رجاله تحت قيادة (أبو أم فضالى) ليمروا على القري ويقبضوا على من تخلف عن امتثال ماأمر به التعايشي نخربت هذه السرية مابقي من القري ومد رجالها أيديهم الى الحاصلات المخبوءة تحت الارض فنهبوها ولم يبقوا على شيء منها

وكان سكان الجزيرة اكثر أهالي السودان دعة وسكونا وثروة وبسبب هذا الانتقال فقدوا ماشيتهم وثروتهم وجاء هذا العمل من اكبر اسباب تفشي المجاعة فى السودان وهي مجاعة سنتي ١٣٠٦ و١٣٠٧ اللتان أبادتا النفوس وخربتا البلاد

وبعد استقرار هذه الخلائق فى تلك المنازل استعرضها التعايشي في أم درمان مرات عديدة ثم بعد مضي بضعة شهور أذن للمزارعين بمغادرة أم درمان لمزاولة الزراعة فعادوا وقد عم الدمار بلادهم ولم يجدوا حاصلاتهم التي أودعوها فى بطن الارض فساءت حالتهم وأقاموا موسم الزراعة ولم يعودوا الي

أم درمان وسنعود الى وصف تلك المجاعة وفشت أمراض الجدرى والحميات بين أهالي الجزيرة وصارت الوفيات في كل يوم تعد بالمئات والحاصل ان أهالى الجزيرة هلك نحو نصفهم بالامراض التى تفشت فيهم وذهب الباقون الي مزارعهم بالحالة التي وصفناها

ذكر تخريب الخرطوم

ذكرنا ماكان من أمر التعايشى مع اسرى الخرطوم يوم جمعنا فى المقرن وأمرنا بمغادرة الخرطوم والسكنى بام درمان وبقي بعض الامراء ساكنين في الخرطوم ولما عزم التعايشى على تخريب مدن الجزيرة أصدر أمراً للدراويش الذين كانوا ساكنين فى الخرطوم بهدم المنازل التي يسكنونها وحمل الاخشاب لتشييد منازل بام درمان فكانوا يهدمون الدور ويأخذون الانقاض يشيدون بها منازلهم في أم درمان وهكذا تم خراب الخرطوم حتى لم يبق من المنازل غير بضعة دور حوالى (الترسانة) أبقيت لسكني عمال الترسانة وبقيت الحدائق التى على ضفة النهر عامرة يبيع بيت المال محصولاتها وتجلب منها الفاكهة والخضراوات الي أم درمان واحتكر التعايشى لنفسه حديقة سراي الحكمدارية وكان المهدي وهب أحمد شرفى احدى حدائق الخرطوم الكبيرة واختص الخليفة شريف بحديقة كنيسة الكاثوليك والحاصل ان الخرطوم صارت خرابا بلقعا ومنازلها وقصورها تلالا والدوام لله

ذكر فرار المؤلف وارجاعه الي ام درمان

في أول سنة ١٣٠٥ هجرية بعث لى صهرى عثمان فهمى باشا مائتي جنيه

انكليزي مع شخص اسمه الحاج صالح علي من قبيلة العبابدة فدفع لي منها مائة جنيه واغتال المائة الثانية فاخذت المائه جنيه ولم أطلع أحدا على أمرها

وفي غضون ذلك جاءني اعرابيان من قبيلة الكبابيش واخبراني ان محمد ماهر باشا محافظ القاهرة الآن ووكيل محافظة الحدود وقتئذ أوصاهما بمساعدتي على الفرار ووعدهما بمكافأة قدرها مائتا جنيه لدى وصولي الى الحدود المصرية وبعد ان تداولنا في كيفية الفرار قالا لي انا نسافر من أم درمان على احدى السفن الشراعية قاصدين (الترعة الخضراء) التي تبعد عن أم درمان مسيرة ثماني مراحل جهة الجنوب على النيل الابيض ثم نقصد جهة (شركيله) في الجنوب الشرقي من إقليم كردفان ثم نمتطي الجمال من هناك ونخترق اقليم كردفان من الجنوب الى الشمال حيث نكون في جنوب (صحراء بيوضه) التي نخترقها الى الشمال وينتهي سيرنا بالوصول الى حلفا

على ان اختراق الصحراء كان يستدعي مسيرة ثلاثين مرحلة بسير الهجن الحثيث عدا مسافة السير من الترعة الخضراء الى (شركيله) وجهات كردفان الشمالية وقد كانت هذه الرحلة على مافيها من الشقة كافلة لنجاتي وخلاصي من الاسر اذ المسافر فيها يأمن ان يدركه رجال التعايشي الذين لا يعرفون هذه الطريق وغاية ما يفعلونه ان يتأثروا الفارين في الطريق التي تمر على بربر والصحاري التي حولها

ولما اجمعت أمري على الفرار مع ذينك الاعرابيين اللذين تعهدا لي بأنهما لا يأخذان شيئاً من النقود قبل ان نصل الى الحدود المصرية تركت لعائلتي خمسين جنيها من المائة جنيه ودفعت نحو عشرين جنيها كنت مدينا بها لبعض التجار ولم أخبر أحدا بامر الفرار وقلت لعائلتي انى ذاهب الى جهة

قرية فى البحر الابيض لاعود منها بشيء من الذرة تقتاتون به وتزودت بشيء من خبز الذرة المجفف وأخذت قليلا من البصل وركبنا السفينة ومعي الاعرابيان وقد أوصياني بالابتعاد عنهما والتظاهر بعدم معرفتهما مادمنا فى السفينة فغادرنا أم درمان وكان الفصل شتاء وليس معي غير الوعاء الذى فيه خبز الذرة وملاءة من الانسجة الخفيفة المسماة (مرمر) ومعي ثلاثون جنيها انكليزيا وضعتها فى منطقة من الجلد تمنطقت بها تحت الملابس وبعد مسيرة أربع ليال رست بنا السفينة في ساحل الترعة الخضراء فحملت وعاء الزاد ونزلت من السفينة والماء يكاد يبلغ تراقيّ والشاطيء بعيد عنا نحو خمسمائة متر وتبعني الاعرابيان كأنهما لا يعرفان من امرى شيئاً فخرجت من الماء وقد جمد الدم فى عروق من شدة البرد فلجأنا الى غابة مظلمة تزأر فيها الاسد وتتواثب فيها النمور والذئاب وسائر الضوارى فقضينا تلك الليلة حول نار أوقدناها للاصطلاء بها واتقاء السباع لأن صاحبيّ قالالي ان السباع تفر ولا تقترب منها وقضينا مدة الليل لم يزر الكرى لنا اجفانا ولم نضطجع على الثرى

وفي الغداة سرنا نحن الثلاثة على اقدامنا نخترق الغابة متجهين الى جهة الجنوب الغربي وقضينا مدة النهار فى السير حتى أرخي الليل سدوله فسمعنا نباح الكلاب حيث وصلنا الى قرية (الترعة الخضراء) وهى قرية كبيرة سكانها زهاء خمسة آلاف نسمة ثم غادرناها وانتهينا الى اكواخ خربة فدخلت انا وواحد منهما في أحدها وذهب الآخر الي القرية كى يعود منها بالجمال فذهب بعد ما قطع غصنا من الشوك ووضعه على باب الكوخ فاضطجعت حتي كان الثلث الاخير من الليل جاء صاحبنا الذى ذهب الى القرية بجملين فامتطياهما

واردفني أحدهما خلفه وما سرنا نحو عشرين ميلاً وسط الفلاة ووجهتنا الجنوب الغربي حتي اسفر الفجر وهكذا ظللنا سائرين النهار كله حتي مضى الثلث الاول من الليل حيث بلغنا (شركيله) في حدود كردفان الجنوبية وهناك نزلنا ضيوفا على اعراب حلفاء لصاحبيّ فقدموا لنا جانبا من اللبن الحامض وخبزا من الذرة وفي الغد قلت لصاحبي هيا بنا نتابع سيرنا فقالا اننا منتظران شخصين تركناهما في أم درمان ليأتيا بأناس فارين مثلك فضقت ذرعا من هذا الكلام وأخذت في حثهما على السفر وأظهرت تخوفي من افتضاح الامر اذا عثر بنا الدراويش فلم يصغيا القولي وأقمنا في (شركيله) سبعة أيام ننتظر القادمين من أم درمان فلم يأتيا وفي صبيحة اليوم الثامن جلست أمام الكوخ فاذا انا بشخص راكب على حمار وخلفه عبد فأمعنت النظر فيه فاذا هو قبطي من كتبة جيش يعقوب أخي التعايشي فتقدمت للسلام عليه فترجل عن دابته وحياني وصافحني وعلامات الدهشة بادية على وجهه ثم ابتدرني بالكلام قائلا ان الخليفة فقدك وقد سير الركبان الى كل الجهات في طلبك فقلت له انني قصدت هذه الجهة لان لي بها صديقا قديما أرجو أن أنال من رفده درهمات ثم استحلفته على أن يكتم خبر رؤيته اياي في ذلك المكان وحلف أن لا يذكر شيأ من هذا الامر ثم انصرفت وتابع هو سيره قاصدا كردفان وعدت الى صاحبيّ فأخبرتهما بما أنبأني به القبطي وقلت لهما إما أن تسيرا بي في هذه الليلة واما أن ترجعاني الي الترعة الخضراء فقالا لا سبيل الي السير مالم يجيء صاحبانا فألححت عليهما بارجاعي الى الترعة الخضراء وقضيت ذلك النهار وفي الاصيل رضيا باعادتي الي الترعة الخضرا فركبا هجينيهما وأردفني أحدهما خلفه وابتدأنا السير من أول النهار وفي الغلس وصلنا الي ضفة النيل الابيض عند المكان الذي رست فيه

السفينة فأراد صاحباى أن يرجعا على أعقابهما فألححت عليهما بالبقاء ريثما يتبلج الصباح ولما بدأت طلائع الصباح وولت جيوش الظلام ودّعاني وعادا فى طريقهما الى (شركيله) والسباع تزمجر حولي فحملت وعاء الزاد وسرت على ضفة النهر فوقع بصرى على زورق يشبه قوارب الصيادين فدنوت منه عسانى أجد عنده أنيسا فلم أجد فقلت فى نفسى لابد لهذا القارب من صاحب يأتى اليه فمكثت نحو ساعتين ولما لم يأت احد وأدركنى يأس عظيم هون علىّ حياني التى سئمتها دخلت فى الزورق وقذفته في لجة البحر ووضعت وعاء الزاد تحت رأسي واضطجعت في الزورق الذي توسط لجة النهر وسار به التيار الي جهة الشمال وظل هكذا حتى اذا كان الاصيل أبصرت قرية على ضفة النهر الغربية فرسا الزورق عند هذه القرية فوثبت للنزول الى البر فأمسك بملابسى شخص وقال لي (ياولد الريف ياسارق) ولطمنى على وجهي عدة لطمات فأخذت أتضرع له وكنت أود أن أعطيه جنيها من الثلاثين التى معي ولكنه مد يده وسلب مني ملاءتي وعمامتي ومنطقتي ثم انصرف فدخلت القرية وسألت هل بها مصري فقيل لي ان فيها مصريا اسمه عبد الفتاح فقصدت محله فاذا هو ضابط برتبة ملازم ثان كان بحامية الخرطوم فتلقاني بالاكرام وأخبرني بان رسل الخليفة قصدت جميع الجهات فى طلبي فأخرجت بضع جنيهات وقلت له أدركني بشراء عشرة أرادب من الذرة لاضعها على ضفة النهر وأجلس بجانبها حتي اذا أدركتنى رسل الخليفة وجدتني على هذه الحال فأسرع عبد الفتاح بشراء عشرة أرادب من الذرة ووضعها على شاطىء النهر وجلست بجانبها وفى ضحوة الغد بينما كنت مضطجعا أبصرت راكبين قد أناخا هجينيهما بالقرب منى وبصرهما مصوب نحوى فعقلا جمليهما وتقدما

نحوى فوقفت لهما وصافحتهما فجلسا بين يدى بأدب ووقار فقلت لهما أأنتما قادمان
من البقعة المنورة فقالا نعم فقلت لعل خليفة المهدى عليه السلام بخير فقالا نعم بخير
وهو يقرأ عليك السلام فوقفت على قدمي اجلالا لذكر الخليفة وقد طار قلبي فزعا
من هذا الكلام ثم قالا لي ان الخليفة يدعوك للحضور عنده فقلت ولماذا لم تخبراني
بذلك قبل التحية لان أوامر الخليفة يجب انفاذها في الحال فسألاني أين عمامتك
ومنطقتك فقلت سرقهما اللصوص مني في هذا المكان فقالا وما الذي جاء بك
الي هذا المكان فقلت قصدت بعض معارفي هنا فاحسنوا علىّ بهذه الذرة
وها أنا مقيم لأجل حراستها ريثما تمر سفينة أحمله عليها واقصد اذ ذاك أم درمان فقالا
انا نريد إشخاصك معنا الى أم درمان فكيف تقابل الخليفة بلا عمامة ومنطقة
فارسلت فى طلب عبد الفتاح فاسرع بالحضور وقال للرسولين انه جاء الى هذا
المكان بقصد أن يحصل على شيء من الذرة يناله من أولى البر والاحسان فجمع
هذا القدر من الذرة وأخيراً اعطاني عبد الفتاح عمامته ومنطقته وتركت الذرة
وديعة عنده ريثما يجد سفينة يرسلها بها الىّ بام درمان ثم قمنا للسفر فاردفني أحد
الرسولين خلفه وغادرنا قرية (ولد الزاكى) قاصدين أم درمان وبعد مسيرة
ثلاثة أيام وصلناها قبيل العصر وانخنا الجمال امام باب دار التعايشي الذى خرج
علينا فقال له يوسف منصور هاهو عبدك ابراهيم فوزي فالتفت الىّ وقال الى
أين ذهبت يا ابراهيم فوزي فقلت يا مولاى انى شخصت الى احدى قرى
النيل الابيض لانال شيئاً من احسان أولي البر فجمعت عشرة أرادب من
الذره فلم أجد سفينة شراعية تحملني فاقمت فى حراسة الذرة حتى جاءني هذان
الرسولان وهنا قص عليه الرسولان ماراياه من حالتي فسكن جاشه وقال
من الذى أذنك بالسفر فقلت أخذت اذنا من المقدم وهو قائد عشرين

مقاتلا فى ترتيب جيش الدراويش فقال لي أمثلك يكون اذنه بيد المقدم فقلت كلاّ ولكنني اضطررت لهذا السفر بسبب ما لحقني من الجوع وضيق العيش فصاح التعايشى قائلا أين القاضى أحمد على لجيء به فقال له أسلم هذا وأشار الىّ لاحد الاعراب المواظبين على الصلاة بالمسجد ليكون رقيبا عليه فاسلمنى القاضى الى بقارى كان أول كلمة سمعتها منه قوله لى (ياولد الريف لماذا أنت ضخم هكذا)فاحنيت رأسي تذللاً له وقلت (هكذا خلقنى الله) وبعدانقضاء صلاة العصر قال لي (يانوبي) وهى كلمة يقولها البقارة لكل انسان لم يكن بقاريا من جنسهم وهى تدل على ان المنادى بها رقيق الى أين تذهب فقلت الى منزلي فقال أذهب معك لأتمشى معك فقلت لا بأس فذهب معى وتناول الطعام وسأعود الي ذكر بقية أخباري مع هذا البقارى الذي ظللت أربع سنوات فى اسره وتحت مراقبته

أما نبأ غيابى فقد وصل الى الخليفة بعد غيابي ببضعة ايام من يوسف منصور الذي كان موكلا بحراستي منذ سقوط الخرطوم وهو من ضباط الحكومة وقد هال التعايشي امر غيابي حيث أيقن أني فررت الي الديار المصرية

وفي مساء يوم وصولى لام درمان أظهر التعايشى من الفرح والسرور ماحمله على أن دعا نفاخى الابواق وعازفي الطبول فقضوا ثلاث ساعات في اللهو والطرب ولم يخرج التعايشي لصلاة العشاء الا بعدمنتصف الليل والحاصل أني أنفقت في بضعة شهور نحو عشرين جنيها من الثلاثين جنيها التي كانت معي فى سبيل مداراة الاعرابى الموكل بي ولولا ان الله لطف بي ووصلت الىّ نقود مرسلة من صديقى الحميم محمد ماهر باشا محافظ القاهرة الآن لأوقعنى ذلك الرقيب فى مهاوى الهلاك وسيأتي ذكر الرسائل والله الموفق

ذكر حرف المؤلف

ذكرت اني كنت مقيما بجوار منزل يوسف منصور وبجواري ضابط برتبة يوزباشي اسمه على خير الدين كان بحامية سنار

وفى ذات يوم زارني أحد معارفي من أهالى السودان فأعطاني خمسين ريالا مجيديا وأعطي جاري على خير الدين عشرة ريالات ثم انصرف فقال لى جاري أري انا فى حاجة شديدة الى حرفة نرتزق منها فقلت ماهى الحرفة الذى ترى انا قادران على القيام بها فقال نفتح حانوتا نبيع فيه (القهوة) في ساحل الموردة فقلت لابأس وذهبنا الى ذلك الساحل واشترينا بوصاً وأخشاباً واستأجرنا أناسا عاونونا على تشييد كوخ فرشناه (بالابراش) وهى نوع من الحصر يصنع من الخوص وفى اليوم التالي فتحنا الحانوت وما مضت ساعتان على فتحه حتى جاءنا الحاج خالد العمرابى محتسب ساحل الموردة وقتئذ وأمرنا بهدم الكوخ فأخذنا نتضرع له ونستعطفه فلم يجاوبنا بغير الشتائم القبيحة ومنها يا كفار يا أولاد الريف يا أسرى وأخيراً أمر أعوانه بهدم الكوخ فهدموه ونهبوا أدوات القهوة وأخذوا الحصر والاخشاب ولم يتركوا لنا شيأ من البوص وكانت نفقات تشييد هذا الكوخ قد بلغت عشرين ريالا مجيديا عدا ثمن أدوات القهوة فقلت لصاحبي على خير الدين ماذا نعمل فقال نبتعد عن ساحل الموردة ونشيد كوخاً آخر نبيع فيه القهوة أيضاً فقلت ان مابقى لدينا من المال لايكفي لتشييد كوخ آخر فقال ننفق مابقى عندنا من النقود أما ثمن البن فقد اتفقت مع تاجر مصري يبيع البن على أن نتداين منه ما يكفينا من البن فابتعدنا عن دائرة نفوذ الحاج خالد العمرابى وشيدنا كوخا

آخر وباشرنا بيع القهوة فيه

ولما أبصر من حولنا من الدراويش حانوتنا صاروا يترددون علينا لشرب القهوة واذا طلبنا منهم ثمنها أهانونا وضربونا وانصرفوا وبعضهم يقول لنا اتركوا ثمن القهوة (فى شان الله) اى لوجه الله فاذا قلنا لهم لانتركه يضربوننا ويقولون انكم مازلتم كفاراً

ومكثنا نحو شهر نباشر هذه المهنة وقد بلغ ماتداينا من التاجر عشرين ريالا لم تحصل منها على اكثر من ستين قرشا وما بقى ذهب بين (فى شان الله) وبين ديون على بعض دراويش لانقوي على مطالبتهم بسدادها لاننا موقنون أننا لو ذهبنا الي مطالبتهم لقينا مانكره وربما رمونا بتهمة الكفر وساقونا الي موقف يستحيل عودتنا منه سالمين فهدمنا الكوخ وبعنا أخشابه وحصره وأدوات القهوة وذهبنا الى التاجر لنوفيه حقه فتنازل عن النصف ودفعنا له النصف الآخر ثم زين لصاحبي عقله أن نحترف بمهنة شراء البطيخ من المزارع وبيعه فاستحضرنا ثلاثين ريالا مجيديا جعلناها رأس مالنا وذهب صاحبي الي قرية (العيلفون) واشترى بطيخا شحن به مركبا صغيرة وعاد الى أم درمان في العصر وكان ذلك في شهر رمضان فأخرجنا البطيخ من المركب ووضعناه على شاطىء النهر ريثما نبيعه للبيعة وذهبت الي منزلى وتركت صاحبي يحرس البطيخ وبينا كنت عائدا من المنزل رأيت موكب التعايشى ماراً فابصرت الدراويش الذين خلفه قد اختطفوا البطيخ وبعد ان اجتاز الموكب ذهبت الى صاحبي على خير الدين فالفيته جاثيا على ركبتيه واضعاً يديه على رأسه شاخصا ببصره الى الارض ووجدت عنده بعض بطيخ مهشم فمعظم علي نهب البطيخ ولكني أخذت في

تسليته وتهوين المصيبة وما زلت به حتي أخذته وذهبنا الى منازلنا وكان التعايشي ذاهبا بموكبه الي منزل له بالقرب من هذه الجهة وبعد ان أوصلت رفيق الى منزله ذهبت خلف التعايشي فوجدته جالساً في المسجد فقال له أحد الحاضرين ان ابراهيم فوزي ورفيقا له كانا يبيعان البطيخ فداهمهم الانصار ونهبوا البطيخ فقال (في شأن الله) ثم قال لمخاطبه من هو ابراهيم فوزي كأنه لا يعرفني فوقفت بين يديه فقال هل البطيخ الذي أخذه الاخوان لك فقلت نعم فقال ومن أين لك رأس المال فقلت تداينته من بعض الناس على شرط ان يكون الربح بيننا فقال وماذا قلت لما أخذه الانصار فقلت لم أقل غير (في شأن الله وفي حب سيدنا الخليفة) فتبسم وقال أهكذا قلت مع ان رأس المال دين فقلت لم أقل غير ذلك ثم حان وقت الافطار فدخل التعايشي داره وذهبت الى منزلي للافطار أيضا ثم عدت وأنا لا أشك في انه سيعطيني تعويضاً فقضيت الليل حول مقصورته حتي انتهت صلاة القيام ودخل الى منزله وبعد أيام قلائل ارسل لى مع أحد خدامه أربعين ريالا من الريال المسمى (مقبول) الذي نقدر قيمته وقتئذ بخمسة قروش

وفي اليوم التالى قال لى صاحبي على خير الدين ان كثيراً من الذين يتبايعون البقر والغنم يرغبون ان يكتبوا عقوداً بين البائع والمشترى يضمنونها أوصاف البهيمة المشتراة وان أجرة تحرير عقد بيع الراس من المعز أو الضأن قرش ومن البقر قرشان وكذا الابل فذهبت مع صاحبي الى السوق واستأجرنا مظلةً من البوص وجلسنا تحتها وجاء أصحاب الماشية للبيع فاخذنا نكتب العقود فاجتمع لدينا نحو اربعين قرشا قبل ان ينتصف النهار ثم أذن لصلاة الظهر فجاء الدراويش بالسياط وأوسعوني وصاحبي ضربا وأخذوا ما جمعناه

وقالوا اذهبا الى الصلاة ومن العادة المتبعة عند الدراويش انهم يضربون الباعة وأصحاب الحوانيت بالسياط ليذهبوا لاداء الصلاة في المسجد والحقيقة انهم انما يفعلون ذلك لينهبوا ما فى الحوانيت من السلع فسرنا مع الدراويش الى المسجد ونحن نلج فى الضراعة ونلتمس الاحسان علينا بشيء من القروش التي أخذت منا وبعد اللتيا والتي اعطونا خمسة قروش بعد ان اشترطوا علينا عدم مباشرة هذه الحرفة لما فيها من كثرة الايراد وحيث اننا مصريون وكفار بزعمهم فلا يصح ان نحصل على شيء يزيد على ثمن الخبز بلا ادام

هذا وقد استطاع صاحبي على خير الدين الهرب واللحاق بمصر بعد هذه الكوارث بنحو عامين

ذكر عثمان الملقب بشيخ الدين بن عبد الله التعايشي

لما أفضت خلافة المهدوية الى التعايشي كان سن ابنه عثمان لا يتجاوز عشر سنين تقريبا

ولما كان التعايشي ذا طموح لجعل الملك وراثيا فى آل بيته مهد كل الصعوبات التي تعترض هذا السبيل وحط من قدر انجال المهدي وسائر ذوي قرابته وأخذ يعيرهم في مجالسه الخصوصية بأنهم دناقلة أسافل لا يصلحون لشيء غير حراسة الابواب

وفى أواخر سنة ١٣٠٥ دعا ابنه عثمان وعمره لا يتجاوز اذ ذاك ثلاثة عشر عاما وقال على رؤس الملأ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم انبه بلقب (شيخ الدين) وانه مرشح ليكون خليفة رابعاً ويجلس على كرسي عثمان بن عفان عليه سحائب الرضوان

وبعد ان أعلن التعايشي بين أهله ترشيح ابنه عثمان للخلافة عاد فسكت عن هذه المسألة ولم يتكلم عنها بعد لان اخاه يعقوب حذره من ولوج هذا الباب وقال له انك ان فتحت باب الكلام فى أمر الخلافه أوجبت على نفسك السير على حسب ترتيب الخلفاء وإذ ذاك يجب تقديم على حلو خليفة الفاروق على ابنك الذي تريد جعله خليفة لعثمان ولا يبعد ان الخليفة على حلو يحول بين الخلافة وبين ابنك ويجعلها وراثة لأولاده اذا قدر له ان يخلفك فعدل التعايشى عن تولية ابنه الخلافة واخذ في أسباب تناسي الناس ذكري الخلافة واهمية الخلفاء فجلس ذات يوم والناس حوله وقال لهم ان النبي صلى الله عليه وسلم والخضر والمهدى اخبروه بان لا خلافة بعده وان الملك والسلطان سيكونان بيد اقرب الناس اليه وقال مرة ان النبي صلي الله عليه وسلم اخبره بعبارة مبهمة حيث قال له انت اربعون فلم يفهم معنى الاربعين أهي اربعون عاماً ام اربعون شهرا أم أربعون يوما فاخذ من حوله من المتملقين فى البكاء وكان ابن النجومي حاضراً فقال لماذا تبكون فقالوا لقد ساءنا ان سنى حكم سيدنا أربعون سنة فقال لهم التعايشى سواء كانت سنو حكمى أربعين سنة أو اربعين شهرا أو أربعين يوما فانه لا يبقي بعدي على وجه الارض مؤمن وان الساعة لم يبق عليها غير ماهو باق من أجلى

وفى هذه السنة أى سنة ١٣٠٥ زوج التعايشي ابنه عثمان بنت عمه يعقوب وبالرغم عن التقاليد التي سنها المهدى بتخفيض مهر البكر الى عشر ريالات والثيب الي خمس ريالات وتحذيره من الاحتفالات فى ليالى الاعراس وتوعده من خالف هذه القواعد بالعقوبة الصارمة تغالى التعايشي فى إظهار الابهة فى الاحتفال بقران ابنه حيث اقيمت الافراح وادبت نحو خمسين مادبة حضر كل واحدة نحو الالفين من المدعوين ومع بساطة الأطعمة في هذه المآدب

التي كانت قاصرة على اللحوم والتمر وبعض الخضراوات قد بلغت نفقاتها قدراً طائلا من المال

وكان لحمدان أبي عنجة دار كبيرة شيدها بالآجر واللبن الاحمر فاخذها التعايشي وأسكن فيها ابنه عثمان ومن ثم ظهر عثمان بن التعايشي بمظهر الامارة وحاول أبوه ان يوليه قيادة الجيوش ويستوزره بدل أخيه يعقوب الذي اضمر لعثمان الكراهة وأوجس خيفة من ان يشرع أخوه التعايشي في اقصائه عن منصبه ويستعيض عنه بابنه عثمان الذى أخذ يجاهر عمه يعقوب بالمداوة ويعيب أعماله ويشدد النكير عليه حتي أفضى ذلك بينهما الى مناظرات شديدة ظهر بها للتعايشي ان قبائل الاعراب البقارة سيما التعايشة شديدو التعلق باخيه يعقوب وانهم منقادون له انقياداً أعمى وكثير من القواد صنائعه وفى الحقيقة ان صفات يعقوب هى التي جذبت هؤلاء الاقوام وجمعت قلوبهم على ولائه والاخلاص له لانه كان اكرم خلقا من أخيه التعايشى وألين جانباً منه ولشدة دهائه وتفننه فى أساليب الخداع كان لا يباشر أحداً بسوء أما سياسة أخيه فكانت خرقاء ولذا كان لا يظهر بغير مظهر القوة والجبروت فامتلأت الافئدة برهبته وفزعت من قهره ومالت الى جانب أخيه يعقوب الذي كان قابضا على زمام أعطية الناس وبيده ارزاقهم فن أرضاه منهم أمن غائلة أخيه التعايشى وتناول عطاءه وحصل على رزقه وان كان من أولى الوظائف فانه يصير آمناً على وظيفته بعد ان يؤدى الى يعقوب مايفترضه عليه من المال وسيأتي أن ماكان يتناوله يعقوب من رشا الوظائف وغيرها كان يدفع جله الى أخيه التعايشى

هذا وقد ايقن التعايشى ان محاولة اقصاء يعقوب ستكون ذات مغبة سيئة وكان يخشى أن يهب لمناوأته حيث ان القوة فى جانب أخيه

كانت ارجح منها فى جانبه فضلا عما يعلمه من سير ابنه الذى شب ولاهم له غير
اللهو والتفانى فى حضور ليالى الرقص وشرب الخمر مع ان المهدوية منذ ظهورها
شددت النكير على الراقصات وسنت العقوبة الشديدة عليهن كالجلد بالسياط
وحلق الرأس ومصادرة الاموال وفي الحقيقة ان المهدوية بسنها هذه الاحكام
أحسنت صنعاً لان عادة الرقص سيما فى الاعراس من أقبح عوائد السودان
وأشدها مساساً للآداب العمومية اذ يجتمع في ليلة الزفاف عدد كبير من
الشبان والفتيات يغنون بانغام مختلفة بين ثقيل ووسط وخفيف ويطنبرون
باصوات مزعجة كأنها حشرجة الصدور ثم ترقص الفتيات ومن ضمنهن
العروس على هذه الانغام ويحنين ظهورهن حتى تكاد رؤسهن تمس الارض
واجسامهن عارية ليس عليها غير الحلى وعلى عوراتهن سيور من جلد طولها
أقل من عشرين سنتمترا تري من خلالها عورة الراقصة وتسمى هذه
السيور (الرهط) ويظل الرقص والغناء مستمراً فى منزل العروس مدة
اربعين ليلة أولاهن ليلة الزفاف

هذا ولنعد الى ذكر عثمان شيخ الدين الذي طرح الوقار وتهتك فى حب
الراقصات ووالي السهر في ليالي الرقص وجمع حوله عدداً كبيراً من المغنين المطنبرين
وأخذ عمه يعقوب يرفع الى والده التعايشي أخبار ما يقف عليه من قبيح سيره
واسترساله في قضاء الشهوات وشرب الخمور ولم يترك بابا من أبواب الفسق الا
ولجه وبالجملة انه ظهر في مرسح الخلاعة وضروب اللهو ظهور المتهتكين وامسى ولاهم
له غير اغتصاب كل بنت تعجبه والتمتع بها بضع ليال وجمع حوله عدداً كبيرا
من المخنثين وصار الامراء وسائر الناس يخفون أولادهم عنه حيث كان
يأخذهم بصفة حراس وخدام له ولم يعمل أبوه لكبح جماحه عملا

سوى انه كان في بعض الاوقات يقبض على بعض ندمائه ويبعدهم الى جهات خط الاستواء

هذا وقد مد عثمان يده الى الجباة وامراء الجهات فكانوا يدارونه بالهدايا اتقاء شره وكانوا في حيرة من أمره لان عمه يعقوب كان يحذرهم من إعطائه شيئاً من بيت المال

وجمع التعايشي نحو أربعمائة من غلمان الاحباش الذين أخذوا أسرى في حروب الاحباش واركبهم الخيول الكريمة وجعلهم حراساً لابنه

وقد حذا حذو عثمان شيخ الدين في جميع اخلاقه واطواره شبان البقارة الذين شبوا في أم درمان وصرت ترى دور أمرائهم وقوادهم غاصة بالمغنين والمطنبرين وانغمسوا كلهم في الترف واللهو وشرب الخمور حتى صاروا يتباهون بذلك ويفاخر بعضهم بعضاً بهذه المنكرات وسيأتي الكلام على المخنثين وما كانوا يعاملون به في ايام المهدويين ثم ماصارت اليه حالتهم من الانقلاب على عهد عثمان شيخ الدين واضرابه من شبان البقارة

والحاصل ان التعايشي رأى ان لا مناص له من ترك أخيه يعقوب يشاطره النفوذ والسلطان في ملكه بالرغم عن طموحه لرفع شان ابنه وترشيحه لنيل الملك من بعده وبيد الله كل شيء

الكلام علي الخراج والجباة والعمال

عقدنا هذا الباب لنأتي فيه على ذكر نظامات المهدويين وعوائدهم في جباية الخراج وتعيين الجباة والعمال اذ من هذا الباب يقف القارئ على نظامات القوم ويعرف أساليب الخراج وتعيين الجباة فنقول

تنقسم البلاد السودانية فى كيفية جباية الخراج الى قسمين. القسم الاول أمراء البلاد الذين لهم شبه استقلال فى اماراتهم ولا سلطة لأمين بيت المال عليهم وهؤلاء أمراء شرق السودان كعثمان دقنه وأمير دنقلة عبد الرحمن النجومي والذين خلفوه وأمير جيش القلابات حمدان أبي عنجة ومن خلفه وأمير دارفور وكردفان عثمان آدم ومحمود أحمد الذي خلفه بعد وفاته وكذلك أمير بربر فهؤلاء الامراء لهم شبه استقلال فى أعمالهم بحيث يقتلون وينفون فى دائرة نفوذهم لانهم يقودون جيوشا جرارة ويحكمون على عدة أقاليم ولكل واحد من هؤلاء الامراء بيت مال خاص وسجن وشرطي خاص بامارته وهو الذي يعين الجباة من طرفه وينفق ما يجتمع في بيت ماله على الحامية التي تحت إمرته وكانوا فى ظاهر الحال غير مكلفين بارسال شيء من خراج بلادهم الى أم درمان ولكن الحقيقة انهم يؤدون اكثر من نصف ما يجمعونه من الخراج الي يعقوب أخي التعايشي بصفة هدايا واذا صودرت أموال أحد الاغنياء فان القيمة التي صودرت ترسل برمتها للتعايشي وأخيه وابنه وفي جميع الاحوال كان ما يرسل الى الخليفة من نوع الذهب والفضة الخالصة ونوعي الريال المجيدى والنمساوى وان كان الذهب أحب هذه الاصناف الي التعايشي . والقسم الثاني جباة صغار يعينهم أمين بيت مال أم درمان يبلغون عشرة جباة كل جاب لا تتجاوز دائرة نفوذه قسما من أقسام مديريتي الخرطوم وسنار وهذان الاقليمان هما اللذان بقيا تابعين لبيت مال أم درمان

اما الخراج الذى يجبي فهو عبارة عن عشر الحبوب وزكاة الماشية من الغنم والبقر والابل حسب الفريضة الشرعية وزكاة الفطر يأخذونها قهراً من كل من مر بهم وليس بيده قسيمة بتوقيع أحد العمال تفيد انه أدى زكاة الفطر وزكاة المال

تؤخذ قسراً من التجار ومن يظن انه ذومال

هذه موارد خراج المهدويين ومقاديرها ظاهراً لكن الحقيقة انهم كانوا يأخذون اكثر من ثلث محصول الحبوب وهـذا اذا لم يدعوا على المزكي انه شرب خمراً أو استعمل دخاناً ليتوصلوا بذلك الى مصادرة أمواله كلها

ويدفع الجابي قبل تعيينه الى يعقوب الفي ريال من العملة القديمة ونحو خمسمائة ريال الى أمين بيت المال ونحو خمسمائة ريال لكتبة يعقوب وبيت المال وحجاب يعقوب فالجملة ثلاثة آلاف ريال ثم تصدر الاوامر من التعايشي بتعيين أولئك الجباة فيغادرون أم درمان في شهر محرم من كل سنة ويعودون اليها في العشر الاولى من شهر ذي الحجة فيؤدي كل جاب اثنى عشر الف ريال الى يعقوب ونحو خمسة آلاف أردب من الغلة عدا الماشية من أنواع البقر والغنم وعدا الركائب الجيدة من الخيول والحمر الاهلية والهجن وعدا هذا وذاك الجوارى الحسان

واذا صادر الجباة أموال أحد الناس أرسلوا المال كله الى يعقوب والويل ثم الويل لمن اخفى ولو شيأ تافها

وجملة القول ان مايتناوله يعقوب كان يبلغ خمسة وعشرين الف ريال ولا محيص للجابي عن تقديم مثل هـذا القدر الى بيت المال عدا مايرشى به أمين بيت المال فيكون المجموع نحو ستين الف ريال أما الغلال فانها لاتدخل تحت حصر لكثرتها ثم ان الجابي وكتبته واعوانه يتناولون من المال مالا يقل عن نصف هذه القيمة عدا نفقاتهم مدة العمل حيث الأهلون مكلفون بتقديم الاغذية لهم والعلف لدوابهم

ولا يفوتن القارئ ان ما كان يتناوله يعقوب من الرشوة كان يصل خزائن

التعايشي بحيث لا ينتفع يعقوب منه الا بالطفيف

وكثير من كبار أمراء البقارة يرسلون المال رأساً الي التعايشي بدون وساطة يعقوب وللاسباب التي سردناها تحولت ثروة السودان الي خزائن التعايشي وأخيه وابنه وقبيلته وبات الاهلون يقاسون الفقر المدقع ليس لديهم من المال غير ما يحرثونه وليت المهدوية كانت تترك لهم من ثمار أرضهم ما يقوم بحوائجهم الضرورية ولا حول ولا قوة الا بالله

ذكر المخنثين

يوجد في بلاد السودان مخنثون يتشبهون بالنساء فى ملابسهم وربما سدلوا شعورهم مثلهن وهم يأوون الى اماكن المومسات ليقوموا بمهنة القيادة اليهن ولا تخلو بلد من بلاد السودان من مومسات اكثرهن من الجوارى التى يفرض عليهن مواليهن ضريبة يقمن بادائها في كل شهر وقد جاء فى كتاب (السيف والنار) ذكر أولئك البغايا ومواليهن الذين هم وجوه أهل السودان واغنياؤهم ولا عيب عندهم فى ارتكاب البغايا هذا الفعل الشنيع لما ان هذه العادة قديمة متأصلة عند أهالى السودان ولذا لا يأنفون من أخذ المشاهرة من هؤلاء الجواري

ولما ظهرت المهدوية وأقيمت الحدود الشرعية على الزانى والزانية مد المهديون أيديهم الى البغايا فاغتصبوهن من ملاكهن بصفة سبايا وبقى أمر المخنثين على ما هو عليه حيث ظلوا قائمين بحرفتهم في أمكنة الفجور السرية وفي سنة ١٣٠٤ قبض التعايشى على مئات منهم وزجهم فى ظلمات السجون وعذبهم بالاشغال حتى اشرفوا على الهلاك ثم استتابهم وجعل عليهم حراساً

ورقباء وأمرهم بمواظبة الصلوات الخمس في المساجد فتركوا التشبه بالنساء وصاروا في وجل شديد ثم انه قبض على كثيرين منهم أيضا ونفاهم الى خط الاستواء فلقوا حتفهم في الطريق قبل أن يبلغوها

ولكن مالبثنا بضع سنوات حتى رأينا الرقباء والموكلين بالمخنثين قد تركوهم وشأنهم وصرنا نري أولئك المخنثين قد عادوا الي ما كانوا فيه من التشبه بالنساء وارخاء الشعور وصار عدد ليس بقليل منهم يسكن دور عثمان شيخ الدين واضرابه من شبيبة البقارة ومنهم محمود احمد اسير وقعة اتبره وأخوه ابراهيم الخليل فتعلق الناس بالمخنثين وبعد ان كانوا لايسكنون في غير محلات الباغيات وأحياء المومسات صار مأواهم دور الامراء ومنازل القواد ولا غرو فالناس على دين ملوكهم وكان محمود احمد قد تغالي في تعلقه بالمخنثين الذين جمع منهم في منزله اكثر من عشرين واحدا منهم يرافقونه في الشخوص الي دارفور ويعودون معه لدى قفوله راجعاً الي أم درمان

والبقارة يطلقون على المخنث اسم (عقليط) ومن ثم صار المخنثون أصحاب الكلمة النافذة عند عثمان شيخ الدين ومحمود احمد وسائر الامراء وبالجملة انهم صاروا شفعاء لاترد شفاعتهم عند عثمان وسائر الامراء حتى صار أولئك الامراء المفتونون يناظرون بعضهم بأولئك المخنثين

وقد بلغ من تقريب عثمان شيخ الدين للمخنثين والانتصار لهم ان أحد الرقباء الذين كانوا موكلين بمراقبة المخنثين وكان شديد الوطأة عليهم حتي كان من أمرهم ماذكرناه رماه بعضهم عنده بتهمة أنه يود اعادة المراقبة عليهم فقبض عليه وسجنه ولم يطلقه الآ بعد عناء شديد

ويزعم أولئك الامراء انهم لم يأووا المخنثين في منازلهم الا ليوكلوا اليهم

أمر تطييب نسائهم وتدريبهن على أساليب الغنج والدلال لانهم على زعمهم أعرف من نسائهم بهذه الاشياء وهو عذر ان صح نقله عنهم أقبح من الذنب لانه لا يبعد أن يتمتع أولئك المخنثون بالنساء ويشاطرون هؤلاء الامراء المغفلين الحظوة بهن كما ان العقل يستبعد سلامة أولئك الامراء من التلطخ باوضار تهمة اللواط أعاذنا الله منها

حوادث دنقلة وقتل ابن النجومي

لم نذكر من حوادث دنقلة غير وصول عبد الرحمن النجومي وهنا نذكر بقية حوادثها الي سفره منها ومهلكه بعد ان اجتاز حلفا فنقول

لما غادر عبد الرحمن النجومي ام درمان قاصدا بربر ومنها الى دنقلة كان عدد مقاتلته سبعين ألفا ولكنه لما وصل الي بربر تفرقوا عنه ولحقوا ببلادهم ولم يبق معه منهم الا عشرون ألف مقاتل عدا الجهادية الذين يبلغ عددهم نحو عشرة آلاف مقاتل وكان قد ارسلهم من بربر الى دنقلة تحت قيادة مصطفى جبارة وكيل الجيش وكان قواد أولئك الجهادية آدم كرامة وسرور أبا عنجة اللذين كانا في جندية الحكومة في الايام السالفة ولما وطئت أقدامهما أرض دنقلة ورأوا أنفسهما قريبين من حدود الحكومة اشتد ميلهما الي اللحاق بها فتشاورا علي اضرام نار الثورة وشق عصا الطاعة على المهديين فاجتمعا بصغار القواد المرؤسين بهما وتحالفوا علي أن يباغتوا الدراويش ويأخذوهم على غرة وعينوا آدم كرامة قومندانا عاما عليهم ولقبوه بآدم (باشا) كرامة ومنحوه رتبة أمير اللواء ومنحوا سرور أبا عنجة رتبة (أمير الالاي) وسموا لواءهم اللواء

الرابع وأحسن أمير اللواء على بقية الضباط بالرتب ومن بينهم واحد اسمه عبد الله محمد كان حائزاً لرتبة ملازم ثان من الحكومة الخديوية منحه رتبة الملازم فاستاء من ذلك وعده إهانة كبرى لشخصه ولكنه لم يخبرهم باستيائه . على انه لو أخبرهم بما داخله من الغيظ لمنحوه مايشتهيه من الرتب ولكنه سكت فخالوا سكوته رضاء

وأجمع آدم كرامة واعوانه على الوثبة على الدراويش في الفلس ودسموا كيفية الهجوم وانصرفوا الى منازلهم على ان يجتمعوا في وقت عينوه ولكن لم يتم لهم ماأردوا فقد ذهب عبد الله محمد الى مصطفى جباره واخبره بما دبره الجهادية فتقمص الجد وجمع حوله الفا وخمسمائة فارس وارسل خمسمائة مقاتل قبضوا على آدم كرامة وسرور أبي عنجة وبعد ان سئلا فانكرا استشهد بعبد الله محمد الذي قال لهما انكما دبرتما كيت وكيت ثم ضربت اعناقهما وأعناق نحو عشرين من القواد الذين معهم وأرسل مصطفى جباره يخبر عبد الرحمن النجومي بهذه الحادثة وكان عبد الرحمن يبغضه فاتخذ هذه المسألة ذريعة الى الانتقام منه فكتب الى التعايشي يبرئ الجهادية مما رماهم به مصطفى جباره وادعى انه ما قتلهم الا لقصد سيء فرد التعايشي على عبد الرحمن النجومي قائلا ان الحضرة النبوية أخبرته بصحة ماقاله مصطفى جباره وان ما فعله لم يكن عن سوء قصد كما قال عبد الرحمن النجومي الذي غادر بربر على أثر هذه الحادثة ولحق بدنقلة وتكاملت جيوشه بها

هذا وقد ألمعنا الى ان النجومي كان من حزب الخليفة شريف الذي كان التعايشي يسعى في تلاشي أمره واضمحلاله وقد كان من أمر النجومي انه رغب عن

خيانة توجب الازدراء بمرتكبها وكان ابن النجومي ذا بساطة فطرية مع بله فلم يفطن لهفوته هذه وبقي متزلفاً للتعايشي

وبعد أن وصل ابن النجومي الي دنقلة انتدب التعايشي مساعد قيدوم البقاري في بضعة آلاف مقاتل كلهم من البقارة وارسله الي دنقلة ليكون وكيلا لعبد الرحمن النجومي

ولما وصل مساعد الى دنقلة زاره النجومي ذات يوم بمنزله فقدم له شرابا من العسل دس له فيه زرنيخا فتناول منه النجومي جانبا فابتدأت فيه اعراض التسمم ولزم داره واشتدت به العلة حتي اشرف على الهلاك وبعد مدة عوفي وزال عنه الخطر واشتد النفور بينه وبين مساعد الذي كان يطالب أمين بيت المال بنفقات باهظة تعدل نفقات الجيش كله فشكاه ابن النجومي الى التعايشي الذي كان لا يجاوبه بغير العبارات المبهمة مثل أنت قائد الجيش ومساعد انما هو وكيلك والامر مشترك بينكما فاستحكم النفور بين مساعد وابن النجومي حتى خيف انتشاب الحرب بينهما وتفرقت كلمتهما وصار كل واحد منهما يستعرض جنوده على حدة

وفي ابان ذلك نمي الى ابن النجومي ان السير غرانفيل باشا سردار الجيش المصري ينوى الهجوم على معسكر الدراويش في جنوب حلفا وهو معسكر (صرص) فارسل يبلغ التعايشى الخبر ويستأذنه في التقدم الى صرص فكتب له التعايشي يقول انك لن تزال فى دور النقاهة فابعث مساعداً بجميع فرسان الجيش وهم زهاء ثلاثة آلاف فارس فانفذ النجومي مساعدا الي صرص فالتقي قبل وصوله اليها بجواسيس المهدوية قادمين من حلفا فاخبروه بان السير غرانفيل معه قوة كبيرة وانه ربما كمن لكم فى الطريق فارتاع مساعد وكان

جياناً رعديداً ثم تقدم الى صرص فلقيه جواسيس أخر اخبروه بمثل ماخبره به الاولون فترك الجيش وعاد الي دنقلة واستخلف أحد أقاربه على الجيش فتابع سيره الي صرص ولم يصادف كيداً في طريقه ثم قفل راجعاً الى دنقلة ولم يلتق بالجيوش المصرية التي قصدت صحراء (المرات) لاكتشاف آبارها

وفي سنة ١٣٠٥ استدعى التعايشي عبد الرحمن النجومي الى أم درمان واكثر من تأنيبه وتحقيره أمام الملأ حتى قال له انك رجل مغفل لا تصلح للولاية على امرأتك وأولادك فضلا عن ولايتك على جيش جرار

ولقد ذكرنا فيما مضى ان ابن النجومي كان من أعظم قواد المهدى الذين لهم عنده اكبر منزلة وقد كتب اليه مرات عديدة يقول ان الحضرة النبوية تقرأ عليك السلام وقال له يوم سقوط الخرطوم مفسراً الآية الشريفة (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) ان الذى قضي نحبه هو عبد الله بن النور الذى ذكرنا خبر قتله في واقعة (الجريف) وان الذي ينتظر هو عبد الرحمن النجومي فانظر كيف كانت منزلة عبد الرحمن بن النجومي عند المهدي وكيف سقطت الي الحضيض عند التعايشي الذي أثبتت أفعاله انه لم يكن مصدقا بشيء من دعوى المهدي وتخرصاته وانه كان واقفاً على كنه اكاذيبه بل كان مشاركا له في وضعها واختلاقها

ثم أعيد ابن النجومى الى دنقلة في أواخر سنة ١٣٠٥ وأمر باخذ الاهبة لفتح مصر فدخلت عليه سنة ١٣٠٦ ولم يتقدم اليها بل أخذ فى مماطلة التعايشى وود الاستقالة من عمله

وفى أواسط سنة ١٣٠٦ فشت المجاعة في السودان واشتدت وطأتها

على أهل دنقلة فاصدر التعايشي أمراً بعزل ابن النجومي وتعيين يونس الدكيم التعايشي بدله وأمر يونس المذكور باكراه ابن النجومي على مغادرة دنقلة لفتح مصر

هذا وقد كان من الاسباب التي بعثت التعايشي لانفاذ عبد الرحمن النجومي الى فتح مصر أن بعض الجعافرة سكان مديرية أصوان كانوا يبعثون الكتب تباعا الى التعايشي يظهرون فيها ولاءهم له وانهم ينتظرون بفروغ صبر تقدم جيش المهدوية الي بلادهم وانهم سيلقونه في عدد عظيم من المقاتلة ويقدمون له ما يحتاجه من الاقوات وتفشي المجاعة في السودان كله مع ما ظهر له من ان الاهلين يودون الخلاص من ظلمه سيما وقد تفرقت دراويشه من حوله وأمسي وليس معه منهم في أم درمان اكثر من بضعة آلاف فاشار عليه بعضهم بانفاذ جيش ابن النجومي الى حدود مصر ليظهر من الضعف قوة ومن جهة أخري كان هلاك جيش النجومي مما يسعي اليه التعايشي لانه كما تقدم لنا من القول كان من حزب الخليفة شريف وكان ابن النجومي بعد ان عاد من أم درمان قد عاوده المرض وانتكست صحته فكتب يونس لدكيم الي التعايشي يخبره بان ابن النجومي ملازم للفراش وان حالته منذرة بالخطر فاجابه بان يحملوه على نعش ويسيروا به امام الجيش لان الحضرة النبوية اخبرته بان فتح مصر سيكون على يده فحمل ابن النجومي على نعش سيروه امام الجيش كانه تابوت بني اسرائيل وشخص من دنقلة ومعه أثنا عشر الف مقاتل وعشرون الفا من النساء والصبيان وأعطي لكل مقاتل من مقاتلته كيلتين من الذرة وهو قدر لا يكفيه بضعة أيام

ولما اقتربت الدراويش من حدود الحكومة عند مكان اسمه (ارغين)

هاجمته الحامية هجوما عنيفاً فسقط في ساحة القتال نحو نصف مقاتلته الذين صاروا لشدة فتك الجاعة بهم كغنم تساق الي الذبح

ومن المضحك ان أحد قبيلة الكنوز الذين كانوا مع ابن النجومي أرسل كتابا الي بعض أقاربه فى أم درمان قبل مذبحة (أرغين) جاء فيه ما يأتى

انني ذبحت فرسي في هذه الليلة وتعشيت من لحمها أنا ومن معي وادخرت الباقي للتزود به حيث صرنا على مقربة من حدود الكفار وعما قريب يأتيكم نبأ فتح مصر اه فانظر هذه الغباوة واعجب لسخافة عقل من تعشى من لحم فرسه وتزود بالباقى كيف يفتح مصر

وبعد واقعة (ارغين) سار ابن النجومى بجيشه حتى التقى بالسير غرانفيل باشا قائد الجيش في (طوشكى) حيث قتل ابن النجومى وتمزق جيشه كل ممزق

ولما كانت هذه الواقعة معلومة عند المصريين وقد وقفوا على تفاصيلها فلا حاجة لايراد شيء عنها زيادة عن هذا

اما تأثير هذا الخذلان على التعايشى فكان سيئاً ولكنه أظهر عدم الاكتراث به

ذكر زواج المؤلف باحدي نساء التعايشي

بعد أن أسلمنى التعايشي للبقاري الذي وكل اليه مراقبتي فى الصلاة بضعة شهور جلس فى محراب المسجد بعد اداء صلاة الظهر وأخذ يكلم الناس بامور زعم انه أخبره بها النبي صلي الله عليه وسلم ومن جملتها انه قال لهم سيظهر كذاب يدعى انه المسيح عيسى بن مريم صلوات الله وسلامه عليه وان أوصافه

كيت وكيت فقال لمن حوله ان ذلك الكذاب مصري وكنت مصغيا لاقواله فسمعته يقول انه أبيض اللون قصير القامة ضخم الجثة مستدير الوجه فقال لى بعض الحضور سرا يمازحني ان هذه الاوصاف تنطبق عليك فداخلنى وجل شديد وقلت في نفسى رب واش أبلغ هذا الطاغية عني أني مزمع على ادعاء هذه الاكذوبة وانه قال مقالته هذه ليمهد بها طريقا للقبض علىّ والايقاع بي . فتنحيت من موقفي وجلست في المسجد واسندت ظهري الي حائط وانا غارق فى بحار الافكار فسمعت مناديا يقول يا فوزى فعلمت ان التعايشى يدعوني فذهب عقلي وقت وانا لا أشك في تحقق ماوقع فى روعى وانى مدعو الآن للتنكيل بي فمشيت مسرعا حتى بلغت مقصورة التعايشى فلما رآني قام على قدميه وخرج منها وأمسك بيدي ومشينا الى باب داره فقال الناس لا ريب ان الذى أمسكه الخليفة هو الذي قال عنه انه سيدعي انه المسيح عيسى بن مريم صلوات الله عليه وسلامه

ولما وصلنا عند الباب وقف معي وقال مخاطبا لى يافوزى فقلت نعم يا سيدي خليفة المهدى عليه السلام فقال انى أريد ان أزوجك امرأة مؤدبة مهذبة حسنة التربية حسنة الخلق متدينة متورعة وهى احدي نسائي فقلت له ياسيدى انني متزوج فقال أليس لك زوجة واحدة فقلت بلى فقال وما المانع من ان يكون لك ثلاث زوجات أو أربع فقلت لا مانع سوى أنى فقير مدقع وليس لى كسب يعاونى على القيام بواجبات زوجتين فقال لا تلتفت الى ذلك لان الله متكفل بارزاق العباد ثم قال لي ماقولك قلت انا لا أرغب عما تختاره لي مولاى فقال بارك الله لك فيها ثم قال لى لاتخبر أحداً بشيء من هذا الحديث ثم تركنى ودخل منزله فتكاثر الناس على يسألوني فكنت أصرفهم بالمجاملة

وأقول لهم لم يقل لي الخليفة شيأ تخشى مغبته

وبعد بضعة أيام استدعاني التعايشي الي داره فوجدته جالسا ومعه القاضي احمد على وقاضيان آخران وبعد ان قبلت يده أمرني بالجلوس فجلست على الارض بجانب هؤلاء الثلاثة ثم قال لاحد غلمانه أحضر الطعام فجاء بقصعة مملوءة بخبز الذرة ادامها من الطبيخ الذي يصنع من البامية المجففة (الويكه) وعلى وجه القصعة خمس قطع من اللحم يبلغ وزن القطعة منها رطلا فتناول التعايشي قطعة منها وقال خذ هذه يافوزي ثم دفع لكل واحد من القضاة الثلاثة قطعة وابقى لنفسه قطعة فامسكت قطعتي بيدى اليمنى ونهشت جزأ منها فوجدتها غير ناضجة وعلمت انها من لحم الابل فامسكتها بيدى اليسرى واخذت آكل بيدى اليمين ولما فرغنا من الاكل وجدت ملابسي ملوثة بالطبيخ فصاح بي التعايشي ماهذه القطعة التى تحملها يافوزى فقلت له اني اكلت منها كفايتي واريد أن احمل الباقي الي آل بيتي ليتبركوا بقطعة اللحم التي صنعت في بيت مولاى وناولني اياها بيده الشريفة فتبسم والتفت الى القضاة وقال لهم لاريب ان فوزى صار من خيرة انصار المهدى وانه نبذ الرفاهية ولم يلتفت الى شيء من الدنيا والتفت الىّ وبالغ في الثناء عليّ ثم تناول من القضاة مابأيديهم من قطع اللحم وضمها الي قطعته وناولني الاربع قطع وقال اذهب بها الى آل بيتك فحملتها في جبتي وخرجت من الدار حتي اذا صرت في طريق خالية من المارين طرحت اللحم من جبتي على الارض وذهبت الى منزلى واخبرتهم بما اتفق لي فاخذوا الجبة وغسلوها ومكثت حتى جفت اذ لم يكن لى غيرها ثم لبستها وذهبت الى المسجد

وكان للتعايشي منزل في الجهة الجنوبية لام درمان عند حصن الحكومة

القديم فركب اليه ذات يوم بعد الظهر واستدعاني بعد وصوله اليه فقال انى ذاهب الى معسكر خارج المدينة وقد أمرت الخليفة على حلو بمباشرة عقد زواجك بالمرأة التى أخبرتك بامرها وقد أمرت الخصيان ان ينقلوها الى دارك فى هذه الليلة فشكرته ودعوت له وبعد غروب الشمس أرسل الخليفة على حلو خصيا الى داخل الحرم ليسأل المرأة عمن توكله فعاد قائلا له انت وكيلها وكنت انتظر ان تجري صيغة العقد طبق الشرع فلم يفعل الخليفة على شيئاً غير انه رفع يديه وقرأ فاتحة الكتاب ثم قال لى بارك الله لك فيها وانصرف فدهشت لهذا العقد الذى لم يكن فيه ايجاب ولا قبول ولا ذكر للمهر ألبتة ثم قال لي احد الخصيان أرسل حمالين لحمل متاع السيدة فاحضرت عشرة حمالين ليحملوا متاعها ولما اخرجوه اذا هو عبارة عن (عنقريب) وحصير من الخوص (برش) وصندوق من الخشب فيه ملاءتان من القماش فتعجبت من هذا المتاع وانصرفت مع حمال واحد حمله وقصدنا منزلى

على انى أقول انى كنت خائفا من هذه الزوجة حاسبا لها الف حساب اذ كنت أظن انها ستكون عينا للخليفة فى بيتي ورقيبا على أعمالى في داخل منزلى ولذا امرت آل منزلي باخراج الدخان الذي أستعمله سرا فى منزلى وايداعه بمنزل احد أصدقائي وبعد هنيهة جاءت العروس راكبة على حمار التعايشى يحيط بها خصيان وبعد دخولها فى الدار استدعيت اربعة من جيراني المصريين وقدرنا المهر وجددنا عقد النكاح بما يطابق الشرع الشريف سرا

وقد اتفق ان منزلى كان فى تلك الليلة خلوا من الطعام فقدم لي احد جيراني المصريين أطباقا مملوءة اداما وخبزا من الذرة فقدمته للخصيين فامتنعا من الاكل حيث كانا يريدان عطية من الدراهم التي لم أكن املك منها شيئا اعطيهما اياه

فقاما وشتماني وقالا (يا ولد الريف) ألم ان هـذه السيدة كانت حرم خليفة المهدى فافتح عينيك هكذا وحلقا بأصبعيهما الابهام والسبابة اشارة الي الريال فكنت أجاوبهما بأنى عارف بذلك ومقدر هذه النعمة حق قدرها وأخيراً انصرفا غاضبين وبعد نصف الليل دخلت منزلي كأنني أساق الي الموت لشدة ما نولاني من الفزع من هـذه الزوجة التي مكثت معي بضعة أيام لم أعرف شيئاً من أمرها ومعاملتي لها كانت بالحذر الشديد ولم أسألها عن عائلتها ولا عن بلدها

وفي ذات يوم جلست لتناول الطعام معها وكان رديئاً من خبز الذرة وادامه من ورق اللوبياء فرأيت الدموع تتساقط من عينيها فقلت لها ماذا يبكيك فاشارت الى الطعام قائلة أما ترى هـذا الطعام فقلت لها هـذا طعام انصار المهـدي فخنقتها العبرة ورفعت صوتها قائلة لعن الله المهـدي وخليفته الظالمين الباغيين أليسا هما اللذان هتكا عرضى وقتلا أهلى وسلبا نعمتى فاندهشت من كلامها ورفعت هى صوتها بالعويل والنحيب اللذين فتتا كبدى فسألتها من هم أهلك وأين كان مقامك فقالت أنا بنت حسن أغا أرناؤد وكان مقامي في الخرطوم فعجبت من ذكرها هـذا الاسم لانى اعرف أباها وانه تركي من قواد الاتراك في الخرطوم استوطن بها وصار من وجهائها وكان له ابن اسمه على كان موظفا معي في خط الاستواء بوظيفة سامية فقلت لها ثم ماذا صار فقالت من يوم سقوط الخرطوم الي هذه الساعة ما رأيت أهلى ولا أعلم هل هم أحياء أو أموات فداخلني الريب في أمرها وظننت انها كاذبة في دعواها حيث انى أعرف والدها وأخاها وما لهما من الوجاهة وأعرف ان من أهلها من هم على قيد الحياة ومن حسن الحظ انهم كانوا يسكنون بالقرب

منا فارسلت اليهم فى الحال فجاؤا وما وقع نظرهم عليها حتى عانقوها وارتفعت أصواتهم بالبكاء والنحيب ثم قصوا عليّ حديثها وأنها أخذت منهم مسبية بعد سقوط الخرطوم فلم يقفوا لها على أثر ولم يعلموا الى أين طوحت بها المقادير وقد قالت هي انها أخذت الى بيت الطاغية التعايشي وما زالت فيه حتى أراد الله خلاصها منه وقد رزقت منها بنت وهى فى عصمتي الي الآن

على انى كنت اخاف مستقبلا ربما كان مما يزيد فى شقائي ويضاعف على أنواع الذل وعذاب الاسر حيث انه كان لي كما تقدم زوجة غيرها وكنت أخشي ان يتسع نطاق الخلف بينهما بسبب الغيرة فاقع بينهما فى شقاء لايذكر في جانبه ما أنا واقع فيه من شظف العيش وذل الاسر الذى سيأتى وصف كثير من ضروبه ولكن الله من فضله كفاني ما كنت اخشاه اذ صارت زوجتاي كانهما أختان لا أثر للغيرة عندهما ولا هم لهما غير تخفيف ويلات حزنى وتسلية خاطرى من الاكدار التى تساورني فكانتا تقضيان النهار وشطراً من الليل فى خياطة بعض الملابس للدراويش باجرة طفيفة

وقد كانت حالتى المعيشية تنتقل من ردئ الى أردأ حتى سجنت ومع ذلك بقيتا على ماكانتا عليه من الصفاء والوفاق الى أن منّ الله عليّ بالخروج من السجن الذى سيأتي الكلام عليه فى مكانه

ذكر الميرالاي حسن البهنساوي بك

كان الميرالاى حسن البهنساوى بك ميرالاى اللواء المصري الخامس وأصله ضابط مصرى قضى من عمره زهاء عشرين سنة في السودان وكان لواؤه قائما بحراسة الخندق الجنوبى جهة المكان الذي دخل منه العدو يوم

سقوط المدينة وقد شرحنا كيفية دخوله وان اللذين اطلعا المهدي على عورات الخندق هما الصنجقان الخائنان عمر ابراهيم والمطا الدود ولم نعلم شيأ يدعو الى اتهام الميرالاي حسن بك البهنساوى بانه تواطأ مع المهدي على ادخال دراويشه من جهة الخندق الجنوبي اذ يستحيل وقوع مثل ذلك من مثل حسن بك البهنساوى حيث هو من خلاصة من صدقوا في ولاء الحكومة

وبعد سقوط المدينة وقع حسن بك في الاسر وعذب عذابا شديداً وصودرت أمواله وأخذت بنته مسبية وقدمها أمين بيت المال للمهدى وكانت له زوجة هي بنت رجل من مشاهير التجار اسمه عبد السلام أصله من مدينة حلب قدم السودان مشتغلا بالتجارة فاثرى وكنت أنا متزوجا باختها فاخذتا مسبيتين وماتت زوجتي غماً بعد ايام قلائل مضت بعد أخذها

وقد ذهبت يوما مع حسن بك البهنساوى الى المهدى وكلمناه فى أمر زوجتينا فامر أحد نوابه بردتينك الزوجتين فشكرناه وانصرفنا من حضرته وما كدنا نخرج من باب الدار حتى ابتدرنا جماعة من الدراويش اللذين اغتصبوا هاتين المرأتين بالضرب والاهانة وتوعدونا بما نخشاه اذا عدنا الى الشكوى فانصرفنا واقنعنا النائب باستحالة رد المرأتين ثم ذهب الى المهدي وكلمه بما جري لنا فلم يكن لكلامه أثر ومكث البهنساوى بك فى الاسر زهاء سنة ثم فر الي بلاد الحبشة ماشياً على قدميه وما بلغها الا بعد ان كادت روحه تزهق لشدة ما ناله من المشقة ثم غادر بلاد الحبشة ولحق بمصر وعلى أثر وصوله سمعنا خبراً ادهشنا وهو أن الحكومة اتهمت حسن بك البهنساوى بالخيانة وانه ادخل الدراويش مدينة الخرطوم فى حين اننا نعلم الحقيقة دون

اجتماعنا يقول لي ان عورات الخندق لا بد ان يكون المهدى علمها من عمر ابراهيم والمطا الدود وأنهماهما اللذان اطمعاه في الهجوم على الخرطوم بعد ان كان يتأهب للتقهقر الى كردفان على أثر ما أصاب دراويشه من الهزيمة والانكسار فى واقعة (أبوطليح)

وبعد ان سقطت الخرطوم ووقعنا فى الاسر تحققنا من نفس قواد المهدي ومستشاريه انهم كانوا على وشك الزحف الى كردفان لولم يقيض الله عمر ابراهيم والمطا الدود لاطلاعهم على عورات المدينة. وجملة القول ان حسن بك البهنساوى براء من هذه التهمة براءة الذئب من دم ابن يعقوب وقد ظهرت براءته امام المجلس العسكرى العالي الذى عقد لمحاكمته وكفى بذلك حجة على ان الذين رموه بالخيانة كانوا ذوي قصد سيء به

وقد يحار الانسان من اقدام الحكومة على محاكمة البهنساوي بك مع أنها عاملت كثيرا من الخوان الذين لا يختلف اثنان فى صحة مانسب اليهم من الخيانة بالاعزاز والاكرام حتى أنها قد اغدقت النعماء على عمر ابراهيم ولم تترك وسيلة لاسترضائه الا فعلتها وقد أعجز الناس فهم مقاصدها ولم يفسره كثير من السودانيين الا بأنه من كرامات المهدي الذي تكافىء الحكومة الذين صدقوا فى ولائه ولقد قال لي واحد من السودانيين انظر الى عمل حكومتكم كيف تصنع الجميل مع الذين ادوا خدماجليلة للمهدي مما يدل على صدق مهديته وكيف عاملتكم انتم الذين بقيتم على ولائها وناوأتم المهدى فأفحمني هذا القائل ولم أحر جوابا أقنعه به لانني لم أفقه كنه مقاصدها فلعلها أقصى نظراً مني

على ان الحكومة التي هدمت قبة المهدي لتقضي على الاعتقاد بمهديته

قد أحسنت معاملة جميع الذين والوه ولم تقم ببعض من كل للذين والوها وبهذا التصرف الغريب مهدت كرامة جديدة للمهدي يتمسك بها السخفاء الذين يقولون ان جثة المهدي رفعت الي السماء من قبره قبل أن ينبش ببضع سنوات وسيأتي ذكر ذلك في مكانه

ذكر مالقيه المؤلف في مقابلته بعض الامراء

من أنواع الذل التي قاسيناها وضروب الاهانة التى كنا نعامل بها من أتباع المهدي ماأورده هنا

وذلك اني كنت ذات يوم ماشيا مع يوسف منصور في الخرطوم فررنا بمنزل أحد اتباع المهدى المسمى الحاج خالد العمرابي الذي أصله من تجار الابيض فدعاني يوسف منصور للدخول اليه لاجل زيارته فدخلنا عليه فألفيناه جالسا على فروة فقام واقفا على قدميه واستقبل يوسف منصور بكل احتفاء وفرش له فروة أيضا أجلسه عليها فتقدمت للسلام عليه فانتهرني وقال لي اجلس هناك وأشار بيده الى أقصى مكان منه فجلست على الارض فجيء بالقهوة فقدمها الغلام الى يوسف منصور فقال له قدمها لفوزى فقال له الحاج خالد ولماذا تقدمه على نفسك فقال لانه ضابط عظيم وكان ضابطاً عليَّ ولأنه عزيز قوم يجب اكرامه فقال كان عزيز قوم كفرة وأنت سيده وأفضل منه وهو رقيق بل من يخرج من صلبه من الاولاد أرقاء الى يوم القيامة وانه كافر يجب على كل مؤمن ومؤمنة اهانته واحتقاره واظهار كراهيته فقلت له ياسيدى الحاج خالد اذا كنت كافراً فيما مضي من عمرى فقد أسلمت على يد

وأولادك فقال له يوسف منصور مهلاً ان هذا الكلام غير لائق بك وان المهدى عليه السلام أوصانا بمراعاة الاسرى وعدم كسر خاطرهم واشتد اللجاج بينهما فقمت من بينهما وانصرفت لسبيلي

ومن النوادر المضحكة اني كنت يوما بحضرة محمد بن البصير الحلاوي داعية المهدى في (الحلاوين) وكان معي أيضا يوسف منصور فقال ابن البصير إن أصحاب المهدى أفضل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والدليل على ذلك ان نبي الله الخضر شرب من هذه (الركوة) وهي إناء يصنع من الجلد ولم يشرب من ركوة أحد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقمنا الى تلك الركوة وقبلناها وضممناها الى صدورنا ووضعناها على رؤسنا التماسا لبركتها فقلت لاحد الحاضرين هل أنت مصدق بهذه الاكذوبة فالتفت اليّ وقال يزعم التعايشي ان الخضر جاسوس له وهذا يقول انه شرب من ركوته ونحن نقول لهما صدقتما مادمنا لانقدر على تكذيبهما ثم قال لي وهل نستطيع تكذيبهما لو ادعيا على جبريل أمين الوحي باضعاف ماادعيابه على الخضر فقلت واني لنا القدرة على تكذيبهما فقال قبل وضم وضع واسكت والسلام

ذكر نفي عبد القادر بن ام مريوم

ذكرنا ماجري بين عبد القادر بن أم مريوم والمأسوف عليه غردون باشا ولما أفضت خلافة المهديين الي عبد الله التعايشي قرب اليه عبد القادر المذكور وأدخله في عداد النواب الذين يعاونون القاضي في نظر القضايا التي ترفع اليه مع بقائه في وظيفة قائد لعرب (الكلاكله) الذين هم أقاربه فازداد نفوذه بين أولئك الاعراب حتي صاروا يحكمونه فيما شجر بينهم

وكانوا يقصدون داره زرافات لهذا الغرض ويقدمون له الهدايا وكانت أخباره تصل الى التعايشي الذي كان يكره تزلف الناس الى غيره فيغض الطرف عنها ولا يبدي لعبد القادر شيأ يكدره

وفى ذات يوم جاء رجل يحمل البريد للتعايشي من احدي الجهات فقال له عبد القادر سلمني المظروف الذي باسم التعايشي لاسلمه له فدفعه له فاخذه وذهب الى المسجد ووضعه أمامه مما يلي مقصورة التعايشي حتى اذا فرغ من الصلاة ناوله له فتركه وذهب الى منزله بعد ان قضيت الصلاة فعثر به احد حراس الخليفة وقرأ عنوانه وسلمه له فاستغرب التعايشي وجود ذلك المظروف فاستدعى الذى جاء به فاخبره ان عبد القادر بن أم مريوم استلمه منه ليدفعه اليه فاستاء من ذلك ولم يكاشف عبد القادر بشيء من أمر المظروف ولكنه أعرض عنه كل الاعراض واقصاه من قربه فعمد عبد القادر الى طريقة يستجلب بها رضي التعايشي فاشار عليه احد اصدقائه بتقديم ابنته هدية للخليفة فقدمها له وكانت بارعة فى الجمال فنالت حظوة عظيمة عند التعايشي فخرج من منزله واستدعى عبدالقادر واثنى عليه وزاد فى تقريبه والاحتفاء به بما أدهش الناس اذ لم يكونوا عالمين بسبب الجفاء والابعاد الاولين كما انهم كانوا يجهلون اسباب هذا التقريب الفجائى ولكن ظهرت الحقيقة بعد ايام قلائل وصار عبدالقادر بن أم مريوم أقرب مقربي الخليفة الذي آنس هو منه شدة الميل الي قضاء شهواته من الفتيات الحسان فاخبره بوجود فتاة جميلة هى بنت رجل من أهالي (الكلاكله) أقاربه فارسله الى ذويها يطلبها منهم فبعثوا بها اليه فراعه جمالها ولكنه لما اقترب منها وجد خفاضها ليس على طريق خفاض النساء فى السودان فسأل أهلها عن سبب ذلك فقالت ان عبد القادر بن أم مريوم أشار

على أهلها ان يعملوا بها هذا العمل فاحتدم التعايشي غيظاً وخرج من غرفته ليلا وأمر عشرة من رجاله أن يحضروا قطعة من جلد بقر ني، ويقبضوا على عبد القادر ويضعوا قطعة الجلد على عينيه ويتركوها عليها حتى تجف ويغلوا يديه ويسافروا به الي الابيض عاصمة كردفان واعطاهم أمرا الى عامل كردفان باستلام عبدالقادر منهم وزجه في السجن فذهب الرجال الى منزله ليلا وهجموا عليه بصورة مزعجة وساقوه من بين أهله واولاده وانفذوا ما اشار به التعايشي وسافروا به ليلا قاصدين كردفان واصبح الخبر شائعا في المدينة والناس لا يعلمون اين ذهب به الذين قبضوا عليه وخرج التعايشي علينا لصلاة الظهر والغضب ظاهر على وجهه والشرر يقدح من عينيه وبعد انقضاء الصلاة عاد فدخل الى منزله ولم يتكلم بشيء يختص بابن أم مريوم ولا بغيره ثم لزم السكوت ولم يتكلم بشيء ما عن هذه المسألة وبعد نحو ثمانية عشر شهرا جاء عبد القادر بن أم مريوم الذى ظل فى سجن كردفان وعيناه معصوبتان لا يعرف فى أى بلد هو ثم بعد ثمانية أشهر أمر التعايشي بازالة الجلد عن عينيه فازيل ولكنه مكث اياما لا تبصر عيناه شيأ ومكث بعد ذلك نحو عشرة شهور فى سجن كردفان ثم اعيد الي ام درمان وأطلق سراحه ولم يعده التعايشي الي سابق قربه

ولما اعاد التعايشي عبدالقادر بن ام مريوم اعاده بهيئة مزعجة حيث بلغت اظفاره منتهى الطول وشعر رأسه ولحيته يكاد يستر جسمه وكان مسجونا فى غرفة ليس فيها غير نافذة صغيرة يناولونه الماء والخبز منها ومن أعان ظالما سلط عليه

ذكر قصتي المرأتين

المرأتان هما حماة عبد المولى صابون أمير الجهادية وشقيق حمدان أبي عنجة. وقصة الاولى هي انها كانت امرأة أحد صناجق الشايقية ولها منه بنت ذات جمال بارع أخذها المهديون سبية فاعطاها التعايشي لعبد المولى صابون الذي تغالي في حبها وأقبل عليها وترك نساءه ولم يلتفت اليهن

وفي سنة ١٣٠٥ أصيب عبد المولى صابون بداء الجذام ولزم الفراش فجزع التعايشي عليه اذ كان يحبه وأخذ يتردد على داره ليعوده فاغتنم نساؤه فرصة وجود التعايشي عنده للايقاع بالمرأة التي حازت منزلة عند سيدها اكثر منهن حيث تركهن كما قلنا ولم يلتفت اليهن فاجتمعن وقلن للتعايشي ان مرض عبد المولى صابون مسبب من كثرة أعمال السحر والشعوذة التي تعملها له المرأة الشايقية للاستئثار بمحبته فصدقهن التعايشي لانه كان يعتقد السحر والشعوذة ويخاف على نفسه كثيراً منهما فسأل المرأة فانكرت وقالت انها لا تخرج من دارها وأنى لها بالدجالين والمشعوذين الذين يعملون هذه الاعمال فلم يصدقها وعزم على القبض عليها فالح عليه زوجها وتضرع له ان يتركها فقيل له ان امها هي التي تذهب الى خارج الدار وتروح الى الدجالين فاستنطقها فانكرت وقالت له انني لم أصنع شيئاً من الاسحار والشعوذة ألبتة فقال لها ولماذا أصيب عبد المولى بهذا المرض أليس ذلك نتيجة أعمالك السحرية وأمر بقطع يدها فقطعت وتوفيت بعد بضع ليال

ولشدة جبن التعايشي خاف على نفسه من مثل ما أصيب به عبد المولى

أهل دارفور بنتها من نسائه الأول وقد رزقت منه بولد وكان يمنع أقارب نسائه من رؤيتهن حتى ان المرأة كانت تظل عامين أو ثلاثة لا يؤذن لها بالدخول في بيته لرؤية بنتها وكان خصيان التعايشي يعظمون هذه المرأة ويكرمونها نظرا لاحفادها أولاد التعايشي ولذا كانوا يدخلونها خلسة لرؤية بنتها وفي ذات يوم رآها التعايشي لابسة تمائم كمألوف عادة نساء السودان اللواتي يلبسن أحجبة كبيرة فأمر بالقبض عليها وتمزيق أحجبتها التي جعل يتأمل فيها كأنه يقرأ ما فيها بادية عليه علامات الدهشة والاستغراب وبعد أن أمر بسجنها نفاها الى خط الاستواء فماتت جوعا في الطريق وعاقب الخصيان أشد العقاب وقطع يد الذي اذن لها منهم في الدخول فتأمل

ذكر رسالة محمد ماهر باشا للمؤلف

كنت قد عرفت محمد ماهر باشا محافظ القاهرة الآن منذ كنا تلميذين في المدارس واتصلت المحبة بيننا من ذلك العهد

ولما وليت على مديريات خط الاستواء كان هو وكيلا لبراوت بك الامريكاني الذي كان حاكماً على تلك الاقاليم قبلي. وفي أوائل سنة ۱۳۰۶ أمر التعايشي بهدم منزلي ومنازل جيراني لتوسيع موردة أم درمان فوقعت في حيرة شديدة لما كنت فيه من الاعسار وزيادة علي ذلك اني كرهت المقام بجوار يوسف منصور فعزمت على الاقامة بجوار السوق في حي المسلمانيين ولكنني كنت غير قادر على انفاذ هذا العزم لما كنت فيه من الفقر المدقع وبينما أنا في هذه الشدة طرق باب داري طارق بعد العشاء فسألته عن اسمه فلم يجاوبني فداخلني الخوف وظننت أنه جاسوس وامتنعت من فتح الباب له

وأخيراً خفض صوته وقال لى انى آت اليك برسالة من مصر فطار عقلي ولم أشك فى أنه عين عليّ فانتهرته من داخل الباب وقلت له اذهب أيها الكاذب فاسرع الرجل بالانصراف خوفا على نفسه أيضاً وبت ليلتي وأنا خائف أترقب وفي ضحوة الغد جلست أمام بابى فجاءنى رجل بزى التجار المصريين فسلم عليّ وقال لي انني جئتك البارحة لأدفع لك نقوداً وكتابا من أخ لك في أصوان فقلت له انى أخاف أن تكون عيناً عليّ فان كنت صادقا فأقسم لي على المصحف الشريف أنك صادق فيما تقول وانك لست بجاسوس فحلف لي على المصحف فاطمأننت وسكن روعي ثم دفع الى كتاباً ففضضت غلافه فرأيت فيه توقيع محمد ماهر باشا فقرأته فاذا فيه السؤال عن صحتي وانه مرسل اليّ باربعين جنيها انكليزيا ورجاني أن أخابره عن كل مايلزمنى ثم دفع اليّ الرسول الاربعين جنيها فأحببت مكافأته باعطائه خمسة جنيهات فلم يقبل وقال لي ان الذى أرجوه منك هو أن تكتب لى كتابا الى أخيك محمد ماهر محافظ أصوان بانى أسلمت اليك الاربعين جنيها تامة لتظهر أمانتى عنده فوعدته بذلك ثم انصرف وعاد اليّ فى المساء بهدية من السكر والصابون والبن والملابس فكتبت له الكتاب بما أراد وأودعته ذكر الهدية التى قدمها لى الرجل من نفسه. فجزى الله عنى الشهم الهمام محمد ماهر باشا خير الجزاء، وبلغه مأموله فى الدنيا والآخرة آمين

وعلى أثر ذلك ذهبت الى حيّ المسلمانيين وبنيت فيه منزلا انفقت عليه اكثر من مائة ريال فذهب يوسف منصور وأخبر الخليفة بانني سكنت في حي المسلمانيين وطلب منه اخلاءه عن المسؤلية اذا فررت فاستدعانى

وعدت الى جوار يوسف المذكور

ومن الحوادث التي اتفقت لي بعد عودتي انه كان لي ابن اسمه محمد ولد بعد سقوط الخرطوم ببضعة شهور وكان عمره وقتئذ ثلاث سنوات وكان يراني اختبئ في قعر بيتي وأدخن السجاير وفي ذات يوم أخذ الورق الذي ألف فيه الدخان وقعد امام المنزل ولف فيه رملا على هيئة السجاير واتفق ان حسن ابن حسين أمير المصريين جاء لزيارتي وكان شديد التعلق بالمهدوية لكنه كان يحب بني جلدته المصريين ويغار عليهم ويدفع عنهم كثيراً من المصائب فخرجت للقائه فرأى ابني محمدا وبين يديه سجائر الرمل فسأله قائلا ما هذه يابني فقال له ان أبي يصنع مثل هذه ويشعلها بالنار فيخرج الدخان من انفه وفيه ففطن حسن حسين لكلامه وادرك انى أدخن في منزلي فهالني ذلك وانتهرت ابني فقال لي اذهب الى داخل البيت وآتي بالسجاير التي تدخنها فاسكته حسن حسين والتفت الي يحذرني من وخامة العاقبة اذا شاع عني ذلك ولم ينلني منه أقل مكروه لانه كان كما قدمنا مصريا لا يرضى لقومه ان ينالهم سوء من المهدوية بالرغم عن تعلقه بها وبعد انصراف الزائر أمسكت الغلام وأوجعته ضربا كيلا يعود الى مثلها

ذكر مسألة الشيخ محمد عبد الماجد وصلبه

كان في أحد أحياء أم درمان القريبة من سوقها رجل من اهالي مديرية بربر وكان ذا تدين وورع وكان ناقما على المهدوية منكرا كل أعمالها وكان الخليفة كما تقدم قد حذر الناس من الاجتماع لجمعة أو جماعة في غير مسجده وكان الشيخ محمد عبد الماجد ملازما لمنزله منقطعا عن شهود الجمعة مع المهديين

وجماعتهم وكان جيرانه وجلهم مصريون يجتمعون في منزله فيصلي بهم جماعة ثم يعظهم ويبين لهم فساد دعوي المهدوية ومخالفة مدعيها للشريعة المحمدية الغراء حتى أفتى بوجوب قتال هذه الفئة الضالة فنمي خبره الى التعايشى الذي أرسل اثنين من خاصته حضرا مجلسه وسمعا مايقوله وعادا اليه فاخبراه به فارسل اليه مائة رجل قبضوا عليه وعلى جارين له احدهما مصري وطرحوهم فى السجن وكان الوقت ليلا وفى الغد عقد مجلس اجتمع فيه القضاة كلهم برئاسة الخليفة على حلو وقدم الرجل وجاراه للاستنطاق وكان المجلس هائلا اذ كانت القضاة والرئيس محاطين بألوف من الفرسان والمشاة والسيوف مسلولة على رؤسهم فلم يهب الشيخ محمد عبد الماجد هذا المنظر الهائل بل جلس ثابت الجنان ولما سئل اعترف بكل ماسند اليه من التهم وسردها معززة بالادلة الشرعية وقال لهم هذا هو الحق وانتم فى ضلال وأنا أدعوكم الى التوبة والعدول عنه أما صاحباه فانكرا انهما يعرفانه وادعيا ان ليس بينهما وبينه علاقة وهما فى ذلك صادقان اذ أحدهما لم يكن ساكنا في هذا الحي بل جاء لزيارة الثاني الذى هو تاجر مشغول بتجارته لاعلاقة له مع هذا الرجل الذى أفحم من في المجلس بادلته حتى احتدم من فيه بالغيظ والحنق عليه فامروا بالرجل وصاحبيه ان يصلبا فسيقوا يحيط بهم بضعة آلاف رجل حتي قدموا الى المشنقة فصلب الشيخ محمد عبد الماجد الذي كان من أمره انه لما اقترب من المشنقة صعد الى الكرسي ساكن الجاش وفاه بكلام يدل علي انه آثر الموت دفاعاً عن الحق وانتصاراً للملة الحنيفية فرحمه الله رحمة واسعة واكرمه بكرامة الشهداء أما صاحباه وهما عبد المجيد حسن ومحمد نور فاعيدا الى السجن وعوفيا

ذكر تشييد قبة المهدي

سردنا كثيراً من أعمال التعايشي بعد وفاة سلفه المهدي ولما كان بعضها يدل دلالة صريحة على انه انما كان يظهر اعتقاد دعوي المهدية حرصا على سلطانه الذي ورثه من وراء هذه الدعوى ويدل علي ذلك انه صادر أموال أقارب المهدي واضطهد أولاده وصار يحقرهم في مجالسه الخصوصية ويعيرهم بانهم دنقليون لا يصلحون الا لحراسة الابواب والاشتغال بمهنة ملاحة السفن وتداولت الالسن هذه الاقوال وعدها الناس دليلا ساطعا على انه لم يكن مصدقا بالمهدي وانما كان يرائي الناس عزم على تشييد قبة على قبر المهدى ليبرهن للناس على عكس ماخالج صدورهم فكلف مهندسا مصريا اسمه اسماعيل افندى فوضع رسما لهذه القبة ذا أربع زوايا يبلغ طول كل زاوية منها سبعة عشر ذراعا وجعل عرض الاساس اكثر من مترين وبعد رفع البناء نحو خمسة امتار جعلوه مثمنا ثم مستديرا وفى يوم وضع الاساس اقيم احتفال كبير وذبحت البدن والثيران والخرفان وقدمت الاطعمة للالوف من الحاضرين وامسك التعايشي بيده معولا وبدأ بحفر الاساس

أما الاحجار فانهم كانوا يجلبونها من انقاض منازل الخرطوم التى كانوا يهدمونها ومن انقاض ديوان الحكمدارية والمديرية والارصفة التي على ضفة نهر المقرن وأنقاض ماهدم من الكنيسة الكاثوليكية. وجميع البنائين الذين بنوها مصريون أما الفعلة فهم متطوعون من الدراويش والامراء وكان البناؤن يقضون اياما عديدة فى العمل ولا يعطون شيأ ماوفى بعض الايام جلس التعايشي وكلم من حوله قائلا ان الذين يباشرون بناء قبة المهدي في الحقيقة هم الملائكة اما الذين

ترونهم من البنائين والفعلة فلا عمل لهم فى الحقيقة بل هم متحركون بارادة الملائكة فقال المهندس اسماعيل أفندي للبنائين أسمعتم ما قاله الخليفة فقالوا بلى فقال لهم ان الخليفة اعتبركم ملائكة في الحقيقة وهذا الاعتبار هو الذى حال دون اعطائكم شيأ من الاجرة لان الملائكة فى غنى عن الطعام والشراب اللذين من كان منزهاً عنهما لا يعطي شيأ من أجرته فضحكوا وتعجبوا من وقاحة الخليفة وبعد سنة تم تشييد القبة ووضعت في داخلها المصابيح وفرشت بالابسطة وأحيط القبر بمقصورة من النحاس ووضع عليه تابوت من الخشب صنعه نجارون مصريون ووضع على التابوت كسوة من الجوخ وثريات من الفضة والذهب وصار الناس يقصدونها للزيارة فى كل يوم

ذكر المجاعة في سنتي ١٣٠٦ و١٣٠٧

لما كانت هذه المجاعة قد لحقت السودان كله وكانت أسبابها مختلفة رأينا ان نذكر تأثيرها فى كل إقليم على حدة مبتدئين بذكرها فى أم درمان فنقول

المجاعة في ام درمان والجزيرة

من عادة أهل الجزيرة انهم يخزنون محصولاتهم من الذرة اتقاء شر المجاعات التي تنتاب البلاد بسبب انحباس المطر عنهم

وقد ذكرنا ان التعايشي لما أصدر الاوامر لاهل الجزيرة بمغادرتها وسكني أم درمان عادوا الى بلادهم فوجدوا المخزون من محصولاتهم قد نهبه الجهادية وفى سنة ١٣٠٦ لم تجد السماء عليهم بمطر فانتدب التعايشى ابراهيم عدلان أمين بيت المال ومعه ...

ما بايدي الاهلين من الحبوب وأخيرا أصدر التعايشي أمره بمصادرة نصفها وترك النصف الآخر لهم فارتفع ثمن الذرة حتى بلغ ثمن الاردب منه أربعين ريالا مجيديا اى نحو سبع جنيهات انكليزية واغتال ابراهيم عدلان ومن معه من المندوبين عشرة آلاف أردب تقدر قيمتها باربعمائة الف ريال

وكانت بلاد العبيد الواقعة جنوب الخرطوم قد هطل فيها المطر بكثرة فهرع التجار اليها لجلب الغلال منها فأصدر التعايشي أمرا باخذ نصف جميع الغلال التي تجلب من خارج أم درمان بسعر ست ريالات من الريال المسمي المقبول تباع لاقاربه التمايشة الذين تقدم لنا ذكر وصولهم لام درمان فارتفعت الاسعار وعز وجود القوت وهلكت أهالي القرى الواقعة جنوب سنار وبادوا حتى صرنا ندخل القرية فلا نجد فيها دياراً والناس أموات على أسرة نومهم وداخل حجراتهم هم وأولادهم ولم تصب كردفان بشيء من هذا القحط اذ كانوا أمطروا بمطر غزير أحيى موات الارض وأنبت الزرع فهرع التجار اليها ليجلبوا اغلتها كما هرعوا الي بلاد العبيد وكان ثمن الاردب من دخن كردفان لا يتجاوز ريالين ولكن لا توجد جمال للحمل وانى توجد وقد قصصنا عليك فيما تقدم ما حاق بالابل والقبائل الرحالة فكانت أجرة حمل الاردب من كردفان الى أم درمان أخذ نصفه ثم كانت النتيجة صعود الاسعار في (كردفان وفشوده) اللتين هرع الناس اليهما لجلب الاقوات منهما واشتدت وطأة المجاعة وتضاعفت ويلاتها وزاد الطين بلة تفشي الطاعون البقري في ماشية السودان تفشيا مريعاً حتى هلك جل البقر ولم يبق منه في انحاء السودان كله الا شيء قليل جداً فارتفعت أسعار اللحوم وساءت الاحوال وفي أواخر السنة هطلت الامطار فتفاءل الناس خيرا وجادت الارض بمحصول وافر ولكن قبل اوان الحصاد

بضعة أسابيع نزل الجراد على المحصول فالتهمه ولم يبق منه شيئاً ودخلت سنة ١٣٠٧ والمجاعة لا تزال في أم درمان والجزيرة ولكن الاسعار هبطت الى النصف حيث بيع الاردب بعشرين ريالا مجيديا وليس لذلك من سبب غير فناء الناس ويقول الخبيرون ان الذين هلكوا بالمجاعة لا ينقصون عن ثلاثة أرباع السكان

المجاعة في اقليم بربر

ذكرنا ماكان من أمر عزل محمد الخير عن بربر وتولية عثمان الدكيم عليها وفي أوائل سنة ١٣٠٦ حين بدأ القحط بام درمان والجزيرة أصدر التعايشي منشوراً بمنع ارسال الاقوات الى بربر وتوعد من حملها اليها بالقتل ووضع حراسا على ضفة النهر لمنع السفن التي تحاول الوصول الى شمال أم درمان ثم أصدر أمراً الى عثمان الدكيم حاكم بربر ببث الرجال في انحاء البلاد لاتلاف الزرع قبل استوائه فقلع الزرع وطوله نحو شبرين وبعد ذلك أمر بقطع السبل ومنع أهالي بربر من مغادرة ديارهم وخطب على المنبر خطبة عدد فيها سيآت الجعليين سكان ذلك الاقليم ولم يترك وصمة الا نسبها اليهم وقال انهم اغتالوا المال يوم فتح بربر ولما أرسل لهم المهدى المنشورات وأمرهم برد ماغلوه من الغنائم كادوا يثورون على المهدي ويخرجون عن طاعته وكان الانكليز وقتئذ زاحفين على (بربر وابو طليح) ثم أمر أن لا يترك زرع لهؤلاء المنافقين وأن يحجر عليهم ليموتوا جوعا في بلادهم فنفذت اوامره وهلك الجعليون وماتوا في مضاجع نومهم ولم ينج منهم الا نحو العشر وبلغ ثمن الكيلة

المجاعة في دنقلة

اما المجاعة في دنقلة فمن أهم أسبابها انخفاض النيل في تلك المديرية لان ري مزروعاتها مثل ري اطيان صعيد مصر يتوقف على زيادة النيل

وزد على ذلك ان المهدوية منذ حلولها في دنقلة حافت على النفوس وصادرت الاموال وبلغ ثمن الكيلة من الذرة عشرين ريالا ولكن ساعد على تخفيف وطأة المجاعة وجود التمر بكثرة في دنقلة من محصولات النخيل

المجاعة في كسلة

ذكرنا ان التعايشي فصل مديرية كسلة عن سلطة عثمان دقنة وولى عليها قريبه حامد بن على الذى حكمها بصرامة وصادر أموال قبائلها وقطع السبل عليهم فهلكت القبائل ونزح اكثرها الى بلاد الحبشة وهلكت قبيلة الهدندوة التي كان عدد نفوسها نحو مليون نسمة . ومما يجب ذكره هنا ان حامد بن على أرسل الى التعايشي نحو مائتي ألف ريال عدا الذهب والفضة اللذين سلبهما من الاهلين

المجاعة في القضارف

ذكرنا القضارف وخصوبة تربتها وكثرة حاصلاتها ولما تفشت المجاعة في السودان فى أوائل سنة ١٣٠٦ لم تكن وطأة القحط شديدة على تلك الجهة وفي بداية سنة ١٣٠٧ زحف الزاكى عامل من القلابات بعد ان ترك بها حامية لا تتجاوز ألف مقاتل الى القضارف ووزع جنده في القرى فانتهبوا ما بايدى الناس من الغلال وجمعها فى بيت المال وأمر أن لا يباع الاردب منها الا بمائتي ريال

فهلك الناس واكلوا الميتة والجلود واكل بعضهم أولادهم وقد حكى لي من كان بالقضارف وقتئذ ان احدى نساء الامراء توفيت بغتة وكانت ضخمة الجثة فقام أناس ممن عرفوها ونبشوا قبرها في الليل وقطعوا لحمها وانضجوه في القدور واكلوه قبل ان يسفر الفجر وفي الغد وجد القبر منبوشا ففتشوا المنازل فوجدوا فيها لحوم الآدميين وعظامهم مما يدل على ان أهالي القضارف كانوا يقتاتون بلحوم بعضهم ولذلك لم يعرف من نبش قبر تلك المرأة

ولم ينج من مخالب المجاعة في القضارف غير أولي اليسار ولقد رأيت في ام درمان رجلا من اهل القضارف متسولا وقد كان راس مال تجارته لا يقل عن مائة الف ريال وكان له نحو الفي مملوك يشتغلون بحراثة أراضيه الواسعة فذهب رأس ماله وأراضيه ومماليكه في شراء الغلة حتى خرج من تلك السنة لا يملك شروى نقير. والحاصل ان القضارف لم يبق فيها من السكان اكثر من بضعة آلاف نسمة وهلكت قبيلة (الضباينة) ايضا وهي قبيلة رحالة كبيرة تفوق قبيلة الشكرية التي تقدم ذكرها ماشية ونفوسا

وأما كردفان فقد قلنا ان المطر هطل فيها بكثرة فرويت ارضها ونجت حاصلاتها من الجراد وبالرغم عن ذلك كله وقعت في المجاعة لان التعايشي جمع اكثر من عشرة آلاف فارس من أقاربه وانفذهم اليها فنزلوا القرى ونهبوا ما بايدي سكانها من الحبوب وذبحوا ماشيتهم فارتفعت أسعار الحبوب وفشت المجاعة في البلاد حتى تجاوز ثمن الاردب عشرين ريالا أما مظالم المهدوية في كردفان فحدث عنها ولا حرج اذ قد تجاوزت حد المعقول وبعد ان كان أهاليها اغنى أهالي السودان لان الصمغ وريش النعام من اكثر محصولات بلادهم صاروا في نهاية الفقر المدقع وخربت قرى عديدة

وهجرها سكانها ولحقوا بالجبال التي حوالى كردفان وسكنوا بها ليبعدوا عن المهدويين وظلمهم الفاحش

وأما دارفور فقد اجتاحت الحروب بلادها وفشى القحط فى ارجائها وخربت بلادها ونزح اكثر سكانها الى الجهات الغربية واستوطنوها ومنهم من اعتصم بالجبال ولحق بها . والخلاصة ان البلاد السودانية كلها قد عضت بناب القحط وحل الخراب والدمار محل العمار حتي صارت تلك البلاد كلها ينطبق عليها قول الشاعر

أمست خلاء وأمسى أهلها احتملوا ‌ ‌ ‌ ‌ أخنى عليها الذي أخنى على لبد

وليس لذلك من سبب سوى قصد التعايشي حلول هذه المصائب بأهالي تلك البلاد ليضعفهم ويأمن عاقبة ثورتهم عليه فانه لو لم يرسل الجهادية ويوعز اليهم بنهب محصولات الجزيرة لما وصل حال المجاعة الى الدرجة التي وصفناها لان أهالي السودان يخزنون الغلال بكثرة حتى ان الواحد منهم ليخزن فى السنة غلة تقوم بقوته عدة سنوات اتقاء شر المجاعات التي تنتابهم في اكثر السنين وقد علمت ان مجاعة الجزيرة لم تصل الى الحد الذى تقدم لنا ذكره الا بعد ان صودرت غلات اهلها ومجاعات بربر لم يقصد بها التعايشي غير هلاك أهلها وكذلك مجاعتا كسلة والقضارف قد علمت أسبابهما وكل ذلك لم يقصد به التعايشى الا اضعاف الاهلين فانه لما أحس بامتعاضهم منه وخشى عاقبة ثورتهم عليه لم يغير سياسته العوجاء التي أوجبت امتعاضهم منه بل عمد الى اهلاكهم وفنائهم ليصبح آمناً على مركزه ويبيت مطمئنا على ملكه فصار مثله مثل البوم يسر بالخراب اكثر من العمران

ونقل لي ثقة أن احد مقربي التعايشي قال له يوما ان الكلب اذا جاع

لزم سيده فقال له التعايشي ان قتل الكلب ومحو اثره من الارض خير من اجاعته وكان قصد ذلك المقرب من كلامه أن يصادر التعايشي غلات رعاياه فتكون نتيجة ذلك الجوع فاجابه بان موتهم خير من هذه الطريقة

أما ماأصاب المؤلف من هذه المجاعة فانه يفوق الوصف فمن ذلك أني ذهبت يوما الى دور البقارة لالتقاط الحبوب المبعثرة حول اسطبلات الخيول وبعد ان جمعت نحو مدين منها جاءني اعرابي فاخذه مني فيئست من الحياة وكدت أهلك انا واولادي لو لم تصل الي نقود مرسلة من صديقي الوفي محمد ماهر باشا محافظ مصر الآن اذ بها امكنني أن أتخلص من مخالب المجاعة الاولى حتى دخلت سنة ١٣٠٧ وهبطت أسعار القوت الى النصف والذين استطاعوا الخروج من هذه السنة من أولي اليسار لم يخرجوا الافقراء لايملكون شروى نقير أما الفقراء فقد ماتوا رحمة الله عليهم

وقد ملك التعايشي كثيرا من اقاربه البقارة الاراضي التي مات اهلوها في سني المجاعة فانطلقت ايديهم في البلاد بالسلب والنهب وما بقي في ايدى الاهلين من مواد الحياة اصبح عرضة لعبث البقارة ومع ذلك كله كانوا ناقمين عليه غير راضين باحكامه حتى أنهم كانوا يحنون الى ديارهم ويودون العودة اليها

ذكر فرار الغزالي وقتله

الغزالي بن احمد خوف زعيم قبيلة التعايشه وكان ذا ثروة واسعة من الماشية ونفوذ عظيم في قبيلته وكان فارسا صنديدا تهابه القبائل وتتقي بأسه الاعداء

ولما استقدم التعايشي قبيلة التعايشة ليشد بها عضده وعد زعيمها الغزالي بان يجعله وزيره وبذلك تمكن من استمالته

وكان الغزالي بعد وصوله أم درمان يستنجز التعايشي الوعد فلا يجد منه غير المماطلة والتسويف وكان من سياسة التعايشي ان يسند الوظائف الى ضعفاء البقارة وزعانفهم ممن تؤمن غائلته لا الى من يكون فارسا قوى الشكيمة مثل الغزالي خوفا من استمالته الناس بقوته وحزمه

ولما يئس الغزالي من نيل ما تتوق نفسه اليه من الرئاسة وشاهد مظالم التعايشي وسوء تصرفه وطن عزمه على الفرار من أم درمان واللحاق ببلاد التعايشة في دارفور حيث يلحق بالذين تخلفوا عن مرافقته الي أم درمان من قبيلته وكان يظن ان اكثر قومه الذين جاؤا معه يرافقونه ولا يتقاعدون عنه ولكن خاب ظنه ولم يتبعه الا أحد مواليه وابن أخته فغادر الثلاثة أم درمان في أول الليل وساروا متجهين الى جهة الغرب وفي الغد نمي خبرهم الي عبد الله التعايشي فامر نحو سبعمائة رجل ان يتأثروهم وبعد مسيرة بضع ليال ادركوهم في الطريق وقد بلغوا جهة يقال لها (كجمر) بالقرب من بلاد كردفان الشمالية فوقف الغزالي وقفة من لا يحسب للموت حسابا وأطلق على رجال التعايشي النيران من بندقيته حتي طرأ عليها خلل أوقف متابعة الاطلاق فامتشق حسامه حتي أحاطت به الخيل وقتلوه وحملوا رأسه الي التعايشي اما رفيقاه فقد وقعا أسيرين وقفل القوم راجعين الى أم درمان . وقد ساء وقع هذه الفاجعة في قلوب التعايشة واشتد حنقهم على عبد الله التعايشي وسيأتى ذكر شيء من نتائج هذه المسألة

هذا وقد تقدم لنا ان نحو النصف من قبيلة التعايشة كرهوا ان يرجعوا

الي أم درمان فغادروا ديارهم ولحقوا ببلاد (وداى) ولولم يغتر الغزالي بسراب وعود التعايشي ويجب دعوته لما جاءالى أم درمان أحد من قبيلة التعايشي التى كان مجيئها شؤما وويلا على البلاد وعلى كل حال فان الغزالي ذهب كما ذهب غيره من الذين ساعدوا المهدوية وعاونوا المهدي وخليفته على المظالم ولا غرو فمن أعان ظالما سلط عليه

وكان يعقوب شقيق التعايشي يضمر السوء للغزالي ويخاف على مركزه منه لزعامته على قبيلة التعايشة ولذا سعى بينه وبين أخيه التعايشي حتي أوقع النفرة بينهما لينام مطمئنا فى منصبه الذى كان حريصا على بقائه فيه

ذكر صلب ابراهيم عدلان امين بيت المال

ذكرنا ماكان من أمر عزل أحمد سليمان أمين بيت المال واسناد منصبه الى ابراهيم عدلان الذى كان صنيعته وأحد اعوانه في بيت المال

ولما مات المهدي وظهر مايضمره التعايشى لأحمد سليمان مال ابراهيم عدلان عنه وصار يشى به عند التعايشي حتي بوأه منصبه وقربه منه وصيره من ذوى شوراه فاستخدم هذا المنصب وجمع بسببه أموالا طائلة وقد أشرنا الى ما اغتاله من الغلال في سنة المجاعة الاولى والحاصل انه أصبح ذاثروة كبيرة تعد بمئات الالوف وتمكن الغرور منه حتى صار ينازع يعقوب في النفوذ ويسعى به عند أخيه التعايشى الذى كان يندهش من جرأته ويخفي تأثره من وقاحته التي دفعته الى منازعة أخيه وقد رأيت ابراهيم المذكور جالساً بحضرة يعقوب غير مكترث به ولاجاث على ركبتيه كما يفعله

وصار ابراهيم المذكور ذا نفوذ عظيم وشاد لنفسه داراً واسعة ملأها بالمحظيات من الغنيات الحسان وجمع حوله عدداً كبيراً من الغلمان وتغالى في اظهار الابهة وتمادى في الغرور حتى حسده القريب والبعيد واكثروا من السعاية به عند التعايشي وكان يعقوب في طليعة أولئك الواشين

وفي أواخر سنة ١٣٠٥ قبض عليه التعايشي وزجه في السجن وصادر ما ظهر من أمواله حيث لم يمتد الى جميعها ثم اطلقه وأعاده الى منصبه

وفي جمادي الثانية سنة ١٣٠٦ نفدت الاقوات التى كان ابراهيم عدلان صادرها من أهالي الجزيرة كما ذكرناه فيما تقدم ثم دخلت سنة ١٣٠٧ وقد التهم الجراد محصولات البلاد قبل زمن الحصاد وقبل ورود الغلة الى أم درمان حيث لم يجد الجباة محصولا جديداً يأخذونه لبيت المال وهلك الناس من مجاعة السنة الماضية ولم يبق غير أولي الثروة الذين نفد معظم ثروتهم ولم يبق لديهم من المحصول غير قليل من الذرة استبقوه لقوتهم وأصبح التعايشي عاجزا عن تقديم الاقوات الى أقاربه البقارة فعزم على مصادرة ثلاثة ارباع مابقي من الغلال في ايدي أهل الجزيرة فاستدعي ابراهيم عدلان وعرض عليه انفاذ هذا الامر فامتنع من قبوله وقال للتعايشي انما بقى بايدي الاهلين لا يقوم بحاجتهم وان مصادرة هذا القدر منهم ضربة قاضية على من في الجزيرة من السكان فاجابه هكذا أمرت وعليك ان تسافر بنفسك لانفاذ هذا الامر فامتثل وغادر أم درمان وأقام بالجزيرة زهاء ثلاثة أشهر فتكت في خلالها المجاعة فتكا ذريعاً بالبقارة وظل التعايشي ينتظر من وقت لآخر مجيء الاقوات من ابراهيم عدلان الذي لم يوافه بشيء ما وأخيراً عاد الى أم درمان وطفق يخبر التعايشي عما استعقب المجاعة من تدمير البلاد وهلاك

السكان ظنا منه ان هذه الاقوال تكون اعظم شفيع له لدى التعايشى الذى كان لا يجهل صدق قوله ولكنه لما كان يقصد خراب البلاد وهلاك سكانها أظهر تكذيبه واستدعى القضاة فاستنطقوا ابراهيم عدلان عن سبب عدم ارساله الغلال من الجزيرة فاعتذر لهم بما تقدم فاستدعى التعايشي رجلا اسمه (أحمد السنى) من عمال بيت المال فتعهد له باحضار الغلال من الجزيرة فزوده بالاوامر وذهب اليها وبعد ايام قلائل أرسل له السفن مملوءة بالغلال. ويجىء فيما بعد ذكر بقية أخبار أحمد السني وما آل اليه أمره من الرئاسة على الجزيرة كلها ولا يعزب عن القارئ انه قام بانفاذ رغبة التعايشى حيث صادر مابقى بيد الاهلين من اسباب الحياة . على ان امتناع ابراهيم عدلان من انفاذ ما أراده التعايشى عاد بفائدة هى قرب موسم الزراعة حيث كان ما بيد الناس من الغلال يقوم ببعض ضرورياتهم ريثما يجيء زمن هطول الامطار

ثم ان التعايشى قبض على ابراهيم وكبله بالحديد وفى الغد شكل مجلسا لمحاكمته تحت رئاسة الخليفة على حلو فحكم عليه بالاعدام شنقا ونفذ ذلك الحكم بعد ساعتين من صدوره

وابراهيم عدلان هذا أصله من قبيلة حقيرة فى الجزيرة اسمها (الحوالدة) وأمه من قبيلة تسكن (ولد مدنى) يقال لها (المدنيين) وكان يتجر فى كردفان بأموال بعض تجار الاسرائيليين المصريين ثم لحق بالمهدى حينما حاصر الابيض ومن ثم اصطنعه احمد سليمان أمين بيت المال ووكل اليه بيع الارقاء والماشية التي لبيت المال ثم جوزي كما جوزى سنار وسيأتي ان أحمد السني سعي بابراهيم عدلان عند التعايشى فكان من

ذكر بقية اخبار ابراهيم عدلان ومسألة مصادرة العاج

لما ألقى التعايشي القبض على ابراهيم عدلان انتدب الزاكي عثمان البقاري واحمد دي أحد كتبته لمراجعة دفاتر بيت المال وابداء رأيهم في أعماله فقبضوا على كاتب أسرار ابراهيم عدلان وأودعوه السجن وفتشوا بيته فوجدوا ضمن أوراقه وريقة فيها رسم من نوع الرسوم التي يسميها جماعة المشعوذين (الاوفاق) أو (الخواتم) مكتوبا فيها «الملك عبد الله» أي التعايشي وفيها أيضا اسم ابراهيم عدلان فاستنتجوا من ذلك ان تلك الورقة صنعت لاستمالة قلب التعايشي لمحبة ابراهيم عدلان فعرضت تلك الوريقة ضمن أوجه الاتهام التي اتهم بها ابراهيم المذكور فقال قضاة الجهل والظلم ما يأتي «ان تسمية الخليفة بالملك تدل على ان فاعلها غير مصدق بالمهدية ومن كان كذلك فهو كافر ودمه هدر وماله وأولاده غنيمة للمسلمين»

ومنذ استولت المهدوية على أقاليم بحر الغزال وخط الاستواء صار عمالها يجلبون لها العاج وفي آخر عهد ابراهيم عدلان جاءت ارسالية من العاج فاصدر التعايشي أمراً ببيعها من التجار الذين أذن لهم بحملها الي سواكن ليبيعها هناك فتلاعب ابراهيم عدلان في تقدير قيمتها حتي انه كان يبيعها للتجار بنصفها ويشركهم في الربح وأثبت كاتب أسراره انه أعطى أحد أولئك التجار أربعة آلاف ريال وكتب صكاً بينهما على أن يكون رأس المال ديناً على التاجر والارباح مناصفة بينهما فاشتري التاجر بالاربعة آلاف ريال عاجا من بيت المال تقدر قيمته الحقيقية بثمانية آلاف ريال فعقد التعايشي مجلسا من القضاة وقال لهم انه لم يأذن لابراهيم عدلان في بيع العاج وقد باعه وأنفق

ثمنه فى مصارف بيت المال العامة مع ان العاج فيء والفيء من نصيبه الخاص به واستدعى أعوان بيت المال ووبخهم على مافعله رئيسهم ابراهيم عدلان فلم يكن منهم غير الاستغفار والتضرع بطلب العفو وهم لايجهلون ان الآمر ببيع العاج هو التعايشى وفى بيت المال الامر الصادر منه ببيعه ثم أفتى القضاة بابطال بيع العاج وجواز مصادرته من التجار فأرسل مندوبين خلفهم الى سواكن أخذوا ما بأيدى التجار من العاج قبل أن يتصرفوا فيه وكتب التعايشى بدفع العاج المصادر الى تاجر سواكنى اسمه (عمر كشه) ليبيعه بمعرفته ويشترى منه بعض أدوات كيماوية تحتاج لها معامل الخرطوش

وبلغت قيمة ماصودر من العاج أربعمائة ألف ريال مجيدي وفقد أكثر من أربعمائة تاجر رأس مالهم وصاروا فى حالة يرثى لها ولم يبق لديهم نفقة عودتهم من سواكن الى أوطانهم

وأكثر التعايشى من البحث والتنقيب على ثروة ابراهيم عدلان فلم يعثر على شيء منها والمرجح انه غيب أمواله فى جوف الارض ولا يعرف موضعها غيره وستكون نصيب من يخدمه الحظ فيغتنم تلك الخبيئة التي تقدر بمئات الالوف من الذهب

وخلف ابراهيم عدلان فى وظيفة أمانة بيت المال النور ابراهيم الجريفاوى الذي كان أمين بيت مال بربر وقد ذكرنا فيما مضي طرفا من سيرته وأعماله

ذكر حادثة العبابدة وابعادهم

العبابدة قبيلة تسكن حوالي مدينة أصوان وهى تنقسم الى بطنين (العشاباب) و (الملكاب) وهؤلاء أقل عددا من الاولين وقوام معيشتهم

الماشية كسائر الاعراب ولكن بسبب عدم خصب البلاد التي يسكنونها لا تقوم الماشية بمعيشتهم قياما يصرف وجهتهم عن غيرها من سبل الارتزاق

ولما افتتح المغفور له محمد على باشا السودان اشتغل رجال قبيلة العبابدة بمهنة تسيير القوافل التجارية والحربية فى طريق الصحراء بين (كروسكو وأبو حمد) وبالرغم عن قلة عدد المليكاب وكثرة سواد العشاباب استأثر المليكاب بالزعامة على القوافل التى تسير بين مصر والسودان وبالعكس ونبغ منهم رجال احرزوا الشهرة والنباهة في الازمان التى تقدمت ولاية ساكن الجنان محمد على باشا على الديار المصرية

ولما قامت ثورة المهدوية فى السودان كان حسن ابو خليفة بن اخى حسين باشا خليفة قابضا على رئاسة تسيير القوافل بين مصر والسودان فانضم الى المهديين وكتب له المهدى أمرا بالرئاسة على قبيلة العبابدة والدعوة له حوالى مديرية اصوان وشهد بعض الوقائع التى انهزم فيها دعاة المهدى فى اقليم دنقلة

وبسبب استبداد المليكاب بالرئاسة على القوافل دون العشاباب تولدت بينهم العداوة واستحكمت الاحنة فى صدورهم ونالوا من دماء بعضهم مازاد الطين بلة والطنبور نغمة واستقرت العداوة بين تينك البطنين وتوارثها الخلف عن السلف

وقبض كثير من العشاباب على وظائف بريد التعايشي وبعض وظائف بيت المال فاشتدت المناظرة بينهم وبين المليكاب الذين ولي التعايشي رئيسهم حسن أبا خليفة الامارة عليهم ووكل اليهم رئاسة القوافل أيضا وجعلهم مرابطين في (آبار المرات) بين كروسكو وأبو حمد

واستخدمت الحربية أيضا عدداً ليس بقليل من رجال العبابدة ليجولوا في الصحاري وناطت ببعضهم مهنة التجسس للحكومة وصار آخرون منهم يتجسسون للتعايشي فاستحكم النفور بين المليكاب والمشاباب وصار جواسيس الحكومة من المشاباب يسمون عند الحكومة بجواسيس المهدوية ويلحقون بهم المصائب اذا كانوا من المليكاب أما اذا كانوا من المشاباب فلا يتعرضون لهم وربما اعانوهم على قضاء أوطارهم وبمثل هذه المعاملة يعامل المليكاب جواسيس المهدوية فينكلون بالمشاباب ويتركون أقاربهم

ولبث المشاباب والمليكاب يحاربون بعضهم في دائرتي نفوذ الحكومة والتعايشي وينكلون ببعضهم أشد النكال وفى سنة ١٣٠٦ قويت حظوة محمد بشير كرار أحد المشاباب عند التعايشي حتى جعله قائدا لدابته يأخذ بخطامها فى المواكب واتفق ان الحكومة ارسلت صالح بن حسين خليفة الى ابن عمه حسن خليفة للمخابرة فنزل عليه ضيفاً فى (آبار المرات) ثم قفل راجعاً الي اصوان فنمى خبره الى التعايشى فاستشاط غيظاً وكانت وشايات قائد دابته قد تمكنت من قلبه وكتب جمع من الامراء الذين فى بربر والمرابطين في أبو حمد الى التعايشى يتهمون حسن خليفة بالخيانة والميل لجانب الحكومة فاستقدمه التعايشي الي أم درمان فلما قدمها قبض عليه فيها وسجنه وأصدر أيضا أمراً بالقبض على سائر أفراد قبيلة المليكاب من ذكر وانثى وكان معظمهم يسكن حوالى بربر فقبض عليهم وصودرت أموالهم وسيقوا الى أم درمان يرسفون فى القيود والاغلال وسبيت نساؤهم وهم يبلغون بضعة آلاف

شيخا كبيرا وفي أوائل سنة ١٣٠٧ حملوا الى منفاهم في خط الاستواء على السفن الشراعية بغير زاد فمات النساء والاطفال جوعا وهلكت الرجال أيضاً

وعلى أثر ذلك خلا الجو للمشاباب واستأثروا بمنافع دولة التعايشي وانتقموا من اعدائهم شر انتقام وقطع دابر المليكاب من السودان فسبحان من يغير ولا يتغير

ذكر غارة العبابدة علي ابو حمد وقتل سليمان نعمان قمر

ذكرنا ما كان من أمر المجاعة التى فشت في السودان وقد خلت الحدود من المرابطين فيها وقل وجود المقاتلة حتى صار عدد الموجودين بام درمان من المقاتلة لا يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل وبات التعايشى خائفاً يترقب تقدم الجنود المصرية لمناجزته حيث لا يجدون من يدافع عن البلاد أقل دفاع

وزيادة على ذلك ان التعايشى أيقن بانحراف الناس عنه وميلهم لجانب الحكومة على أثر ما أرهقهم به من المظالم والمغارم

قلنا ان الحكومة وكلت حراسة (آبار المرات) الى صالح بن حسين خليفة الذى هاله ما أتاه الخليفة مع ابن عمه حسن أبى خليفة وقومه المليكاب بجمع نحو مائتى راكب من قبيلته وأغار بهم على معسكر (أبو حمد) وانتشبت الحرب بينه وبين من فيه من الدراويش ومعهم سليمان بن نعمان قمر قاتل الكولونيل ستيوارت فاقتحم سليمان صفوف العبابدة وقاتل حتى سقط قتيلاً بينهم فحزوا رأسه واحتملوها

وكانت الحكومة نشرت نشرة فحواها ان من يأتيها برأس

سليمان هذا فله جائزة عظيمة ثم ألغي امر هذه الجائزة قبل قتله ورجع المغيرون من المبابدة بعد ان قتل منهم وقتل من اعدائهم فكوفئ صالح خليفة رئيسهم على قتل سليمان نيشان براتب خمسين جنيها شهريا وقد كان أثر هذه الحادثة على التعايشي سيئا حيث وقع فى روعه ان الحكومة تنوى التقدم لفتح السودان واستدل الناس على ذلك بانه خرج بعد ان قرأ بريد (أبو حمد) فصلى بالناس صلاة العصر ست ركعات ثم سجد للسهو فعرف الناس ارتباكه اذ كانت عادته ان يسهى في الصلاة اذا فوجىء بنبأ يفزعه ثم هدأ روعه بعد ايام حيث علم انها غارة بسيطة ليس وراءها فتح

ذكر موت الحاج علي سعد

الحاج على سعد من قبيلة الجمليين وكان وضيعاً خامل الذكر ذا مهنة دنيئة ولما دخلت دعوة المهدية فى بربر رفع محمد الخير منزلته حتي صيره أميرا على سكان القري الواقعة جنوب نهر (اتبره) ثم كان من أمره مع محمد الخير أمير بربر ما تقدم لنا ذكر طرف منه حيث سعى بمحمد الخير عند التعايشي على أمل أن يخلفه فى امارة بربر وقد وعده التعايشي بالوصول الى غايته وقضاء لبانته فبالغ في توجيه المطاعن الى محمد الخير فعزله التعايشي وولي بدله أحد أقاربه البقارة وقلب ظهر المجن لعلى سعد ثم أمره باحصاء عدد المقاتلة الذين تحت امرته فبلغوا سبعة آلاف مقاتل فأمره بأن يصحبهم الى دنقلة في أوائل سنة ١٣٠٦ لينضموا مع ابن النجومي فغادر على سعد بربر ولحق بابن النجومى فى دنقلة فأحصى من معه من المقاتلة فاذاهم ستمائة مقاتل فقط فكتب ابن النجومي الى التعايشي يخبره بأن مقاتلة على سعد ستمائة رجل فقط

لاسبعة آلاف كما قال فاستاء التعايشي وأضمر السوء لعلى سعد الذى يئس من نيل أمارة بربر وامتعض من التعايشى واخيه يعقوب الذي خدعه وأغراه على الطعن فى محمد الخير توصلا الي عزله واقصائه عن الامارة وأطمعه فى تبوىء ذلك المنصب ثم لم ير منه وفاء بل قلب له ظهر المجن

وفي أوائل سنة ١٣٠٧ استقدم التعايشى على سعد من دنقلة وقدم له غذاء وضع فيه مادة سمية فما كاد يفرغ من تناوله حتى أحس بانحراف شديد فلزم داره وتوفى بعد ليال قليلة بعد أن ظهرت عليه اعراض التسمم

وخلفه فى وظيفته أخوه عبدالله سعد الذي خرج على التعايشي قبل فتح أم درمان فقتله الامير محمود فى من قتله ويحيى. ذكر ذلك فيما يلى ولله الامر من قبل ومن بعد

ذكر موت عثمان آدم وتولية محمود أحمد بدله

ذكرنا ما كان من أمر عثمان آدم أمير دارفور وكيف جمع جيشاً جراراً هاجم به دارفور واستولي عليها بعد ثورة اهل سلطنتها القديمة ثم ما كان من أمر ظهوره على (أبو جميزه)

ولما فرغ عثمان من أمر أبو جميزه عم الدمار بلاد دارفور حيث اباد القحط البعض والبعض الآخر هجروا بلادهم ولحقوا بالبلاد التي فى الغرب وكانت لم تخضع للمهديين مثل بلاد (أبو ريشه) وبلاد (وداى) وغيرها وأخذ عثمان يوالى الغارة على سكان الجبال ليتحصل على نفقات جنده حيث صارت البلاد خرابا لا تقوم ببعض نفقات واقوات أولئك المقاتلة فتحصل

على شيء كثير من الاقوات والماشية ثم وجه عزيمته الي بلاد الغرب لفتح بلاد (مسلات) وبلاد (أبو ريشه) وهما مملكتان واقعتان بين (برقو ودارفور) فظفر ببعض قرى في تخوم تلك البلاد وقصد التوغل لفتح البلاد كلها حتى يقف عند حدود (برقو) فاصيب بحمي خبيثة وقضى نحبه بعد ثلاث ليال فاحتمله جنده وتقهقروا به راجعين الي دارفور وأخفوا وفاته على العامة واقاموا وكيله محمد بشاره مقامه وارسلوا بنعيه الي التعايشي الذي وقع عليه هذا الخبر وقع الصاعقة وسالت الدموع من عينيه لانه كان يحبه ويعتقد فيه الكفاءة في دفع الملمات ومقدراً نجاحه فى دارفور حق قدره

وبعد ايام يسيرة من وصول نعي عثمان آدم أعلن التعايشى نبأ تعيين ابن عمه محمود أحمد بدله

وعلى ذكر محمود هذا نأتى هنا على ترجمته تتميا للفائدة فنقول. انه ابن أحمدى عم التعايشى وكان مولده ببلاد التعايشة بجهة (الكلكه) وقد رأيناه بعد سقوط الخرطوم مع والده وكان عمره اذ ذاك لايتجاوز خمسة عشر عاما ووجهه مشوه بآثار الجدرى والمتربة ظاهرة على اطماره البالية لا يأنف من مديد السؤال الى أولى اليسار من الامراء والوجوه حتى وصلت خلافة المهدويين الى ابن عمه التعايشى. والحاصل أن المترجم كان مثل سائر أقاربه في الغاية القصوى من الفاقة وشظف العيش وأهالي السودان الاوسط يحتقرون سائر البقارة الذين هم في الدرجة القصوى من الهمجية والبداوة الوحشية ولغتهم مع كونها شبه عربية تكاد تكون غير مفهومة. وبالجملة ان المترجم كان بقاريا في جميع أخلاقه وأطواره ولكنه مالبث بعد ان صار قريبه التعايشى ذا سلطان على السودان حتى غير أخلاقه وعوائده وتشبه بأهل السودان

الاوسط واسترسل كعثمان ابن التعايشي فى الدعارة وانهمك في حضور ليالي الرقص والغناء التى ذكرنا بعض اوصافها وتغالي في حب المومسات وجمع حوله عددا ليس بقليل من المخنثين المتشبهين بالنساء وله أخ اسمه ابراهيم الخليل حذا حذوه وسار على وتيرته

وقبيل توليته توفى والده وكان فيما يزعمون بارعا في معرفة علم الرمل ومعرفة البخت مثل ابن أخيه عبد الله التعايشي الذي كان خبيرا بهذا الفن والحاصل ان ترجمة محمود أحمد لا تختلف كثيرا عن ترجمة عثمان ابن التعايشي

وفي أوائل سنة ١٣٠٨ خرج التعايشي لتشييع محمود وسار معه أيضا مندوبون من القضاة ليعلنوا أمر توليته ويأمروا القواد بطاعته

ولما وصل الي دارفور امتعض القواد منه لانهماكه في الشهوات وعكوفه على المعاصي والدناآت وظهر لمرؤسيه الفرق بينه وبين سلفه الذي كان على نهج كبار المهدويين

والحاصل انه قبض على زمام دارفور وبقي بها حتى شغب الدنقليون أقارب المهدى على التعايشي وتحفز الاهلون كلهم للثورة عليه فاستدعاه من دارفور الي أم درمان بجيشه وسيأتي ذكر ذلك في مكانه

ذكر صفة معيشة التعايشي

كان التعايشي قبل ان يفضى اليه الملك مثل سائر بنى جلدته البقارة في الدرجة القصوى من الخشونة والبداوة لا يعرف شيأ من ضروب التنعم في الاحوال المعيشية على طريقة المترفين من أهالي السودان الاوسط التي هي وان كانت عوائد بربرية غير مألوفة الا أنها تعد مدنية بالنسبة لخشونة البقارة

الذين لايعرفون من أنواع الاطعمة غير العصيدة وادام (المندجية) الذي سبق لنا تعريفه ولحوم الصيد

وقدكان التعايشي عريقاً فى هذه العوائدوكان يتطيب بكبريت العامود ذي الرائحة الكريهة التى تنقبض النفس من شمها وكان احسن الطيب عنده وهذا بخلاف اهالي السودان الاوسط فانهم يتطيبون بعطور الصندل والمحلب وغيرها من أنواع الطيب التي يتخذها المصريون ويغرون من رائحتها والحاصل أن عوائد التعايشى وقومه تباين عوائد اهالى السودان الاوسط وتختلف عنها اختلافا كبيراً وهى كما قلناني منتهى الخشونة والبداوة

وكان قبل افضاء الخلافة اليه نحيف الجسم مقوس الظهر كانه شيخ هرم طويل الوجه غائر الصدغين المنتشر بهما آثار الجدرى

وكان يلبس مرقعة بالية ممزقة يظهر جسمه من خلال خروقها ويتعمم على قلنسوة من (الدمور)

ولم يلبث بعد ذلك حتى نبذ عوائده كلها ولبس المرقعات النظيفة وتشبه بالمهدى فى ملابسه واخذ يتطيب بعطر المحلب والصندل وصار يأكل الاطعمة المصرية التى كان يقوم باتقانها نسوة مصريات من أهل الخرطوم وجمع عنده نحو مائة وعشرين امرأة من أجمل نساء السودان وضخمت جثته وتغيرت سحنة وجهه حتى انه يخيل للناظر اليه انه شخص آخر غير التعايشى ولكن لم تمض عليه ثلاث سنوات حتى تنغص عيشه بما اعتراه من ضعف أعضاء تناسله وخمود شهوته فاستدعى طبيباً مصريا اسمه حسن زكي من أطباء الحكومة السابقين وتاجرين اسم أحدهما محمد طه الشامى واسم الثانى بدليه اليوناني وشكا لهم ما انتابه من الضعف وفقدان الشوق وسألهم ان

بحثوا له عن الاشياء التي تقوي الباه وأكد عليهم في الكتمان فذهبوا وبعد المداولة قر رأيهم على ان يحضروا له شيأ من العنبر مضافا على نوع الحشيشة المطبوخة المسماة (قراوش) فقصدوا محل رجل كان يبيع الحشيشة سراً اسمه بكتاش أغا وعادوا بالقدر الكافي ثم طبخوه مع العنبر ووضعوه في حق وذهبوا الى دار التعايشي الذي فتحته رائحة العنبر فأمرهم ان يأكلوا منه بحضرته خشية ان يكونوا قد دسوا له فيه السم فأكلوا منه فشكرهم واجاز كل واحد منهم بعشر ريالات وأكثر من أكل هذا النوع حتى نفد فأمرهم بتجهيز غيره وصار ذلك عادة له لا يقدر على تركها

ذكر حادثة البطاحين

البطاحين قبيلة بدوية تسكن شرق النيل الازرق غرب صحراء (ديره) وماشيتها من الغنم والبقر وبعض الابل ورجالها مشهورون بالشجاعة والاقدام مع قلة عددهم وكلهم لصوص وقطاع طرق ولا توجد عصابة سطو أو جمعية سلب في سائر انحاء السودان الا من البطاحين وقد أمسكت الحكومة كثيراً منهم قبل المهدوية وعاقبتهم على ما كانوا يأتونه من قتل النفوس ونهب الاموال

ولما ظهرت دعوة المهدوية كانت قبيلة البطاحين في مقدمة القبائل التي مالت اليها طمعاً في النهب والسلب اللذين هما ديدنها. ولحق بالمهدى في جبال (قدير) أحد رجال هذه القبيلة المدعو عثمان بن أحمد وكان من حفظة القرآن وهو كقومه البطاحين الذين جبلوا على الفساد وسفك

الدماء وكان ذا دهاء تمكن به من الظهور بمظهر الزهادة والتفانى في حب المهدوية والاخلاص لها فجعله المهدي نائبا من النواب الموكول اليهم النظر في القضايا الكلية فاستخدم هذه الوظيفة في سبيل اطلاق يد قومه البطاحين فى النهب والسلب ووقف وظيفته لدرأ كل عقوبة يراد عقابهم بها على ما يرتكبونه من جنايات السطو والقتل وقطع الطرق فانطلقت ايديهم فى النهب والسلب بلا خوف من طائلة عقاب حيث صار قريبهم نائبا من نواب المهدوية ومقربا من مقربي التعايشي وارتفعت الشكوى منهم الى التعايشي الذي كان مع ظلمه لا يرضي بجولان يد في العبث والفساد غير يده وايدى قومه البقارة فكتب الى قبيلة البطاحين يأمرها بمغادرة ديارها واللحاق بابن النجومي فى دنقلة وذلك فى سنة ١٣٠٥ فسافر منهم نحو ألف رجل واختفى الباقون في قفار بلادهم وصحاريها حتى كانت سنة ١٣٠٦ وفشت المجاعة فى السودان

وفي أواخر هذه السنة ازدادت مفاسد البطاحين وانتشروا في بلاد شرق النيل وقطعوا الطرق على القوافل التجارية والسابلة التي تجتاز الصحراء بين النيل الازرق ونهر (اتبره) وحدود الحبشة وأبادوا عدة قوافل بعد ما نهبوها وسطوا على أكثر القبائل النازلة في انحاء تلك الصحراء وكلما رفع المجنى عليهم شكواهم وأحيلوا على القضاء الذى من اكبر رجاله قريبهم عثمان السالف الذكر خرجوا ظافرين بريئين

وفي ذات يوم جلس التعايشي في محرابه وحوله القضاة والنواب فقال لهم لقد طغى البطاحون وزادت شرورهم ومفاسدهم فأجابه عثمان النائب بقوله يامولاي انهم تركوا السطو وقطع الطرق منذ بايعوا المهدي ونصروا دعوته

فقال له التعايشي كلاّ بل أخبرني الخضر عليه السلام انهم لم يتركوا شيأ مما كانوا فيه بل زادوا جراءة واقداما على السطو وقطع الطرق فسكت عثمان واذعن لقول التعايشي

وفي أوائل سنة ١٣٠٧ انفذ اليهم التعايشي رسولا اسمه ابن جار النبي فذهب الى حيهم وقرأ عليهم أمراً من التعايشي بمغادرة بلادهم واللحاق برباط دنقله فقابلوا الرسول بالضرب والاهانة وهموا بقتله وألحقوا به وبمن معه جروحاً خفيفة ففر من وجوههم وقفل راجعاً الى أم درمان فلقي التعايشي خارجا من داره لصلاة المغرب فأخبره بما أصابه فأمر في الحال باعداد نحو عشرة آلاف مقاتل بين فرسان وجهادية مسلحين بالبنادق وان يغادروا أم درمان بعد صلاة العشاء تحت قيادة قريبه عبد الباقي عبد الوكيل

وبعد صلاة العشاء ركب التعايشي والابواق حوله قاصدا ضفة النهر لتوديع الجيش وتزويد القائد بالوصايا التي يعمل بها وما انتصف الليل حتي اجتاز الجيش كله النيل على البواخر والسفن وتابع مسيره في الصحراء الى المساء وبعد ثلاث ليال داهم حي البطاحين في الغلس وأمطرهم النيران الحامية فسقط منهم نحو ألفي قتيل وسيق الباقون أسرى بنسائهم وأطفالهم ونهبت ماشيتهم كلها وجيء بنحو ثلاثة آلاف أسير منهم الى أم درمان عدا الصبيان والنساء فاختار التعايشي مائة وخمسين رجلا من أعيانهم ومشايخهم وأصدر أمراً بجلب خمسين منهم في ميدان السوق وضرب أعناق خمسين أيضا وقطع أيدي وأرجل الخمسين الآخرين

وركب التعايشي في ظهر ثاني يوم وصولهم الى ميدان السوق وشهد انفاذ هذه الاحكام الفظيعة ومات أكثر الذين قطعت أيديهم وأرجلهم ونجا

الذين أدركتهم غيرة أولي الشفقة فصبوا على جراحهم الزيت الحمي بالنار لقطع نزيف الدم وقد قال التعايشي وقتئذ لمن حوله اني لم أفعل ذلك الا باذن من النبي صلى الله عليه وسلم والخضر والمهدي فانهم أمروني بالامس بهذا العمل فقال رجل من الدناقلة وهو نوتي ان صدقنا انهم أمروا بالصلب وضرب الاعناق وقطع الايدي والارجل فهل نصدق أنهم أمروا باخذ النساء الحسان ونكاحهن كوطوآت بملك اليمين فسمعه بعض الحاضرين وأبلغ التعايشي مقالته فأمر باحالته على المحاكمة حيث ادعى عليه أنه لعن أبا المهدي فحكم القضاة بضرب عنقه فضربت في اليوم التالي في محل استعراض الجيش

وأخذت نساء البطاحين مسبيات ووزعن على البقارة والقواد وامتلأت أم درمان بالمتسولين منهم وكانوا كما قدمنا من أشد القبائل تشيعاً للمهدوية وممن شدوا أزرها فانتقم الله منهم بيدها ومن أعان ظالما سلط عليه

وبيعت ماشيتهم التي جلها من الضأن والبقر في أم درمان فهبطت أثمان الماشية حتى بلغ ثمن الرأس من الضأن نصف ريال

شان محمد خالد زقل بعد ذلك

ذكرنا ما كان من حوادث محمد خالد زقل في دارفور وما وقع له مع حمدان أبي عنجه الي سجنه بام درمان بضعة شهور وخروجه من السجن حيث أمره التعايشي بملازمة الصلوات الخمس في المسجد معه وكان زقل هذا ذا دهاء شديد فأخذ يتظاهر بولاء التعايشي ومحبته حتى خدعه ما يتظاهر به الي أن دخلت سنة ١٣٠٦ وكثرت الاختلافات بين عثمان دقنه وأبي قرجة الذي تولى على شرق السودان بدله

ولما استفحلت تلك الاختلافات انفذ التعايشي الشيخ الطاهر بن المجذوب ومعه محمد خالد زقل الى السودان الشرقي ليفصلا بين المختلفين فتوفى الشيخ الطاهر فى (طوكر) وقفل محمد خالد زقل راجعا الى ام درمان ومعه عثمان دقنة ثم عزل التعايشي أبا قرجة واعاد عثمان دقنة الى الامارة ثم ولى محمد خالد زقل على دنقلة زهاء سنة حتى دس له يعقوب أخو التعايشى الدسائس

وكان في دنقلة أميران من البقارة هما مساعد قيدوم الذي تقدم لنا ذكره مع ابن النجومي وكان قائد المقاتلة من البقارة وعربي دفع الله وكان قائد الجهادية المسلحين بالبنادق

وعربي هذا كان خادما عند محمد خالد زقل تربى فى منزله بدارفور ولما عين زقل أميراً على دنقلة وصار عربي تحت إمرته حفظ لزقل حق التربية فكان يتواضع أمامه ويجلس متأدبا بحضرته ولم يكن في الحسبان ان ينقلب حالهما ويتبدل صفاؤهما بالعداوة لولا مادسه يعقوب أخو التعايشي لعربي حتى دفعه الى السعي بزقل عند التعايشي . وفى ذات يوم جمع عربي رجاله وكانوا زهاء الفين وأحاط بهم منزل زقل ومنعه من الخروج فانقسم جيش دنقلة فريقين فريقاً ينتصر لزقل والآخر يظاهر عربي عليه وهذا مؤلف من الجهادية والبقارة وذاك من الدناقلة والجعليين وكان قد وصل فى غضون هذه الحوادث أحد أعداد جريدة مصرية فيه نبأ يشير الى أن زقل أمير دنقلة اتفق مع الحكومة على ان يسلمها دنقلة بغير مقاومة وأن الحكومة الخديوية وعدته بالمكافأة الحسنة فلم يبق ريب لدي التعايشي في صحة الخبر وخشى ان يكون زقل قد قرر ذلك مع من معه من القواد فانفذ اليه يونس الدكيم ومعه أمير

بانه عينه خادما يحمل نعل محمد خالد زقل فادرك سر المسألة وكتب الى التعايشي يستأذنه فى القدوم عليه ويسأله ان يعين من ينوب عنه فى دنقلة فاجابه بتعيين يونس نائبا عنه وأمره بالقدوم عليه فاستقبله بالاكرام وبعد أيام يسيرة عقد مجلساً لمحاكمته لما جاء فى الجريدة المصرية فحكم المجلس باعدامه ولكن التعايشى أوقف التنفيذ وأمر بسجنه ومصادرة أمواله ووضع فى رجليه من القيود ما أثقله حتى عجز عن المشي ونهبت أمواله وبقى فى السجن بضع سنوات ثم نفى الى خط الاستواء فى مستهل سنة ١٣١١

وكان زقل شديد البغض للمصريين مع انه كان موظفاً أميريا بدارفور كما قدمنا وحائزاً للرتبة الثالثة ولما استولى على دارفور ارسل الى المغفور له الخديو توفيق باشا كتابا ينصحه فيه بالتسليم للمهدوية واستهل كتابه بمقدمة مملوءة بالوقاحة والسفاهة والمطاعن الشخصية التي يتجافى اليراع عن رقمها . ولما ولى على دنقلة أرسل له كتابا آخر لا يختلف عن الكتاب الاول مملوءاً بالمثالب والمطاعن

وقد اتصل بنا ونحن نبيض هذه السطور ان محمد خالد زقل فر من منفاه بخط الاستواء بعد هزيمة التعايشى بأم درمان ولحق بمملكة (برقو) فأمسكه سلطانها كأسير ولم يفلته حتى الآن ويقول العارفون بعادات تلك البلاد انهم لا يسمحون لغريب ذهب الى ديارهم أن يعود من حيث جاء مخافة أن يكون جاسوسا يجوس خلال الديار ويعود منها مزوداً بالاسرار ومهما يكن من الحال فان زقل لم يتمتع بلذة الحكم على بلاد دارفور التى استخلصها من جنود الحكومة بالصفة التى تقدم لنا ذكرها الا زهاء سنتين كانت مغبتهما السجن ونهب ما جمعه من الاموال في خلالها ولا غرابة في ذلك فهكذا كانت معاملة المهدوية لكل من أعانها ولله الامر من قبل ومن بعد

ذكر استخراج الرصاص والنحاس
والكحل من معادن حفرة النحاس

تقدم لنا ان الطبيب الذكر غردون باشا افتتح جهة (حفرة النحاس) المملوءة بمعادن النحاس وشرع في استخراج النحاس منها ثم أهمل خلفه أمر هذه الحفرة ولم يحفل باستخراج النحاس منها حتى دخلت بلاد دارفور في حوزة المهدوية

وفي سنة ١٣٠٧ أنفذ التعايشي أناسا الى تلك الجهة فاستخرجوا شيأ كثيراً من الرصاص والنحاس والكحل فاستخدم الرصاص في تعبئة الخرطوش بعد ان حبطت مساعيه التي بذلها في استخراج هذا الصنف بسبب الغش الذي قطعت يد ورجل المقدم عمر الجعلي من أجله

وصنع من النحاس ظروف الخرطوش ثم لم يعد لاستخراج شيء من هذه الاصناف بعد أن حصل على كفايته منها

ذكر بنات الجعليين

الجعليين اسم قبيلة تقدم لنا تعريفها في حوادث بربر

وفي أوائل سنة ١٣٠٨ أنفذ التعايشي رجلا اسمه محمد وهبي بن حسين اداى المشهور بالرئيس وكان من موظفي الحكومه في بربر الى قرى الجعليين الواقعة بين بربر وأم درمان على احدى البواخر ليأخذ كل حسناء من بنات الجعليين ويحملها على الباخرة ويأتيه بها فمكث بضعة شهور متجولا في شواطيء تلك القرى بباخرته ثم عاد بها وهي مكتظة بالنساء الحسان وجلهن عذاري

اليه فكانت الواحدة منهن تدخل عليه فى حجرته وهي عارية كيوم ولدتها أمها وبعد ان يتم نظره فيها وهي مقبلة يأمرها ان تدبر ثم يدنيها منه فاذا أعجبته أبقاها فى داره موطوءة بملك اليمين وان لم تعجبه أمر باخراجها واهدائها لاحد أقاربه البقارة

أما دخول النساء عليه وهن عاريات فكان لا يقصد به التمتع بالنظر اليهن فقط بل كان يخاف ان يحملن تحت ثيابهن سلاحا أو مادة سامة وهو يعامل كل نسائه بهذه المعاملة الا من يثق بامانتها وقلّ ان يأتمن واحدة منهن

ذكر انسحاب الجيش من القلابات

تقدم لنا ذكر ما كان من أمر محاربة الدراويش والاحباش الى قتل النجاشي يوحنا

ويقولون ان النجاشي منيليك الذي خلف يوحنا فى سلطنة الحبشة عقد مهادنة مع الدراويش على ان يكفوا عن حربه والتعدي على حدوده لانه لم يغب عنه ان المملكة الحبشية مشتغلة بدفع غارة الايطاليين عليها من جهات (أسمره) وفتحها بابا للحرب مع الدراويش يضاعف مشغوليتها ويزيد خسارتها فداهن الدراويش بل صافاهم. على انه كان موقنا بان سوء تصرفات سلفه هي التى فتحت على المملكة هذا الباب الذي كانت فى غنى عنه لكي تتفرغ للوقوف امام المغيرين على بلادها من الفاتحين الايطاليين

والتعايشي لم ينشر شيأ يدل على وقوع هذه المهادنة الا ان قرائن الاحوال تدل عليها لان بعض مصادر الاخبار تؤكد ان غارة الدراويش على الاحباش لا تخلو من يد الايطاليين فى تدبيرها وفى نفس الوقت الذي كان منيليك

يستمد فيها لمناجزة الايطاليين فى الواقعة الاخيرة بينهما كانت جيوش الدراويش أيضاً تزحف من جهة أخرى لمهاجمة مراكز الايطاليين مما يدل على ان الدراويش كانوا أولا علي وفاق مع الايطاليين ضد الاحباش ثم انعكس الحال فصاروا مع هؤلاء على أولئك

والحاصل ان التعايشي بعد أن ملأ القلابات خيلا ورجالا ونال جنده من الاحباش ما نالوه من الظفر حصن القلابات بسور من الحجارة وأصدر أمراً الى الزاكي طمل قائد الجيش ان يترك القلابات ويوكل حراستها الى الف رجل تحت إمرة أحمد على البقاري فصدع الزاكي بالامر وغادر القلابات وعسكر فى القضارف وارهق أهلها نهباً وصادر غلاتهم بالكيفية التي ذكرناها فى الكلام على القحط الواقع فى القضارف

وفى أواخر سنة ١٣٠٧ قدم الزاكي طمل على التعايشي ودفع له مائة وثمانين الف ريال وقناطير مقنطرة من الذهب والفضة فأمره بالعودة الى القضارف وأخذ الاهبة لاختراق الجزيرة والغارة على بلاد (الشلك) باقليم فشودة

ذكر غارة الزاكي طمل على الشلك

الشلك اسم لقبيلة من العبيد تسكن اقليم فشودة وهم حفاة عراة يلبس الاغنياء والعظماء منهم قطعة من خرقة تستر أنصاف أفخاذهم فاذا جلس احدهم طوي الخرقة ووضعها على كتفيه وبقيت عورته بلا ستر

أما النساء فيأتزرن بفروة من الجلد اذا كن متزوجات أما اللائي لم يتزوجن فهن عاريات كيوم ولدتهن أمهاتهن وهؤلاء النسوة يحلقن شعر

رؤسهن مما يزيد في تقبيح مناظرهن وتشويه خلقهن والرجال يسبلون شعورهم ويدهنونها بالمواد الغروية كالصمغ ويعملون منها شكلا يخاله الرائي من بعد قبع الافرنج

وهم غلف لا يعرفون الختان ويزعمون ان الختان هو كسر أربعة أسنان من اسنان الرجل أو المرأة من الفك الاسفل ليتمكن احدهم من اخراج اللسان بغير أن يقف شيء في طريقه

ويزين الرجال نحورهم وأذرعتهم بكثير من الخرز وأجراس النحاس الصغيرة وقطع العاج وزينة المرأة شيء من الودع والخرز على خصرها وعلى كل حال تربو زينة الرجل وحليته على زينة المرأة وحليها والرجال مع استئثارهم بالنصيب الاكبر من الزينة على ماذكرنا تراهم مع سواد بشرتهم طوال القامات حسان الوجوه مفتولي السواعد يبدو على وجوههم العجب والزهو ويحملون بأيديهم الاسلحة من المزاريق والحراب ولا يعرفون هم ولا نساءهم لبس نعل أو حذاء

وديانتهم وثنية همجية لهم صنم من الخشب اسمه (النيكامه) بتعطيش النون وأما (الكجور) فهو كعالم ديني يرجعون الى مشورته في أمور الدنيا والدين والطب وهو إن صح ماسمعه من قومه عنه لا يخلو من معرفة شيء من علم النجوم والانواء علما نظريا لانه كثيراً ما يخبرهم بأخبار المطر وغيره قبل الحصول

ومما يدل على ذلك ان وظيفة الكجور لا تكون الآ وراثية من الاسلاف للاعقاب وبالجملة ان الكجور عند الشلك أشبه شيء بالكاهن والعراف في عهد الجاهلية

وأغذيتهم من لحوم الصيد ولبن الماشية والبوظة المسكرة وماشيتهم من الغنم والبقر كثيرة جداً وهم يقدسون الفحل من البقر ويعلقون على قرنيه الاجراس والخرز وسائر أنواع الزينة ويسمونه (مجوك) ويخرجونه في الحفلات والمواسم حيث يكون موضع احترام الجميع

واذا خرجوا يستسقون المطر يخرجون الفحل أمامهم متوسلين به والحاصل أن (مجوك) عند الشلك يشبه العجل (أبيس) عند قدماء المصريين

وعادة الزواج عندهم ان الرجل يتزوج بما شاء من النساء بمعنى انه يتزوج ماشاء من النساء بغير قيد ولا حد

ومهر الزواج لايقل عن ستين رأساً من البقر للمتوسطة من النساء ومائة لاهل الطبقة العالية ولا يجيزون أن يكون المهر أقل من أربعين رأسا من البقر والمهر حق لاقارب الزوجة يأخذ أبواها القسم الاكبر منه ويوزع الباقي على أقاربها من جهة الاب والام وهؤلاء ينالهم اكثر مما ينال أولئك

واذا توفي الزوج خلفه اكبر أنجاله على جميع نسائه عدا أمه والاولاد الذين يولدون له منهن يعتبرهم اخوته لانه يرى نفسه نائبا عن والده واسم (مريم) علم لجنس النساء كما ان اسم (نور) علم لجنس الرجال كلهم وتخضع قبيلة الشلك كلها الى ملك يسمونه (الملك) وحكمه نافذ فيهم وطاعتهم له عمياء وهم يعتبرونه مقدسا يستمد سلطته من معبودهم (النيكامه) كما كان قدماء المصريين يعتقدون شبه هذا الاعتقاد في فراعنتهم

وهذا الملك عاري الجسم مثلهم ولا يدنو منه احد الا بعد ان ينحني ويزحف على ركبتيه ولا يرفع احد عينه اليه بل يظلون جلوسا كأن الطير على رؤوسهم ويجلس حواليه الشيوخ والكجور فاذا عقدت جلسة لمحاكمة جلس

الملك وبين يديه أنواع السلاح كلها وانما يعاقبون بالقتل وعند نهاية الجلسة يتناول الملك نوعا من السلاح الذي بين يديه يومئ به نحو الجاني وينصرف فينفذ الحاضرون العقوبة عليه بنوع السلاح الذي أومأ به

ومن دأبهم مع ماهم فيه من التوحش والهمجية حيث لافرق بينهم وبين الانعام المحافظة على الآداب حتي يظن الانسان انهم في نهاية التمدين فلا توجد بينهم فاحشة ألبتة والزاني والزانية لاعقاب لهما الا القتل

ومما زاد فى اعجابي باولئك الاقوام ان المرأة منهم في نهاية الحرية تختلط مع الرجال وتجالسهم وهي محترمة عندهم كاحترامها عند الافرنج ومن عوائدهم ان الرجل اذا انتصب ذكره وهو جالس مع غيره عوقب بالقتل فى الحال مع انهم يجلسون عراة والنساء معهم

ومنازلهم اكواخ مستديرة واعاليها مستطيلة كالقبة والنظافة متوفرة فيها حتي ان أرض منازلهم مرصوفة بشيء من الحجارة يخالها الناظر لاول نظرة رخاماً وفى كل قرية مكان كبير يحرقون فيه روث البقر حتي يصير رماداً ينامون عليه ويتمرغون فيه

ويغسلون وجوههم ببول البقر ويتمضمضون به ويضعونه فى اللبن والسمن ويأكلون الميتة والدم ولا يذبحون الماشية الا اذا اشرفت على الهلاك فحينئذ يذبحونها بقصد الحصول على الدم اذ هو احسن غذاء عندهم وفي بعض الاحايين يجرحون البقر فى شرايينها وينزفون الدم في آنية ثم يضمدون الجرح ويربطونه حتي يندمل

ولهم مهارة غريبة فى اقتناص الضوارى كالفيل والسبع والنمر وبقر الوحش والزرافة وسائر أنواع الوحوش . ولنذكر هنا طريقة صيد

الفيل وبقر الوحش وهى ان يجتمع اثنا عشر رجلا منهم بيد كل واحد منهم حربة طويلة ويقتربون من الفيل أو بقر الوحش ثم ينفرد واحد منهم دون رفاقه فيطمع مايريدون صيده فى افتراسه ويتجه نحو مطاردته فيثب عليه الباقون ويطعنونه بحرابهم فى دبره قبل ان يتمكن من افتراس رفيقهم لان الطعن لا يؤثر في بقية جسمه لملاسة جلده وصلابته. أما صيد بقية الوحوش فانه دون هذا فى العناء وللملك نصيب من كل ما يصطاده الافراد فاذا كان من نوع الفيل فله العاج وأطايب اللحم أما الغزلان فانهم يقدمون له أحسن نصيب من لحمها

ومهارتهم فى صيد دواب الماء تكاد تفوق تفننهم في صيد وحوش الفلاة وذلك انه يوجد فى بلادهم فرس البحر بكثرة والتمساح والاسماك الكبيرة التى تزيد طولها عن مترين ولهم زوارق صغيرة مصنوعة من الخشب ومن العجب انهم يربطونها بالخيوط فقط اذ لا مسامير من الحديد عندهم والزوارق المذكورة محكمة الصنع متساوية الاطراف يركبونها ويحملون بايديهم مزاريق صغيرة رؤسها كالصنارة يقذفون بها الاسماك فى عمق الماء فلا تعود بغير مصيد ويندر أن يخطئ المزراق وصيد التمساح يقرب من هذه الطريقة . أما طريقة صيد فرس البحر فهي انهم يربطون حبلا متينا فى أسفل حربة رأسها كالصنارة وفى آخر الحبل حزمة من نوع خشب اسمه (العمبج) يشبه (الفلين) فى خفته وطفوه علي وجه الماء ويتربصون على ضفاف النهر بعد غروب الشمس حتي تخرج فرس البحر لتأكل الحشائش التي تنبت على الضفة فيرمونها بالحربة فى دبرها فتولى عنهم وتعود الى اليم وقد غاصت الحربة فى دبرها والحبل والعمبج خلفها وبعد أيام قلائل يتعفن الجرح فيجتمع الصيادون فى زوارقهم الصغيرة ويمسكون الحبل ويطاردون الفرس

التي تظهر على وجه الماء بعد جذب الحبل فيرشقونها بالسهام حتى يقضى عليها فيقتسمون لحمها بعد اخراج اطايبه للملك ويجففون جلدها الذي يصنع منه السياط المعروفة فى مصر

وهم يسكنون الضفة الغربية للنهر ويسكن الضفة الشرقية أمة اسمها (الدينكة) لاتختلف في شيء من العادات عن الشلك الا انهم لم يحرزوا صفات الشجاعة التي للشلك ولا يعرفون صيد البر والبحر مثل الشلك ولا ملك عندهم بل لكل قرية رئيس مطلق ولذلك يضطهدهم الشلك ويغيرون عليهم وينهبون ماشيتهم حتي ان الواحد من الشلك يطارد عشرة من الدينكة الذين لهم صنم من خشب كصنم الشلك يسمونه (دينديت) وعدد نفوس الدينكة يبلغ أضعاف الشلك وبسبب فرقة الدينكة صاروا عرضة لغارة جيرانهم الشلك الذين هم مع ماهم فيه من القوة والعزة تراهم اذلاء امام جيران لهم فى الجنوب وهم أمة اسمها (نوير) حيث يوالون الغارة على الشلك وينهبون ماشيتهم مع ان عدد نفوس الشلك يبلغ أربعة أضعاف عدد نوير والحاصل ان نوير آفة الشلك كما ان الشلك آفة الدينكة

وعوائد نوير واخلاقهم مشابهة لعوائد الشلك الا انهم اكثر ثباتاً من الشلك واجرأ وقاماتهم أطول منهم

وأرض الشلك والدينكة ونوير خصبة التربة وريها بالامطار التى تهطل غزيرة جداً عندهم غير انهم كسالي لايحرثون من الارض الا شيأ قليلا يقوم بضروورياتهم

وحاصلاتهم الذرة الرفيعة والسمسم والدخان الذى يستعمله رجالهم ونساؤهم

ولما دخلت السودان تحت حوزة مصر لم يلتفت الحكام والولاة الى تنظيم حكومة للجهات الجنوبية على النيل الابيض التى منها فشودة بل كان الشلك وغيرهم من سكان البلاد عرضة لغارة عصابات النخاسين الذين يجلبونهم ارقاء وينهبون حاصلاتهم وماشيتهم

وفي سنة ١٢٨١ اعتنى المرحوم موسى باشا حمدي حكمدار السودان بامر الجهات الجنوبية ونظم حكومة لها فكانت فشودة أول مديرية أسسها وولى عليها القائمقام حلمي بك الذى طرد النخاسين عنها ولكن الشلك قابلوه بالجفاء ونفروا منه وشهروا عليه الحرب حتى اضطر الى ان يتحصن منهم في نقطة فشودة الواقعة فى وسط الاقليم واختارها عاصمة لمديريته وبعد ذلك هادنوه فقدم لهم كثيراً من الهدايا والملابس التى كان يفرغ جهده فى اقناعهم بضرورة لبسها فلم يفلح بل كان كبراؤهم يلبسون بعضها عند قدومهم الى مركز الحكومة فاذا عادوا الى قراهم خلعوها وبقوا عراة كما كانوا

ولما ولي المرحوم جعفر مظهر باشا حكمدارية السودان اهتم بشأن مديرية فشودة وبذلت الحكومة الجهد فى استئلافهم حتي صاروا يأدون لها بعض ضرائب لا تقوم بعشر معشار نفقات الحامية والادارة

ولدى تولية الطيب الذكر غردون باشا على جهات النيل الابيض أنشأ فى فشودة عدة مراكز وشاد معاقل فى الجهات الشمالية والجنوبية وكان اذ ذاك ملك الشلك من عائلة اسمها (كيكون) فاخذ ذلك الملك في أسباب التمدن وصار يلبس الثياب ويأكل على الموائد . وقد اهدى له غردون باشا عدة هدايا ومنحه لقب (بك) فزاد اخلاصاً للحكومة الا ان قومه امتعضوا منه وذموا مخالفته لعوائدهم وتشبهه بالترك واضمروا له الشر فثاروا على الحكومة عدة

ثورات قتل في احداها يوسف بك حسن المشهور بكرده مدير فشوده وتقدمت تلك المديرية في مدته تقدما عظيما. ولما ظهر المهدي على جند الحكومة في جزيرة (آبا) ولحق بجبال (قدير) وحمل عليه راشد ايمن بك مدير فشوده وكان من أمره ما تقدم لنا إراده في مكانه كان (كيكون بك) ملك الشلك معه وقتل مع من قتل فقام أحد رؤساء الشلك وأخذ معه وفداً شخص به الي المهدي في جبال قدير فكتب له المهدى بالامارة على الشلك وسماه (عمر) واعطاه أبواقا من التى غنمها من الحكومة فعاد الى الشلك وأخبرهم بان المهدى اله وانه أخو معبودهم (النيكامه) وانه ولاه ملكا عليهم فاتبعوه لانهم كانوا يعرفون المهدي مذكان شيخا في جزيرة (آبا) فجمع عمر قومه وشرع في مناوأة الحكومة وامتنع عن تأدية الضرائب وتوطد نفوذه بينهم وحافظ على عوائدهم التى نقموا على كيكون بك ملكهم السابق من أجل نبذها

ولما فتك المهدى بحملة الجنرال هيكس وقررت الحكومة جلاء حاميتها عن فشوده لتعزيز حامية الخرطوم خلا الجو لعمر ملك الشلك واستقل بالتصرف في البلاد كلها

ولما توفى المهدى أعلن عمر أن المهدى استخلفه على العبيد واستخلف الحامية على العرب وهم يسمون العرب (بون) بتعطيش النون واستمر في بلاده مستبداً بالحكم فيها حتى دخلت سنة ١٣٠٦ هجرية وفشا القحط في السودان ونسل الناس من جميع الفجاج الي فشوده لجلب الغلة فارسل التعايشى باخرتين تقلان الف مقاتل احتلوا فشوده وكتب الى الملك عمر يأمره بتأدية عشر محصولات بلاده منذ عودته من جبال قدير أى نحو ثماني سنوات وأرسل له هدية من الجوارى الحسان والسكر وبعض ملابس فسألهم عن ثمرة

السكر فاذاقوه طعمه فقال انه لذيذ.ثم قال ان الجواري اللاتى أهداهن الي الخليفة يمنعني من قبولهن أنهن متمدنات يلبسن الثياب وكان يمكننى قبولهن لو كنت أجد لهن فى بلادي ثياباً مثل التي يلبسنها وأخشى ان يصبن بضرر اذا ألزمتهن بان يظللن عاريات مثل نسائي وأما الملابس فلا أستحسن أخذها حيث انى لم أتعود لبسها والاولى ان اردها الى الخليفة ليهديها الي من يلبسها وأما السكر فان فى بلادى عسل النحل بكثرة ويمكنني أن استعيض به عنه واني وان وجدته لذيذاً واشتهت نفسى تناوله ولكنني أمنعها عنه لانه غير موجود فى بلادى اذ أخشى أن تتعلق نفسى به فى وقت لا أجده فيه

واما الاعشار التي يطلب الخليفة مني تاديتها له فلا أدفعها اذ لست خاضعا له لانني مولى من قبل المهدى الذي هو مثل (النيكامه) والخليفة ملك العرب وأنا ملك الشلك وانا مثله فلا تلزمنى طاعته ولا تلزمه طاعتي غير انني أدفع له ألفي اردب من الغلال على سبيل الهدية ومكافأة له على هديته التي رفضت قبولها لعدم صلاحيتها لي

وكتب الملك عمر كتاباً الي التعايشى ضمنه هذا المعنى وأنفذه مع رسولين من قبله فقدما على التعايشى بام درمان فعجب من وجود من يحسن الكتابة عند الشلك وأخيراً علم أن الكاتب غلام ابوه مصري وأمه من الشلك وكان مع والده فى الخرطوم حتى قتل يوم سقوطها ففر مع امه ولحق ببلاد الشلك اخواله وأمه قريبة احد رؤساء الشلك الكبار فجعله الملك كاتبا له

وحدث في بعض الايام ان أحد الدراويش أراد نهب جدى من ماشية لرجل من الشلك فلم تكد تصل يد المتعدي الى لمس الجدى حتى

طعنه صاحبه بحربة جندلته في الحال وثار الشلك كلهم ورفعوا رايات الحرب التى من عادتهم رفعها بالليل بكيفية يفهم منها اخذ الاهبة للحرب وهى ان يأخذوا قناة يدهنونها بالزيت ويشعلون النار فيها فيراها أهل القرية القريبة منها فيرفعون مثلها لاهل القرية التى تليها وهكذا حتى يعلم أهل البلاد كلها بالحرب فى ليلة واحدة ويحتشدوا في أسرع مايمكن ويرسلوا وفودهم لتلقى الاوامر بالحرب

وبعد عناء شديد وأخذ ورد بين قائد الدراويش وملك الشلك ثاب الثائرون الى السكينة وعاد الامن الى مجراه

وكان مع الدراويش شلكي من رؤساء القري التي في الشمال ولكنه بالنسبة لقربه من بلاد العرب تشبه بهم وصار يلبس الثياب فأخذه قائد الدراويش معه بصفة دليل واسمه (ايك) بن (غرى) وهو من أقارب عائلة (كيكون) التي منها الملك كيكون بك. وحدثني احد الحاضرين ان الملك عمر أرسل خمسين مقاتلا ومعهم عشرة من الشيوخ والكجور الي منزل (ايك) وكان بجوار معسكر الدراويش فجلس العشرة معه ووقف الخمسون على بعد واخذوا يوبخونه على مخالفته عوائد الشلك وتشبهه بالعرب وانه جاء مع العرب بصفة دليل وعدوا ذلك خيانة للملك يعاقب عليها ثم وثبوا عليه وضربوا عنقه وحملوا راسه الى الملك فلم يجسر احد من الدراويش على مقاومتهم أو الذب عنه واخيراً استاء التعايشي من عصيان الشلك وغطرسة ملكهم فجهز اليهم فى سنة ١٣٠٨ الزاكي طمل امير جيش القلابات فى نحو عشرين الف مقاتل جلهم فرسان ومسلحون باسلحة رامنجتون فسار الزاكى

وهناك وجد البواخر التى انفذها له التعايشي وحشد الملك عمر جيشه للذود عن بلاده فهاجمهم الدراويش هجوما عنيفا وقتل الملك عمر وحملت رأسه الى التعايشى

ومكث الزاكي نحو ثلاث سنوات فى فشوده يعمل فى الشلك السيف والنار فخربت القرى التى على ضفة النهر وسالت الدماء كالانهر وصادر ماشيتهم وارسلها الى الخليفة فكان يختار منها ماهو صالح للنتاج ويؤلف منه قطعاناً ينتفع بنتاجها ويبيع الباقى بواسطة بيت المال هذا عدا الارقاء الذين جلبهم منهم حتى هبط ثمن الجارية الى بضع ريالات وثمن الرأس من البقر الي ريالين وبالجملة ان الزاكى طمل خرب بلاد الشلك كلها ودمرها وجلب منها اهلها ارقاء اختار التعايشي نحو خمسة آلاف من غلمانهم جعلهم من ضمن الجهادية حراسا له وسيأتي ذكر بقية أخبار الزاكى وقتله

ذكر بقية اخبار عثمان دقنه

قلنا فى ما تقدم ان التعايشى استدعى عثمان دقنه الى ام درمان وعزز قوته بعشرة آلاف مقاتل مع أبي قرجة على أثر ماعلمه من انحراف القبائل فى السودان الشرقي ونفورهم عنه

ولما غادر عثمان دقنه طوكر اغارت عليها القبائل الخارجة عليه بمساعدة بعض جنود الحكومة ثم عادت عنها بغير جدوى اذ لامقاتلة فيها ولا جنود تدفع غارتهم عنها

وفى منتصف سنة ١٣٠٤ وصل عثمان دقنة الى سواكن معززا بقوة ابى قرجه الذى ولاه التعايشي على السودان الشرقى بدله اتقاء لثورة الاهلين ونفورهم

عن عثمان دقنه الذى شق عليه العزل ومكث في كسلة هو وابو قرجة الذى سار في الناس سيرة حسنة فتاب اكثر الثائرين على عثمان دقنة الي الطاعة

وأمن أبو قرجة السبل واعاد الصلات التجارية بين مصوع وكسلة واخذ في مخابرة القبائل التي حوالي طوكر وسواكن بابهجة سلمية وقصد بذلك ارجاعها الي الطاعة فلم تفلح مخابراته لان أنصار عثمان دقنة كانوا يذيعون في الناس أن ولاية ابي قرجة اسم بلا مسمي وأن الغرض منها تسكين الثوار حتى يعودوا الى الطاعة فاذا عادوا صاروا تحت سلطة عثمان دقنه الذى هو الآمر الناهي لابي قرجة في باطن الامر ففشلت مساعى ابي قرجة وذهبت ادراج الرياح على أثر اذاعة انصار عثمان دقنة هذه الاقوال التى لاتخلو عن الصحة

وأنفذ ابو قرجة حملات متتابعة الى بعض القبائل التي تسكن في المنطقة القريبة من حدود الاحباش حوالي جبلي (اليكوت والمناع) وأكثر هاته القبائل مجوس لادين لهم وهم من قبائل الزنوج القديمة واشهرها قبيلتا (الباريه والبازه) وقوام معيشة هذه القبائل لحوم الماشية والصيد والالبان ويندر بينهم من يعرف الخبز وهم مثل سائر اهالي شرق السودان من حيث العادات حيث لا يعرفون اكل الخبز والخضراوات التى يعتبرونها غذاء الانعام يترفع من اكلها الآدميون ويسكن معظم تلك القبائل فوق قمم الجبال الشاهقة وفي سفوحها وكهوفها التى يتخذونها معاقل اذا دهمهم عدو وهي متسعة يأوون اليها بماشيتهم التى هي الغنم والابل والبقر ورجال الباريه والبازه فرسان لا يشق لهم غبار ولا يصطلى لهم بنار يقطعون السبل ويعترضون القوافل للسلب والنهب

ولهم عادات ومراسم تقرب مما نسمعه عن طوائف اليزيدية والدروز هذا وقد أثخن أبوقرجة في هذه القبائل وأغار عليها إغارات كثيرة ونهب شيأ لا يحصى من ماشيتها

وبعد سنة زحف الى طوكر واحتل (هندوب) وهي موقع يبعد من سواكن ببضعة أميال وأغار على القبائل التى خلعت الطاعة فظفر ببعضها وفر اكثرها ولجأ الى الجبال واعتصم بالكهوف

وحصلت جملة مناوشات بين عثمان دقنة والاعراب الموالية للحكومة وبينه وبين الحكومة من جهة أخرى وقد جرح كتشنر باشا جرحاً خفيفاً فى احدى المناوشات وكان وقتئذ قومندان حامية سواكن وكانت الحامية في غضون هذه المناوشات مشتغلة ببناء الحصون وتشييد الاسوار على سواكن

ثم حصلت بعد ذلك واقعة بين عثمان دقنة وحامية سواكن قتل فيها ضابط انكليزي اسمه الكابتن تاب

وفي شهر رجب سنة ١٣٠٥ شفى كتشنر باشا وعاد الي سواكن. وفيه هاجم عثمان دقنه معقلي (ردوت والجميزه) وأمد أبو قرجة عثمان دقنة بسبعة آلاف مقاتل وتعززت قوة الدراويش في هندوب ولكن خرق الخلاف اتسع بين عثمان دقنه وأبي قرجه فهذا يرى ان لا فائدة فى مناوشة سواكن والمرابطة في هندوب وذاك يخالفه ويتهمه بالجبن وعدم الاقدام بل بالخيانة والميل لجانب الحكومة واذاع عثمان دقنة ان أبا قرجة كان يجتمع مع قواد الحكومة ليلا فاستدعى التعايشي أبا قرجة على أثر ما علمه من عثمان دقنه الذي أعيد للامارة وخلا له الجو فى السودان الشرقي

وفي شهر ذي الحجة من سنة ١٣٠٥ اشتدت مضايقة عثمان دقنه لسواكن حتى

اقتربت متاريسه من الاسوار وصارت على بعد خمسمائة (يرده) فقط

وعين عثمان دقنه رجلا دنقلياً اسمه عثمان النائب قائداً للمقاتلة الذين في المتاريس الامامية ووالوا اطلاق النيران على سواكن حتى خيف سقوطها في أيديهم لولم تدركها حماية السفن الانكليزية في البحر وأحرق حصن شاته الذى كان من الشوك وضويقت سواكن وافتقرت حاميتها لى النجدة وكانت الحكومة ترى وقتئذٍ اجلاء الحامية وترك المدينة للدراويش وبعد مداولات قررت حفظها

ثم دخلت سنة ١٣٠٦ وسواكن في حالة ضيق شديد وطم العدو اكثر الآبار التي تستقي الحامية منها اذ كانت خارج الاسوار

وفي أوائل شهر صفر من السنة المذكورة وضع عثمان دقنة المدافع على حصونه وصار يطلقها على حصون الحكومة فاندهش القواد من انتظام مقذوفاتها واصابتها المرمي

وفى ربيع الثانى من السنة المذكورة وصل الى سواكن الجنرال غرانفيل باشا سردار الجيش المصري وقتئذ فارسل اليه عثمان دقنه كتابا يخبره فيه بان أمين باشا حاكم أقاليم خط الاستواء والمستر ستانلي السائح الانكليزي المبعوث لانقاذ حامية خط الاستواء قد وقعا فى أسر المهدوية وكان مقصده من ذلك الارهاب والتضليل

وبعد أيام قلائل هاجم الجنرال غرانفيل معاقل عثمان دقنة بعدة طوابير من الجيش المصرى فدمرها وقتل من فيها من المدافعين وكانوا لا يزيدون عن سبعمائة مقاتل ولكنهم ابلوا بلاء حسناً ودافعوا عن موقعهم دفاع الابطال

وكانت هذه الواقعة فى أواخر شهر ربيع الثاني عام ١٣٠٦ هجرية

وعقب واقعة المتاريس تقهقر عثمان دقنة الى طوكر وعسكر بها وكانت المجاعة وقتئذ ضاربة أطنابها في انحاء السودان كله خلا طوكر فان الاقوات كانت تجلب اليها من سواكن ومكث عثمان دقنة في طوكر بقية سنة ١٣٠٦ يوالي الغارة على الاعراب الذين انحازوا الى الحكومة وشقوا عصا الطاعة عليه لاشتداد وطأته عليهم حيث زاد المكوس زيادة فاحشة وصار يقتل منهم في كل يوم عشرات فكانوا يهرعون الي الخليفة متظلمين منه فلا يجدون لديه مايشفي غليلهم وكثيراً ماأمسك المتظلمين وجلدهم بالسياط حتى أنه جلد واحداً منهم الفا وخمسمائة جلدة بسياط قد وضعت فيها حلقات من الاسلاك الحديدية حتى مات

ولما علم الاهلون ان لاانصاف من عثمان دقنة ولا راحة من مظالمه قلبوا للمهدوية ظهر المجن ووالوا الحكومة وحالفوها على حربه فوزعت عليهم الاسلحة النارية ومن ثم اشتغل عثمان دقنة بالغارة عليهم وكان فى اكثرها يرجع مدحوراً متكبداً خسائر جمة

وفى أوائل سنة ١٣٠٧ استقدمه التعايشي الى ام درمان عن طريق بربر ثم اذن له فى العودة عن طريق القضارف فكسلة فطوكر واعطاه أمرا الى جميع الامراء ان لايعترضوا من رغب من الناس فى مصاحبته

ولما وصل القضارف تبعه أناس كثيرون من أهلها فارين من المجاعة التى أناخت عليهم بكلكلها ومنهم كثير من اسري المصريين الذين كانوا فى كسلة ثم لما وصل الى كسلة تبعه كثير من المصريين أيضا ولحقوا بطوكر فرارا من المجاعة أيضا كمن تقدمهم

ووصل عثمان دقنة الى طوكر وجعل همه الغارة على الاعراب

الموالين للحكومة وسنعود الى ذكر بقية أخباره وهزيمته فى طوكر

ذكر هزيمة الدراويش من هندوب واخبار أمارأر

أمارأر اسم لقبيلة في ارباض سواكن وهى قبيلة رحالة ماشيتها من الابل والغنم ولغتها أعجمية مثل سائر سكان السودان الشرق وكانت هاته القبيلة أول من خلع طاعة الحكومة وظاهر عثمان دقنة عليها وزعيمها أحمد بن محمود كان اكبر انصار المهدوية فى أوائل الدعوة اليها ولم يكن لذلك من سبب سوي انه كان من مريدى الشيخ الطاهر المجذوب استاذ عثمان دقنة

ثم مالبث طويلا حتي مج عثمان دقنة وبغضه بسبب مارهق به (أمارأر) قبيلته من المظالم والمغارم واشتد الخصام بينهما فتحفز عثمان دقنة للوثبة على على احمد محمود شيخ أمارأر والبطش به ففر ولجأ الى حكومة سواكن ثم فرمنها ولحق بالتعايشى بام درمان وقدم مالا طائلا الى يعقوب اخي التعايشى وسأله ان يكون وسيطا له عند اخيه ليكتب له بالامارة على قومه على أن لاتلزمه طاعة عثمان دقنة فأجاب التعايشي طلبه وكتب له بالامارة على قومه وان يجعل معسكره فى هندوب وفوض اليه أخذ المشور من التجار الذين يخرجون ببضائعهم من سواكن فغادر أحمد محمود أم درمان آيبا الي سواكن فى أواخر سنة ١٣٠٧ فتوفى فى أحد المناهل التى بين بربر وسواكن وكتب التعايشى الى أحد اخوته بان ينوب عنه في عمله

وفي أوائل شهر رجب سنة ١٣٠٨ ارسل أحد جواسيس التعايشى في أصوان عدداً من احدى الجرائد المصرية فيه أن عدة طوابير من الجيش المصري ستبحر من السويس الى سواكن لتأليف قوة حربية تهاجم معسكر الدراويش

في هندوب ثم تعود تلك القوة الى سواكن حيث تجر منها الى ثغر (تربنكيتات) ومنه الى طوكر براً

وبعد ليلتين مضتا على وصول هذا النبأ جاء الى التعايشي خبر من هندوب ان ثلاثة طوابير زحفت من سواكن على هندوب فباغتت الدراويش عند شروق الشمس وكأن شيخ (أمارأر) ومن معه من قومه كانوا على علم بهذه المباغتة فامتطوا دوابهم ولم يبدوا أقل مقاومة وولوا مدبرين من وجه الحامية المصرية التي كانت سائرة الي المعسكر بسكينة وانتظام كأنها داخلة الي احدي ثكناتها العسكرية ونجا رجال (أمارأر) ووقع في أسر الحكومة بعض اعراب من الذين يجهلون مابين الحكومة وشيخ أمارأر الذي قيل إن ماأتاه أخوه احمد محمود كان بايعاز من حكومة سواكن وان ماقدمه ليعقوب أخي التعايشى من المال كان من مصروفاتها السرية

ويدل على ذلك انهم بعد هزيمتهم من هندوب عادوا الى سواكن من طريق آخر فقوبلوا بالاكرام واجريت عليهم المرتبات وبلغني أن موت أحمد محمود لم يكن الامن سم دسه له التعايشى فى الدسم

والحاصل ان قبائل السودان الشرق التى كانت موالية لعثمان دقنة على الحكومة رجعت بالعداء عليه وصارت مع الحكومة عليه

ذكر هزيمة عثمان دقنة من طوكر

ان من يتأمل في الحالة الاولى التى كان عليها عثمان دقنة في اوائل دعوته للمهدوية وما كان يصادفه في خطواته كلها من النجاح والظفر ثم ما آل اليه أمره من الفشل والهزيمة يرى انه قضى على نفوذه بنفس السلاح الذي كان

يضرب به هام رجال الحكومة

وذلك انك ترى فيما كتبناه عنه في ما تقدم من هذا الكتاب أنه أحرز شهرة تكاد تضارع شهرة المهدي نفسه لانه قام بدعوة قبائل السودان الشرقي بالصفة التي تقدم ايرادها وكان في بداية أمره يتذرع بنفوذ استاذه الطاهر المجذوب ولكنه مع هذا النفوذ أظهر سياسة تكفلت بالتفاف القبائل حوله واستيلائه على قلوبهم حتى بلغ من أمره انه لو قال لهم خوضوا البحر الاحمر حتي تبلغوا الهند للبوا الى ذلك مسرعين

وتوجد مشابهة بين المهدي وعثمان دقنه وذلك أن المهدى عرف كيف يتمكن من التأثير على أهالي السودان بما يفتريه من الدعاوي الطويلة العريضة وهى مهارة لا يتردد أحد فى ان متوخيها عرف ان لا سبيل للتأثير على الامم الا من الجهة التى تميل اليها

وكان عثمان دقنة يتأثر المهدى الذى كان ذا طلاقة فى اللسان وتصرف فى البيان يقدر معه على التعبير عما يكنه فؤاده بجمل عامية يفهمها الجهلاء ويثملون بخمرة بلاغتها من حيث تأديتها المعنى المقصود بالفاظ عامية توافق أذواق السامعين سيما أهالي السودان الشرق الذين لا يتكلمون باللغة العربية بل لغتهم أعجمية همجية وكان من المحال ان يبلغ المهدي غايته من التأثير عليهم فقام فيهم عثمان مقام المهدى وعرف طريقة استمالتهم بما أوتيه من البراعة فى لغتهم حتى انه كان اذا قام فيهم واعظا أو خطيباً يؤثر عليهم تأثيرا يجعلهم له أطوع من بنانه

وكان يقرأ عليهم آيات القرآن الشريف ويعقبها بتفسير معانيها . على ان أهالي السودان الشرقي كانوا لا يعرفون من الاسلام الا اسمه وكانوا في

حالة بداوة تكاد تكون قريبة من حالة الشلك التي تقدم لنا وصفها فاجتذب عثمان بعذوبة الفاظه وبلاغة كلامه أفئدتهم للاسلام حتى تمكن الايمان من قلوبهم وحكى لنا اكثر من واحد أنه جمع ذات ليلة نساء (الهدندوه) ووعظهن حاثا لهن على الصدقة وانفاق المال فى سبيل الله فما منهن واحدة الا ونزعت ما عليها من حلى ومصاغ وألقته بين يديه فاجتمع من هذه الصدقات مقدار وافر من الذهب والفضة وبلغ من حماس أولئك النسوة انهن كنّ يرافقن أزواجهن فى الغزوات يحملن الماء والزاد لغذاء المقاتلين ويجهزن على المجروحين بما يحملنه في أيديهن من السلاح حتي صرن يمثلن باشلاء القتلى تمثيلا شنيعاً وقد تقدم لنا ذكر ذلك

والحاصل ان عثمان دقنة نال حظوة فى السودان الشرقى كانت كافلة له أن يبقى بعد موت المهدي في مركزه ولو كره ذلك التعايشي الذي كان يعجز عن مناوأته ولكنه مالبث أن انفض الناس من حوله وجاهروه بالعداوة ولا غرو فان الظلم مرتعه وخيم

هذا وقد أمد التعايشي عثمان دقنه بالجيوش الجرارة بقصد ارغام الاهالي على الطاعة فلم تقرن أعماله بالنجاح ولو فرض أنه نجح في اخضاع الناس فلا يكون خضوعهم الا مداراة حيث كانت القلوب منصرفة عنه كما بات التعايشى فى أخريات أيامه تداريه الالسنة والقلوب تتربص به الدوائر لتتخلص من وطأة ظلمه الذي أرهقهم به

وأصبح عثمان دقنه أثر ذلك فريداً لا أنصار له من أهالى البلاد وكان جنده عبارة عن المقاتلة التى أمده التعايشى بهم وجلهم من مقاتلة أبى قرجة الذين نقضوه ونفروا عنه لما كان بينهم وبين قائدهم أبي قرجة من المنافسة التي تقدم لنا

الالماع اليها وفر أكثر هؤلاء المقاتلة ولحقوا بديارهم فى الخرطوم لانه كان لايعطيهم ما يقوم بحوائجهم الضرورية

ويظن كثير من الناس ان عثمان دقنه قد ندم في أخريات أيامه على ما فرط منه من متابعة المهدوية لما شاهده من أعمال التعايشي التي تخالف أعمال المهدى على خط مستقيم ولكنه كان لايأمن جانب الحكومة بعد ان أتى ماأتاه معها

ولقد حكي لي أحد القواد الذين كانوا معه انه سامره في خلوة وقال له ان الحكومة تدعوني الي الطاعة وتعدني بكل خير ان أنا خضعت لها فماذا تظنها تفعل بي اذا أسلمت نفسي لها فقال القائد وقد ظنه يختبر مايضمره لاتأمن جانب الكفار فاني أرى انهم اذا تمكنوا منك سجنوك وجعلوا غذاءك الغلة تمضغها كما تمضغ الخيل المعلوفة وربما فقئوا عينيك وتركوك فى قعر السجن فاربد وجه عثمان وقال له ماقلت الا حقاً

وحكي آخر مايفهم منه ان عثمان دقنه أدرك خشونة مركبه وانه صار بلا سند فى السودان الشرقى ولذا أصبح في حاجة للاستمرار على ولاء التعايشي الذي كان يبغضه في السر وينسب الى سوء ادارته ومظالمه خراب السودان وأنه قال يوما لبعض خاصته مايأتي

أحلف بكتاب الله هذا (ووضع يده على المصحف الشريف) انى لاأخاف الا من ثلاثة فقال جليسه ومن هؤلاء الثلاثة فقال هم الخالق عزوجل والمجذوب بن أستاذى الشيخ الطاهر والخليفة التعايشى فقال له لم أفهم قصدك وأرجو أن تفصح لي عن مرادك فأجابه عثمان انى أخشي الله تعالى لانه قادر على خذلانى فى الدنيا وعذابى فى الآخرة وأما خوفى من المجذوب فلانه رجل

قليل الأدب يضيق صدري من وقاحته وأخشي أن تفرط مني كلمة تغير خاطره ولو تغيراً خفيفا فاكون قد أسأت والده أستاذى الشيخ الطاهر الذى أجله وأحبه اكثر من حبي لنفسي وأفديه بأبويّ وانه كما علمت أهدي اليّ الامارة وبوأني منصبها واني أطلب من الله أن أخرج من الدنيا وتكون حياتي ومالي فداء لشراك نعل اى أحد من عترة أستاذى الشيخ الطاهر رحمة الله عليه. وأما خوفي من الخليفة التعايشى (وعندئذ تنهد عثمان وخنقته العبرة وقال يضيق صدري ولا ينطلق لسانى) فانى أخاف ان أنا خالفته ان يقبض عليّ وينفيني الي خط الاستواء (ثم سكت طويلا) فقال واقسم لك على كتاب الله انى لا أهاب الموت ولست جبانا ولكنى أتقى شماتة الاعداء

ومن هذا الحديث يفهم القاريء ماوصلت اليه حالة عثمان دقنه من الارتباك فى أيامه الاخيرة

ولما دخلت سنة ١٣٠٨ منعت الحكومة خروج الاقوات من سواكن فتصاعدت الاسعار ثم عز وجود المؤنة فى معسكر طوكر ففر من المعسكر كل من قدر على الفرار من المقاتلة وتجهز عثمان فيمن بقى معه منهم للغزوكي يحصلوا من النهب مايقوم بحاجتهم من القوت فاوغل فى وسط الجبال ونازل الاعراب الموالين للحكومة ففاجأه نبأ احتلال الجنود المصرية هندوب فاسرع الاوبة الى طوكر فبلغها قبل ان تهاجمها الجنود ببضع ليال

وفى أواخر شهر رجب سنة ١٣٠٨ هاجم هولدسميث باشا طوكر ببضعة طوابير من الجيش المصرى فخرج عثمان دقنة لقائه في بضعة آلاف مقاتل وانتشبت الحرب بين الفريقين وحاول الدراويش اقتحام المربع

فصدتهم المقذوفات وولوا منهزمين لايلوون على شيء وكان عثمان واقفاً وراء مقاتلتهم بعيداً عنهم بمسافة ألفي متر

وبعد الهزيمة احتملوا ماخف من امتعتهم ونساءهم وقصدوا كسلة وتخلف عن مرافقتهم عدد كبير من المصريين ولم تتقدم القوة الي طوكر وخاف المصريون ان يكر عليهم عثمان فى الليل فحملوا الاسلحة واستعدوا لدفعه عنهم حتي تبلج الصباح وسار أحد أسرى المصريين الي معسكر الجنود المصرية واخبر القائد بفرار عثمان دقنه وتخلف المصريين عن مرافقته وانه ودراويشه حملوا متاعهم ونساءهم وغادروا طوكر قاصدين كسلة منذ صباح أمس ولم يبق في طوكر غير المصريين الذين كانوا مأسورين فتقدمت الحامية واحتلت طوكر ومن العجب ان الجنود مدوا أيديهم وسلبوا ممتلكات المصريين وعاثوا في أعراضهم فلا حول ولا قوة الا بالله .

شان عثمان دقنة بعد ذلك

لما انهزم عثمان دقنة من طوكر سار فيمن بقي معه من المقاتلة خائفين مذعورين يبتعدون عن الفجاج التى تقرب من العمران ويختفون فى الغابات خشية أن تشعر بهم قبائل الاعراب النازلة بين تلك الغابات والجبال وجعلوا وجهة سيرهم كسلة فهلكت دوابهم ومات اكثر الضعفاء من الاطفال والنساء ونفذت أقواتهم حتى صاروا يقتاتون بورق الشجر وكان سيرهم بطيئا لما هم فيه من الجوع وفقدان الدواب والخوف من الاعداء .

ولما وصلت أنباء هزيمتهم الى التعايشي أظهر غضبه على عثمان دقنة ونسب اليه سوء التصرف في الامور وان أنصاره ما انفضوا من حوله وتركوه

وحيداً الا بسبب فظاظته وسوء سيره

وكان عثمان دقنه مدركا لما أحدق به من الخطر بسبب غضب التعايشي الذي لا يطفؤه غير الرشا التي تدفع لاخيه يعقوب

ويحسن أن أورد هنا قصة تحققت ثقة راويها وهي أن عثمان دقنة كان قد خبأ قدراً عظيما من المال في أحد الجبال القريبة من كسلة فعرج في سيره الى كسلة على ذلك الجبل وأخذ نحو مائتي الف ريال وزع منها خمسين الفا على من كان معه من الاعوان وحمل الباقي معه الى أم درمان حيث بلغها في أواخر شهر ذى القعدة فدفع منه مائة الف ريال ليعقوب أخي التعايشي الذى توسط له عند أخيه فصفح عنه. وفي أواخر شهر ذي الحجة أمر التعايشي عثمان دقنة ان يذهب الى جهة (دارامه) على نهر اتبره بين بربر وكسلة وان يجتهد هو وجنوده في زراعة الذرة ليحصلوا على قوتهم منها ودفع لهم نحو مائة رأس من البقر والغنم ليقتاتوا من نتاجها فغادر عثمان دقنة أم درمان وعسكر في (دارامه) وأخذ يغير على أطراف سواكن للسلب والنهب ولم تعد له أهمية تذكر

حالة السودان بعد ذلك على الاجمال

ظهر لك مما تقدم كيف استبد التعايشي بالملك وكيف قدر على التغلب على من ناوأوه وكيف أرهق البلاد بمظالم تنوء بحملها الجبال

وقد ذكرنا ما حاق ببعض القبائل الكبيرة من الهلاك والدمار ولا يظنن القارىء ان القبائل الصغيرة والعشائر التي تسكن القرى قد سلمت من ضرر هذا السيل الجارف فانها نالت نصيبا من الحيف لا يقل عما نالته القبائل الكبيرة

عدا المجاعة التي عمت السودان كله

ونحن لم نذكر تفاصيل ما أصاب القبائل الصغيرة والعشائر التي تسكن القرى لعلمنا ان ذلك يستغرق مجلدين ضخمين لا يقل حجمها عن حجم كتابنا هذا ولكن الذي لا يدرك كله لا يترك جله. وها نحن موردون لك نزرا من تلك المظالم ليكون لك دليلا على ما أصاب السودان ونبدأ بذكر حادثة « قري وادي شعير » فنقول

هذه القرى واقعة في جنوب شرقي الخرطوم بمسيرة بضع مراحل وتبعد عن النيل الازرق بنحو عشرة أميال وأرضها خصبة تجود بمحاصيل وافرة من الذرة والقطن ذهب اليها جماعة من الدراويش لجباية الضرائب ثم دخلوا احدى القرى ومدوا أيديهم الى الماشية فذبحوا منها مازاد على كفايتهم ثم نهبوا الاغذية من داخل البيوت فلم يعترضهم السكان ولا حركوا ساكنا لمنعهم بل تركوهم وشأنهم فمدوا بعد ذلك أيديهم الى النساء وعبثوا بهن فهبّ الاهلون حينئذ ووقفوا في وجوههم وقفة المدافع عن عرضه الذاب عن حريمه فلم ينثن الدراويش عن الاعتداء ولجوا في الطغيان وضربوا الاهلين بالاسلحة فسقط منهم قتلى وجرح منهم كثيرون ونشبت الحرب بين الفريقين وسالت الدماء واستصرخ أهالي القري بعضهم وتألبوا على قتال الدراويش الذين فروا أمامهم مدحورين حتي بلغوا ضفة النهر وهناك بعثوا يخبرون التعايشي فأرسل خمسة من النواب توجهوا الى محل الواقعة وعادوا فاخبروه بما وقفوا عليه فأصدر أمره بمصادرة أموال سكان تلك القري وأخذ نسائهم مسبيات لانهم كفار حاربوا دراويش المهدي ولم يرضخوا لكل ما يأتونه من المنكرات

هذا ما وقع لاهالي (قرى وادي شعير) ولم توجد في بلاد السودان كلها قرية لم يقع لها مثل ماوقع لهاته القرى وانما أوردنا حادثتها مثالا يقاس عليه ماحاق ببقية القرى لضيق المقام عن استيعابه

وكان من العوائد المألوفة عند الدراويش انهم اذا سافروا من بلد الى اخرى لا يحملون زاداً ولا ميرة بل يذبحون مايصادفهم في طريقهم من الماشية ويدخلون منازل السكان ويأخذون مايجدونه فيها من الاغذية ويأخذون الحبوب لعلف دوابهم وينزل القواد في منازل الاكابر فيقدمون لهم الاغذية الفاخرة وليتهم يقفون عند ذلك بل لابد من دفع الرشا لهم فاذا تناولوا المال وأكلوا ماشاؤا من الاطعمة ورحلوا عن القرية أو البلد بدون أن ينتحلوا لها أسبابا يستحلون بها أخذ المال وسبي النساء عدّ ذلك من أكبر النعم على أهل تلك القرية وفي غالب الاحوال تكون نجاتهم هذه لاسباب منها ان لاتكون نساؤهم جميلات وأن لاتكون أموالهم الاقدر ما يقوم ببعض ضرورياتهم أما اذا كانت النساء حسانا والمال زائدا عن الضروريات فلا بد لهم من يوم يذوقون فيه العذاب الاليم

ونقل اليّ واحد من المصريين سافر مع احدى السرايا الى جهة النيل الابيض وكان الدراويش زهاء ألفى مقاتل أنهم بعد ان غادروا أم درمان بمائة ميل ذبحوا مائة وخمسين رأسا من البقر ومائتي رأس من الغنم وهكذا كان فعلهم بالماشية التي تقابلهم في الطريق أما الغلال فكانوا لا يأخذون منها غير كفايتهم وفى ذات يوم وصلوا الى أحد الاسواق وفيه أجران الغلة فنهبوها وكانت نحو ثلاثة آلاف أردب

وجملة القول ان بلاد السودان في أوائل سنة ١٣٠٨ أصبحت بسبب

المجاعة فاقدة تسعة اعشار سكانها وأصبحت البلاد قاعا صفصفا وكأن التعايشي انما رضي بتلك النتيجة لانه بها أمسي آمنا على ملكه من ثورة الاهالي عليه وأخذ في توزيع أقاربه البقارة واسكانهم في المقاطعات الخصيبة

أما بلاد كردفان فانها لم تصب بالمجاعة في السنتين الماضيتين لان الامطار هطلت فيها غزيرة ولكن التعايشي أرسل لها نحو اثنى عشر ألف فارس انتشروا في البلاد انتشار الجراد فالتهموا محصولاتها في أشهر قليلة وما جاء آخر سنة ١٣٠٧ حتي تصاعدت أسعار الاقوات ودخلت سنة ١٣٠٨ والمجاعة فاشية في اقليم كردفان وانحبس المطر عنها وهلك من هلك من السكان وفر باقيهم ولجؤا الى الجبال

ويرى الذين وقفوا على الحوادث السودانية منذ بدايتها ان المهدوية تلاشى أمرها منذ سنة ١٣٠٦ ولم تقم لها قائمة بعد ذلك وانهزمت جيوشها في أكثر الجهات ففي سنة ١٣٠٦ قتل ابن النجومي في حدود مصر وسيأتي ان الايطاليين هزموا الدراويش شر هزيمة قبل أن يحتلوا كسلة في واقعة (غردت) ثم أخذت في التلاشي والهبوط

ومن الحقائق التي لامراء فيها ان الحكومة المصرية لو قصدت فتح السودان في سنة ١٣٠٦ أومابعدها لقدرت على الاستيلاء عليه بغير عناء يذكر بالنسبة لما صادفته في طريق فتحه فقد أرسل اليها في سنة ١٣٠٦ أكثر الامراء المرابطين في دنقلة يعرضون خضوعهم لها ويسألونها العفو عن جرائمهم

أما التعايشي وقومه البقارة فقد انغمسوا في الترف وتنعموا بالملاذ وبذلك فقدوا ما كان فيهم من صفات الشجاعة والبداوة ومع ذلك فقد كان لا يجدون من الاهالي غيرة في الأمة يخلصون لهم الولاء بل كان الكل يشنون

من ثقل وطأة مظالمهم ويتأففون من سوء سيرهم ولكن بقيت في قلوب الاهلين بقية من الاعتقاد بمهدوية المهدي وكانوا يلقون تبعة المظالم كلها على عاتق التعايشي ويسعون في الخلاص من ظلمه بمبايعة أحد الخليفتين علي حلو ومحمد شريف الا أن آمالهم في هذا الأخير كانت أوثق منها في ذاك نظراً لقرابته من المهدي ولان ذاك كان له بعض حظ في دولة التعايشي

ومن المضحكات ان الناس لفرط ما أصابهم من ظلم التعايشي قام كثير منهم وكل يزعم أنه المسيح عيسى بن مريم صلوات الله وسلامه عليه يرومون بذلك الوصول الى سلب الملك من التعايشي اذ ظهور المسيح يعقب المهدي فكان لا يمر يوم الا ويظهر فيه كثير منهم عدا الذي ذكرنا خبره في (القلابات) ولقد قام رجل مصري من أهالي الخرطوم اسمه (خليل جامع) مدعياً ان النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بأنه خليفة عثمان بن عفان عليه سحائب الرضوان وأمره بتوزيع ما في بيت المال من الاموال فقبض عليه وسيق الى التعايشي الذي كان يعرفه حيث كان متزوجا بنت عمه فقال له ياخليل ماهذا الذي تدعيه فانتهره وقال له هذا أمر جاءني من الله ورسوله وأنت لاتجهله فقال التعايشي انه مجنون وان الجني الذى مسه ساكن في بيت المال فاذهبوا به الى سجن بيت المال فمكث فيه بضع سنوات ثم أطلق سبيله واستمر على حالة جنونه

وكان بجوار بيت المال قبطي اسمه (محروس) يسكن مع قريبة له اسمها (مصطفية) وكلاهما من أهالي الخرطوم أصيب ذلك الرجل بجنة فصعد على رابية عالية وخطب في الناس قائلا انه (ماري جرجس) فدنت منه قريبته المذكورة وقالت له يامحروس انك بدعواك هذه تلصق بنا تهمة أننا

لا ازال نصاري فأرجوك أن تترك هـذه الدعوى وتدعي غيرها كما يدعى المسلمون فانتهرها وقال لها اذهبي فقالت له انتظر الموت لان أصحاب الدعاوي الملائمة لاذواق المسلمين يقتلون ويسجنون فكيف بمن يدعي مثل دعواك التي تدل على انه نصراني ثم هرع أقاربه اليه وحملوه الى داره فمات بعد أيام يسيرة

والحاصل ان اهل البلاد صاروا في حالة غريبة وجل الناس تغيرت عقيدتهم في المهدوية وتبدلت أميالهم نحوها بالنفور عنها ولم يعد التعايشي يثق بأحد من الاهالي غير أقاربه البقارة ولذا جمع ألوفا من العبيد (الجهادية) وسلحهم بالاسلحة النارية

وقد نمي الى خبر حادثة لاأري بأسا بايرادها وان كنت لاأجزم بصحتها وهي أن رجلا من التعايشة أقارب الغزالي الذي تقدم لنا ذكر قتله استأذن على التعايشي فأذن له ولمن معه وكانوا زهاء عشرين رجلا وبعدان أخذ الحراس مامعهم من السلاح دخلوا عليه وأوجعوه ضربا (ولم يشعر بذلك غلمانه لبعدهم عن غرفة جلوسه التي لايؤذن لهم في الدنو منها الااذا استدعي واحدا منهم) حتى أغمي عليه ثم تركوه وانصرفوا وكانت هـذه النادرة في شهر ذي القعدة سنة ١٣٠٨ وفي الغد قبض على الرجل والذين كانوا معه ونفوا الي خط الاستواء. واشتد مرض التعايشي حتي أرجف الناس بموته ومكث مريضا الى العشر الاولي من شهر ذي الحجة. وقد تضاربت أقوال الناس في اسباب نفي أولئك الرجال فمنهم من يرى ان السبب فيه هـذه الحادثة ومنهم من يقول ان التعايشي أسر اليهم كلاما فافشوه في ليلتهم فقبض عليهم في الغد والذين رووا الحكاية الاولي يخالفونهم ويؤيدون قولهم بعرض

التعايشي والله أعلم بالحقيقة

وقد حدث في خلال السبع سنوات التي مضت على ولاية التعايشي كثير من الحوادث التي لو اوردناها لضاق بنا المقام وأخصها مصادرة أموال كثير من الاغنياء لاسباب تافهة ان لم نقل انها مختلقة يقصد بها الحصول على أموال الناس

وقدحور التعايشى اكثر الاحكام التي وضعها المهدى فى الحدود منها أن المهدى لما كان فى جبال قدير أصدر منشوراً بشأن الدخان قال فيه ما يأتي «من استعمل الدخان مضغاً فى الفم أو حرقا بالنار أو وضعا فى الانف يجلد سبعا وعشرين جلدة بالسياط»

ثم بعد استيلائه على كردفان أصدر منشوراً آخر جعل فيه العقوبة ثمانين جلدة وحبس سبع ليال وبمثل هذه العقوبة يعاقب شارب الخمر. ولما ولي التعايشي قال للناس وهو على منبر الخطابة (من وجد في بيته ربع درهم من الدخان يجلد ثمانين جلدة ويؤخذ جميع ماله غنيمة للمسلمين) وذلك مخالف لما قاله المهدي وليست مخالفته من جهة العقوبة فقط بل ومن جهة ان المهدي اشترط ثبوت استعماله بالاوجه التي أوردناها وامتلأت البلاد بالجواسيس الذين يهجمون على المنازل لضبط الدخان مع أنهم يحملونه معهم ويدعون انهم ضبطوه في المنزل ليتذرعوا الى مصادرة أموال أولى اليسار ولهم فى ذلك حكايات يطول شرحها

ونقل لى ثقة ماراْيت ايراده تفكهة للقارىء وذلك ان أحد أهل العلم من أهالي الخرطوم فقد كل ما يملكه وقتل كثير من ذوى قرابته فصار في حالة تقرب من حالة الجنون . ومن نكاته المضحكة انه كان يتشاءم من يوم الاثنين الذي كان فيه سقوط الخرطوم فكان يعتكف في داره لايخرج

منها منذ عصر يوم الاحد ويصبح منقطعاً عن كل عمل كما يفعل اليهود في السبت ومكث على ذلك زهاء سنة ثم انه ذهب يوم الثلاثاء الي النهر للاستحمام فاختطفته الامواج وكان لا يحسن السباحة فانتشل بعد أن أشرف على الهلاك فخرج من النهر وهو يقول اللهم لا اعتراض على حكمك فى يوم الاثنين عذبتنا بالقتل والنهب وفى يوم الثلاثاء عذبتنا بالغرق فتشاءم من يوم الثلاثاء أيضا وصار يعتكف من عصر الأحد فلا يخرج الاصبيحة الاربعاء وبعد أشهر مضت وهو على هذه الحال دخل عليه في داره جماعة من الدراويش وأوسعوه ضربا بدعوي انه يستعمل الدخان وبعد اللتيا والتي خلص منهم فقال اللهم ارفع غضبك عنا ففي يوم الاثنين عذبتنا بكذا وفي يوم الثلاثاء بكذا وفي يوم الاربعاء بالضرب بالسياط وتشاءم أيضا من يوم الاربعاء وصار لا يخرج من داره الا في صبيحة يوم الخميس ثم توفى بعد ذلك رحمة الله عليه

هذا وقد انهمك التعايشي وبطانته في الترف اكثر من ذي قبل وصار في حالة من السمن بحيث يكاد الذى رآه حين افضاء الملك اليه أن لا يعرفه وقد تقدم لنا انه كان نحيف الجسم مشوه الخلقة بآثار الجدرى التي تركت فى وجهه كهوفا صغيرة زادت فى شناعة منظره أما فى سنة ١٣٠٨ فقد محيت آثار تلك الكهوف من وجهه فصار مستديراً بعد ان كان قبيحاً مستطيلا وصارت عيناه كأنهما عينا ليث يظنهما الرائى مصابتين برمد لشدة احمرار بياضهما

وقد فعل التعايشي أشياء كثيرة تخالف ما كان المهدي ينهي عنه ويحذر من استعماله بل كان يرى مستعمليها بالمروق من جادة الحق وآداب الدين فقد كان المهدي يلبس حذاء شرقياً ويلبس نعلاء ...

وأما التعايشي فلا يوجد في بلاده الا النعال العربية فكان في بداية أمره لا يلبس غيرها وقد رأيت بعيني شقوق قدميه التي تكاد تختنق الحشرات الصغيرة فيها كل هذا ذهب وأصبح في خبر كان وصار يلبس الاحذية الشرقية والخف

وكان المهدي قد حذر من سكنى القصور وبالغ في ذلك حتى ألزم الذين يشيدون المنازل باللبن النيء ان لا يتجاوزوا في ارتفاعها أكثر من ذراع أو ذراعين وكان التعايشي شديد البغض لمن يرى داره مرتفعة عن هذا الحد وكثيراً ما أمر بهدم بعض المنازل التي يزيد ارتفاعها عن ذلك

هذا ما يعامل به الناس أما هو فقد شاد داراً واسعة شرقي الجامع واحاطها بسور من اللبن المحروق ورفع بناءها حتى كانت يخالها الانسان حصناً أو معقلا وشاد قصراً فيما يلي جدار المسجد وجعل نوافذه مطلة عليه وعلى ساحة الاستعراض « العرضة » الواقعة غربي المسجد ومنع الناس ان يقولوا انه « قصر » وكان القضاة يعزرون من يقول ذلك وقال التعايشي للناس انه ما شيده ليسكن فيه بل ليصعد عليه في كل غداة جمعة لينظر الى ساحة استعراض المقاتلة وأطلق عليه اسم « كشافة العرضة » مع ان نوافذ القصر كما قلنا مطلة على المسجد والناس يرون باعينهم المصابيح فيه وروائح العطر تفوح من نوافذه ولا يجسر أحد على القول بان التعايشي ساكن في ذلك القصر وهدم حمام سراي الحكمدارية ونقل انقاضه وأدواته من الخرطوم الى أم درمان وشاد بها حماما في داره يستحم فيه ونقل منبر مسجد الخرطوم ووضعه في مسجد أم درمان وشاد فوقه بناء شاهقاً واحاطه بمقصورة من قضبان الحديد وخصصه للخطابة

في غير الجمعة فاذا صعد عليه احتشد الناس حوله فيبدأهم بقوله « السلام عليكم يا أصحاب المهدي » فيردون تحيته ثم يكلمهم بما شاء ويأمرهم بما يريد ويعظهم ويحثهم على مواظبة الصلوات الخمس في المسجد

وجملة القول ان التعايشي تغيرت عليه قلوب الناس وتبدل ولاؤهم له بغضاً وسرت روح الثورة في جميع انحاء البلاد وبتنا ننتظر انقلابا نرجو من ورائه فرجا

ذكر تعيين المؤلف وجماعة من المصريين امراء

قلت أني لما رجعت من قرية (ولد الزاكي) في البحر الابيض اثر هروبي الى (شركيله) ورجوعي منها أسلمني التعايشي الى بقاري يقوم بحراستي في المسجد وقد ظللت خمس سنوات في اسره وسيأتي بيان ماقاسيته في تلك السنوات حتى دخلت سنة ١٣٠٩ هجرية وحالة السودان على الصفة التي بيناها

وفي عصر أحد الايام سمعنا مناديا يقول ان الخليفة يدعو جميع أولاد الريف (المصريين) الى الاجتماع ضحوة الغد في ساحة دار أخيه يعقوب ففزعنا من هذا الخبر وبتنا بليلة طويلة نتوقع في غداتها سوأ يصيبنا وذلك ان التعايشي عودنا انه لايدعونا الا لامر نكرهه وتقدم بيان بعض دعواته فيما مضى

وفي ضحوة الغد اجتمعنا في منزل أخيه يعقوب وكنت جالسا خلف المحتشدين من المصريين وكانوا زهاء خمسة آلاف رجل وبعد هنيهة جاء التعايشي فوقفنا اجلالاً له ورفعنا أصواتنا بكلمتي الشهادة فسلم على يوسف منصور رئيس الطوبجية المهدوية والسيد جمعه الذي كان مدير الفاشر ثم صار

طوبجيا مع يوسف منصور وأثنى عليهما وامتدح اخلاصهما للمهدوية وقال ياحبذا لو صار المصريون كلهم مثلهما في الاخلاص للمهدوية ثم التفت الى عينه ويساره وقال مالي لاأرى ابراهيم فوزي فأسرعت بتلبية ندائه وخرجت من الصفوف فقال لي يافوزي أما ترى الاخوين الصادقين المخلصين لنا يوسف منصور والسيد جمعه فهلا اقتديت بهما وقلت فعلهما ألم ترهما يقضيان أكثر الوقت في بابي ولا ترتاح نفوسهما الى غير رؤيتي فقلت يامولاي اني أشد اخلاصا منهما ولكنك لاتقربني منك كما قربتهما فسكت وقال لقد ألزمتني الحجة ثم جلسنا وقدموا لنا أربع زكائب مملوءة تمرا ونثروها أمامنا على الارض فصرنا نأخذ التمر من التراب ونأكله فقلت له ياسيدي أريد أن أحمل جزأ من التمر تبركا لآل بيتي فضحك وقال ليحمل كل منكم ماشاء

وبعد الاكل استدعاني أنا واسكندر بك وأعطاني راية لاكون أميراً على جميع المصريين الذين كانوا من جند الحكومة النظاميين ودفع الى اسكندر بك راية وجعله أميرا على جماعة (الحلبة) أي الرعاع الذين يقضون حياتهم رحالة ويحترفون بالتسول بعضهم بالقردة وبعضهم بالدفوف ويتغنون على نغماتها ويضحكون الناس وهم المعروفون في مصر باسم (غجر الشام) ودفع الى رجل كردى الاصل اسمه (حسن قره شولى) راية وجعله أميراً على الذين كانوا من جند الحكومة الغير نظاميين (باشبوزق) وكان أيضا للمصريين أمير آخر اسمه (حسن حسين) مصري الاصل كردفاني المولد والنشأة عينه المهدي أميراً على جميع (المواليد) وهم المصريون الذين ولدوا في انحاء السودان وكان حسن حسين هذا تقياً ورعاً صالحاً يتظاهر بالاخلاص للمهدوية ذا منزلة علية عند المهدي والتعايشي وسائر الامراء وموظفي المهدوية

وكان مع ماهو فيه من شدة التمسك بالمهدوية ذا طوية حسنة لقومه المصريين فكان يدافع عنهم عند التعايشي الذي كان لا يرد له قولا وكثيراً مادفع عنهم الضرر وبالجملة انه كان يريد منهم أن يتظاهروا بولاء المهدوية ليتمكنوا من داخليتها ويقبضوا على كثير من وظائفها التي لايمكن لغيرهم القبض عليها وقد ذكرت فيما تقدم انه رأى ابني محمداً يمثل تدخين السجارة فسأله عن ذلك فأجابه بقوله هكذا يفعل أبي وأخيراً حذرني من اطلاع هذا الصبي على مثل هذا العمل ولم يصنع معي شيأ يكدرني مع ان مثل هذه المسألة لو وقف عليها غيره لجلبت علي ضرراً بليغا

وعلى ذكر المصريين نذكر هنا حالتهم التي كانوا عليها في اسر المهدوية وهي لاتقل عن الحالة التي قاسيتها الا أن بعضهم نالوا وظائف كتابية في بيت المال وعند عمال الخراج ونال بعضهم وظائف صناعة البارود وتعبئة الخرطوش وسائر الادوات الحربية وقد أشرنا الى ذلك فيما تقدم وفريق منهم وأكثرهم من الضباط وذوي المراتب السامية قبل الاسر احترفوا بمهن تافهة وفتح كثير منهم حوانيت للاطعمة والخبز ومع ذلك كانوا كلهم في حالة الاضطهاد والتحقير من جميع السودانيين ولم يكن لذلك من سبب سوى بياض بشرتهم الذي يدل على جنسيتهم

ومن الغرائب المضحكة ان رجلا كان جاويشا مصريا ثم صار يبيع « الترمس » وكان يرفع صوته في السوق ويقول (تفرج) فامسكه حاكم السوق وقال له انك تقصد بكلمة « تفرج » عودة حكم الترك وزوال المهدوية فتنصل من هذا التأويل وحلف انه لايقصده فأمر بجلده فجلد مائة جلدة وفي أثناء الجلد كان يصيح بقوله « لا تفرج » لا تفرج ثم انه ترك

كلمة تفرح في ندائه على بيع الترمس واستبدلها بقوله «خليها على الله» فأمسكوه ثانيا وجلدوه بعد ان قالوا له انك تقصد بهذه الجملة مقصدك الاول ومثل هذه العبارة كثير يعد بالالوف ومنها أن امام أحد المساجد فى الجزيرة قال فى خطبة الجمعة « اللهم حوّل حالنا الى أحسن منه » فجلدوه وعزلوه وقالوا له انك تقصد عودة الحكومة السابقة فقال لهم ماذا أقول فقالوا قل (اللهم أدم علينا هذا الحال » فالتزم ذلك

على ان كثيراً من المصريين تقدموا عند المهدويين ونالوا وظائف كتابية وصناعية جمة كانوا بواسطتها في رغد من العيش الا انهم كانوا عرضة للسخرية والازدراء من العامة حيث كانت ألوان بشرتهم بيضاء وكانوا ممنوعين من السفر الى الجهات الشمالية كيلا يفروا الى مصر حتى ان التعايشي كتب منشوراً باهدار دم أي مصرى وجد في جهة (خورشنبات) شمالى بلدة أم درمان بستة أميال تقريبا

هذا وقد فاتنى ان اذكر ان التعايشي لما مثلت بين يديه فى هذه المقابلة قال يافوزي ان النصارى كتبوا لنا فى شأنك وهم على ماأظن يحبونك فقطعت عليه الكلام وقلت هم يحبوننى لاننى خدمتهم باخلاص فيما مضى واننى أقسم بالله انى أخدمك باخلاص أشد مما خدمتهم به لانني اذا كنت خدمتهم بصدق وهم كفار فكيف لا أخدمك وأنت خليفة المهدي عليه السلام الذى هو خليفة رسول الله صلي الله عليه وسلم فضحك وتمايل طربا من هذا المدح وقال لي جزاك الله خيراً وبارك فيك أيها الرجل الصادق

هذا وقد فرحت بالامارة لانني رجوت بها خلاصاً من ربقة الموكلين بحراستي فى المسجد الذين سيجيء ذكر ماقاسيته من عذابهم بضع مدة سنوات

ذكر ملازمتي الصلوات في المسجد

قد تقدم انني لما فررت في أوائل سنة ١٣٠٥ عدت الى أم درمان بالكيفية التى مرّ الكلام عليها

وفي يوم عودتي الى أم درمان اسلمني التعايشى الى بقاري يقوم بحراستي في الصفوف التى خلف مقصورته ولما رآني ذلك البقاري قال (ياولد الريف) لماذا أنت ضخم الجثة ولماذا وجهك أبيض مع أنك كافر فقلت هكذا خلقني الخالق فقال احمل سلاحي وسر خلفي فحملت سلاحه وذهب معي الى منزلي وتناول طعام العشاء معي

وفى اليوم التالي بدأت بأداء الصلوات بجانب ذلك البقارى الذى انضم اليه آخر ليكونا معاً فى حراستى فكانا يمنعاني من الخروج من المسجد ولو لقضاء حاجة الوضوء كما يمنعانى من أخذ الراحة فلا أجلس الا جاثيا على ركبتي كما يجلس المصلى وقالا لى يوما (يا ولد الريف) اعلم انك كافر وان الخليفة اسلمك الينا لنعلمك الصلاة والصوم وضيقا على حيث صرت لا أقدر على التخلف من الصلاة بالمسجد وكان منزلي يبعد عن المسجد جهة الجنوب بنحو أربعة أميال فكنت أخرج من منزلى قبل طلوع الفجر بنحو ساعتين وبعد أداء الصلاة أجلس لقراءة (راتب المهدي) حتي ترتفع الشمس ثم أعود لصلاة الظهر قبل نهاية الساعة الثامنة من النهار على الحساب العربى لانهم انما يصلون الظهر في بداية الساعة التاسعة وبعد نحو ساعتين يصلون العصر وفي بعض الاحيان لايصلون العصر الا قبل الغروب بنحو ساعة وصلاة المغرب فى الغالب تكون بعد غروب الشمس بنحو ثلثى ساعة وبعد ذلك اذهب

الى منزلي الذى كنت لا أدرك فيه راحة اكثر من بضع ساعات حتى صرت في حالة يرثي لها من العذاب الاليم والحاجة الى الراحة فاتفقت مع البقاريين الحارسين على ان أدفع لهما ريالين عن كل وقت اتخلف فيه عن حضور الصلاة فقبلا بعد رجاء شديد وعدا ذلك أنهما كانا يذهبان معى الى منزلي ويتناولان معي الطعام ويكلفانى بشراء ملابس لهما ولاولادهما ونسائهما بعد كل شهرين أو ثلاثة وفى بعض الاحيان يأخذني احدهما الى الحى الذي تقيم فيه عشيرتهم فيجتمع حولي منهم نحو مائتى شخص أظل نهارى كله اكتب لهم الخطابات الى ذويهم فى جهات مختلفة واقرأ لهم الخطابات التي تأتيهم منهم وكلهم يدعوننى (النوبى الذى دفعه الخليفة رقيقاً لهم)

وتصنع نساؤهم آنية من سعف (الدوم) محكمة الاطراف الى درجة ان الماء لايقطر منها كانها من الاجسام الصلبة ويتخذها الناس آنية يشربون فيها الماء فكانا يأتيانى ببضع أوانى منها فى الاسبوع ويكلفاني ببيعها والويل ثم الويل لي اذا لم أجد من يشتريها فكنت أحملها واذهب الى معارفى واكلفهم بشرائها وأعود بثمنها اليهما .

وفى ذات يوم قضيت نحو نصف النهار ولم أجد من يشتري تلك الآنية فعدت بها اليهما فاغتاظا وقال لي انك لا تزال كافراً يامنحوس وسنخبر الخليفة بذلك فجمد الدم فى عروقى واسرعت الى حانوت أحد أصدقائى التجار وكان أوروبيا والدمع يسيل على خدي فاخبرته الخبر فاسرع باعطائي ثمن الاواني وأخذها لنفسه فعدت اليهما ودفعته لهما فقال لي الآن اسلمت .

وصرت بعد ذلك الح عليهما واكثر الاعتذار حتى صارا يقبلان ريالا واحداً عن كل وقت من أوقات الصلاة أتخلف عن حضوري فيه ثم بعد بضعة شهور

أعدت الرجاء عليهما حتى رضيا بثلاثة ارباع الريال ثم بنصفه وهكذا حتي صرت ادفع عن كل وقت قرشين

ولما اشتدت المجاعة في سنتي ١٣٠٦ و١٣٠٧ كانا يقولان لى يظهر لنا انك في سعة من العيش فكنت أحلف لهم انني في نهاية الضنك وفقدان القوت وكنت في ذات يوم تناولت غداء من اللحم وجئت المسجد فتجشيت فصاحا بي هل تغذيت بلحم فقلت كلا فغضبا وشتماني وقالا لى انك لاتزال مصرا على الكفر وكلما اعتقدنا فيك حسن الاسلام يبدو منك مايغير هذا الاعتقاد لانك تاكل اللحم وحدك فاجتهدت في نفي هذه التهمة عني وزدت لهما الراتب وبعد عناء شديد تحصلت على رضاهما وصرت أمانع التجشي وانا جالس معهما

ومما يشبه هذه النادرة ان أحدهما قال لى يوما ان بنته مريضة وهي تشتهي السكر فقلت له انني ماذقته منذ خرجت من الخرطوم لان المهدي أوصاني بالزهد في الدنيا والسكر ذو طعم حلو لايليق بالزهاد تناوله فتعجبا من قولي وقالا لى لابد من احضار (عجل سكر) هكذا يسمون القمع من السكر فقلت لهما إن ثمنه مرتفع جداً ولا يمكنني دفعه وبعد اللتيا والتي تمكنت من إقناعهما بتركه وقلت في نفسي يكفيني تقديم الملابس لهما ومعلوم الاوقات فاذا فتحت باب السكر واللحم اكون قد جنيت على نفسي جناية ربما كانت مغبتها سيئة على

ومكثت على مثل هذه الاحوال من سنة ١٣٠٥ هجرية الي أوائل سنة ١٢٠٩ حيث تعينت اميرا كما مر

ولما تعينت أميراً امتنعت من حضور الصلاة بجانب ذينك القاريين

فاعلما التعايشي فاستدعاني وهو جالس في مقصورته بالمسجد وقال لماذا امتنعت من حضور الصلاة مع رفيقيك فقلت له يامولاي انك عينتني اميراً ولا ريب انك رايت في أهلية لان اكون مرشداً لمن وليتني عليهم فانا أقوم اليوم بتربيتهم وحضور الصلاة معهم فضحك وقال لذينك البقاريين اتركاه وبذلك خلصت من ربقة ذلهما وبت آمناً من وشايتهما في اكثر أوقاتي ولله الحمد من قبل ومن بعد

ويوجد مئات من الناس قضوا اكثر ايام المهدوية في مثل هذا الحال الذي وصفناه وكثير منهم فقدوا ثروة طائلة في سبيل استرضاء الموكلين بحراستهم بمثل الطريقة التي تقدم الكلام عليها مما يدل على ان المقصود الحقيقي من وضع الناس تحت المراقبة في الصلاة هو تسريب مافي جيوبهم من المال الى جيوب ضعفاء البقارة وكذلك أمر السجن فان السجان واعوانه يتناولون من المسجونين أموالا طائلة حتي أصبح السجانون ارباب أموال كثيرة

ذكر انتقاض الخليفة شريف واولاد المهدي

الخليفة شريف ابن عم المهدي وثالث الخلفاء كما مر الالماع الى ذلك وهو الذى لقب (بخليفة الكرار) وكان قبل وفاة المهدى صاحب الحظوة عنده بالرغم عن تقدم التعايشي عليه

وقد ذكرنا انتقاضه على التعايشي بعد وفاة المهدى وكان للمهدي ثلاثة أولادهم الفاضل ومحمد والبشرى وكانوا في سن الطفولية لما توفى أبوهم

وفي أوائل سنة ١٣٠٧ زوج التعايشي محمد بن المهدي بنته واسكنه معه في داره فكان يظهر لها الكراهة والنفور لان التعايشي اضطهد اخوته

وأقاربه ومنع عنهم العطاء من بيت المال منذ وفاة المهدي فكان الخليفة شريف يعطى مرتباً شهريا يبلغ مائتي ريال وهو قدر زهيد بالنسبة لما كان يتناوله في ايام المهدي وليتهم كانوا ينقدونه اياه في كل شهر اذ الحقيقة انه كان لا يقبضه الا مرتين أو ثلاثا على الاكثر في السنة كلها وزد على ذلك أن التعايشي انتزع راياته من يده ووزع جيوشه التي اهمها الجيش الذي هلك مع ابن النجومي في الحدود المصرية

وكان للخليفة شريف حراس من ذوي قرابته يطلق عليهم اسم (الملازمية) يركبون الخيول الكريمة ويحملون الحراب الطويلة ويحيطون به كلما خرج من داره فانتزعهم التعايشي منه والحقهم بعثمان دقنة في السودان الشرقي وبالجملة أصبح الخليفة شريف مجرداً عن كل مميزات الخلافة التي كان حائزاً أوفر نصيب منها في أيام قريبه المهدى وكذلك أولاد المهدى الذين ذكرناهم فانهم صاروا فى نهاية الاضطهاد الا محمداً الذي تزوج بنت التعايشي فانه كان ممتنيا بشؤونها ويقدم الطعام لها ولصهره فقط

وكان للمهدي أولاد غير هؤلاء في سن الطفولية ونساء يزيد عددهن على المائة وكان الكل في نهاية الضنك يتضورون جوعا

ولما فشت المجاعة فى سنتى ١٣٠٦ و ١٣٠٧ كادوا يهلكون من الجوع لولم يتداركهم ذووهم

ولما دخلت سنة ١٣٠٩ وصارت حالة السودان الى ما أشرنا اليه وتغيرت قلوب الاهلين وتحفزوا للوثبة على التعايشى اغتنم الخليفة شريف وأولاد المهدي والمضطهدون من أقاربهم هذه الفرصة وارسلوا الدعاة سراً الى بلاد الجزيرة يدعون الاهلين للانتقاض على التعايشي ومبايعة الخليفة شريف

وضربوا لذلك اجلا يجتمعون فيه بام درمان وهو السابع والعشرون من شهر رجب سنة ١٣٠٩ ودخل في هذه البيعة كثير من الوجوه والقواد واكثرهم من حزب التعايشي الذى لم يكن عالما مما دبروه حتي اذا كانت ليلة الثانى والعشرين من شهر ربيع الثاني دخل عليه أحد الجواسيس وأوقفه على المسألة فاستدعى رجلا من أهالي كردفان وهو دنقلى الاصل اسمه السيد المكى بن اسماعيل الولي وكان أول انسان بايعه يوم توفى سلفه المهدى وقال له اذهب الى الخليفة شريف وبايعه بما يريد على شرط ان تقف على مادبره وتخبرني به فاطاعه وذهب الي شريف وعاهده على المصحف الشريف وعلم منه كل ما يريد التعايشي الوقوف عليه ثم عاد اليه واخبره به فجمع التعايشي أخاه يعقوب وذوي قرابته ليتداولوا في الامر فقر رأيهم على ان يهجم رجال التعايشى على الخليفة شريف وأولاد المهدي ويقبضوا عليهم قبل ان يحل الاجل المضروب

وكان فوزى وأحمدى ابنا محمود باريه الدنقليان كاتبين للتعايشى فاعلما الخليفة شريفا بما أجمع عليه رأى التعايشي لانهما كانا ممن عاهدوه على اتمام أمره

وفي اليوم الثالث والعشرين من شهر ربيع الثاني فشا الخبر بين الناس فاصدر التعايشي أمرا الى الجهادية بالزحف من معسكرهم الى داره فخرجت الجهادية مارة على (الموردة) وما حولها من السوق فنهبوا كل ماصادفهم فى طريقهم حتى وصلوا الى دار التعايشى

واجتمع حول منزل الخليفة شريف نحو عشرة آلاف مقاتل جلهم من الدناقلة وأهالى القرى التي حول أم درمان وكان منزل التعايشى لا يبعد عن منزل الخليفة شريف باكثر من مائة متر واحتشد فى المسجد اكثر السكان الذين يظن التعايشي انهم مع عدوه فامر الجهادية بالوقوف على أبواب المسجد ومنعم من به

من الخروج حتى لا ينضموا الى الخليفة شريف وحولت الازقة التى بين منزل الخليفة شريف ومنزل التعايشى الى متاريس وخطوط نار

وكان التعايشى وقتئذ في بيتـه فلم يخرج حتي وثق من ان مقذوفات المنتقضين لا تصل اليه وأقيمت عدة متاريس على جدار منزل المهدي الملاصق لمنزل الخليفة شريف ووقع الرعب فى قلوب البقارة وفر ثلاثمائة فارس منهم قاصدين كردفان وبلغ الحماس مبلغا عظيما من المنتقضين حتى ان النساء تسلحن مع الرجال وفى أصيل النهار هجمت مائة امرأة منهم على نحو خمسين فارسا من البقارة كانوا يسقون خيولهم على ضفة النهر فاوسعوهم ضربا بالعصى ففروا وتركوا خيولهم غنيمة للنساء المتحمسات

وبات الناس ليلتهم يحترس بعضهم من بعض والتعايشي يرسل الرسل الي الخليفة شريف ويلين له الكلام

وفى منتصف الليـل هجمت رجال الخليفة شريف على صفوف التعايشي حتي زحزحوهم عن مواقفهم ونهبوا بعض أمتعتهم

وانضم الى الخليفة شريف أحمد سليمان الذي كان أمينا لبيت مال المهدي وسعيد محمد فرج من رؤساء القبائل في دنقلة وكان قد وفد على التعايشى فى أم درمان متظلما من يونس الدكيم أمير دنقلة وانضم اليه أيضا شايب بن أحمد أحد أمراء الدناقلة المشهورين وكان مع عثمان دقنة وأخبار فروسيته وإقدامه معروفة يتحدث بها أهل سواكن

أما موقف الخليفة على حلو الملقب (بخليفة الفاروق) فى هذا الانتقاض فكان موقف خديعة للخليفة شريف ومباطنة للتعايشى لانه كان يظهر للخليفة شريف انه معه ويقال انه هو الذي أخبر التعايشي بأمر انتقاض الخليفة

شريف عليه

وقد جمع الخليفة على حلو بمقاتلته وكانوا زهاء خمسة آلاف فارس ونحو عشرة آلاف من الرجالة وكلهم من عشيرته (دغيم وكنانة) وهم الذين مر لنا الكلام على انهم اول من بايع المهدى يوم اجتاز النهر من جزيرة آبا الى الضفة الغربية وهم الذين نصروه في جبال (قدير)

وفي غداة اليوم التالي فرق التعايشي مقاتلته فأحاطوا بمنزل الخليفة شريف من جميع الجهات وابتدأ إطلاق النيران من الفريقين واستمر نحو ساعتين لم تظهر في خلالها نتيجة غلبة أحدهما وهجم شاب احمد شاهرا سيفه على مائتين من جهادية التعايشي فولوا مذعورين

وفي ساعة وقوع القتال كان الخليفة على حلو مع الخليفة شريف يعرض عليه شروط الصلح وهى كما يأتى

أولا تعاد للخليفة شريف راياته

ثانياً يدفع له مرتب ٢٠٠٠ ريال فى كل شهر

ثالثا يدفع لكل واحد من اولاد المهدي مرتب يكفيه

رابعاً يعفو التعايشى عن كل الذين بايعوا شريفا على الانتقاض

خامسا يتعهد الخليفة على حلو بانفاذ هذه الشروط

سادسا يعزل يعقوب أخو التعايشي عن وزارة أخيه لانه مرتش ولانه سبب جميع المظالم التي أخربت البلاد

سابعاً يعزل قاضى الاسلام أحمد على

ثامناً لا يقطع التعايشى أمراً دون مشاورة الخليفة شريف

تاسعا يطلق سراح محمد خالد زقل (الذى تقدم لنا ذكر سجنه)

وقد تم الاتفاق شفاهياً على هذه الاوجه وحلف الخليفة على حلو على المصحف الشريف أن يكون ظهيراً للخليفة شريف ان لم تنفذ هذه الشروط ثم اصطحب الخليفة شريفا معه الى منزل التعايشي الذي قابله بالتجلة والاكرام وأخذ يبكي ويعانق الخليفة شريفا ويقول له ان المهدي جاءه في الحضرة وأمره باجابة مطالب الخليفة شريف وان النبي صلى الله عليه وسلم أوصاه به وحلف التعايشي على المصحف أنه لا يبدل شرطا من الشروط التي اشترطها عليه الخليفة شريف وانصرف الخليفة شريف الى داره وارسل له التعايشي ثلاثة آلاف ريال وأمر الناس بالكف عن الحرب وأمر الرؤساء بالذهاب الى تجديد بيعة التعايشي فوقع ذلك على الجميع موقع الصاعقة وعلموا ان ذلك خدعة وان التعايشي سيقتص منهم فلاموا الخليفة شريفا على تسرعه في ابرام الصلح بدون مشورتهم فاخذ يؤكد لهم استحالة اقدام التعايشي على الانتقام منهم فهزؤا بقوله ولكنهم لم يجدوا سبيلا عن الكف عن الحرب والتوجه لمبايعة التعايشي الذى قابلهم بالبشاشة والاكرام وعفا عنهم وحلف لهم على الوفاء بما جاء في الشروط التي أوردناها فلم يصدقوه وايقنوا ان العاقبة وخيمة

ويقال ان الخليفة شريفا عمد الى المصالحة مضمراً الغدر حيث كان موعد الاجتماع عليه في أواخر شهر رجب فصالح على ان يقوم بأمره عند حلول ذلك الاجل حيث يجتمع عليه الناس ولكن ساء فأله واتخذ التعايشي الحيطة لاحباط ذلك كله

وفي اليوم التالي ركب التعايشي في نحو ستة آلاف فارس واجتاز الاحياء التي يسكن فيها المنتقضون مع الخليفة شريف وأمر الفرسان بنهب ما في المنازل

من المتاع فقملوا وكانوا يجردون النساء من ملابسهن حتى المآزر

وانفذ السرايا الى الجزيرة فقبضوا على رؤساء الذين بايعوا الخليفة شريفا ونهبوا أموالهم

على ان اكثر الناس كانوا مشايعين للخليفة شريف وكانوا على يقين بان قيامه سيأتى بفائدة الخلاص من نير البقارة وانه لولم يصالح على الشروط المتقدمة وشهر الحرب لظهر على التعايشى الذي لا قوة عنده غير الجهادية الذين اكثرهم يظاهرونه على التعايشي

والحاصل ان ثورة الخليفة شريف جاءت مغبتها سيئة عليه وعلى كثير من الذين مالوا اليه اذ يبلغ عدد من ذهبت دماؤهم هدراً بسببها بضعة آلاف شخص كلهم ماتوا فى المنفى وقتلوا بسيف انتقام التعايشي كما سيأتي ذكر ذلك كله فى مكانه فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

ذكر القبض علي كبار حزب الخليفة شريف وقتلهم

تقدم لنا الكلام على المعاهدة التي انحسمت بها ثورة الخليفة شريف وقد مضت على هذه المعاهدة اثنتان وعشرون ليلة يبدى التعايشى في كل يوم منها من دلائل الاحترام للخليفة شريف ماجعله له أطوع من بنانه حتى أسلمه جميع الاسلحة النارية التى كانت عنده وكانت تبلغ زهاء الفى بندقية من طرز رامنجتون وكان التعايشي يركب فى كل يوم والى جانبه الخليفة شريف الذي غمره بكثرة عطاياه حتى وردت عليه انباء من انفذهم للقبض على رؤساء القبائل الذين لهم ضلع مع الخليفة شريف وجيء بهم مقرنين في الاصفاد فقلب له ظهر المجن وأرسل فى اليوم الثالث والعشرين لتقرير المعاهدة من قبل على أحمد

سليمان امين بيت مال المهدى وفوزي وأحمدي ابنى محمود باريه واخويهما
وسعيد محمد فرج من رؤساء قبائل دنقلة وادريس وربدي أحمد قضاة
بيت المال وهو قريب فوزى واخوته وخمسة عشر رجلا من أقارب
المهدى وبنى عمومته وكلهم من الذين أسسوا دعوي المهدوية وجيء
بهم الى منزل التعايشي وكان جالسا ومعه القضاة والخليفتان على حلو ومحمد
شريف فلما مثلوا بين يديه رحب بهم وهش وبش في وجوههم كأنهم
مدعوون لوليمة عنده وأمرهم بالجلوس وبالغ فى اكرامهم ثم قال لهم
ياخواني ان النبي صلى الله عليه وسلم أمرنى فى الحضرة ان ازجكم فى
السجن اياما قلائل وربما يأمرنى باطلاقكم فما قولكم فاجابه الخليفة
شريف بقوله لا يمكن سجنهم لان ذلك مخالف لما تعاهدنا عليه فسكت التعايشي
وأجاب الخليفة على حلو الخليفة شريفا بحدة وغضب قائلا أأنت تعارض
في أمر النبي صلي الله عليه وسلم ووثب رجل من قواد (دغيم) اسمه
ابن أبى بلال وانتهر الخليفة شريفا وقال له كان المهدي قريبك يحكم فى
الخلق بامر الحضرة ولا يستطيع احدان ينكر عليه فلماذا أنتم اليوم تحرمون
على غيركم ماكان لكم حلالا بالامس فسكت الخليفة شريف وعلم ان
الخدعة تمت عليه وترك الكلام فى أمر معارضته فى حبس رؤساء حزبه
وأخذ يحتج على ما كان من اهانة ابن أبي بلال له مع ان ذلك لم يحصل
منذ قامت دعوة المهدوية لانه لا عقاب لمن يتجاوى على مخاطبة
أحد الخلفاء باقل شيء تشم منه رائحة الاهانة غير القتل فغير التعايشي الكلام
وخاطب أحمد سليمان بعبارات المحبة والتبجيل وذكر قربه من المهدى
وحظوته عنده ثم قال ياخواني طيبوا نفسا ولا تظنوا سوأ قوموا واذهبوا

الى السجن الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بادخالكم فيه وقال للخفراء الذين يحيطون بهم مروا السجان ان لا يضع في رجلى كل واحد منهم غير قيد صغير لانهم من أجل أصحاب المهدى عليه السلام وذوى قرابته ثم قال لهم هيا اذهبوا على بركة الله فودعوه وخرجوا من الباب فاحاط بهم نحو خمسمائة بقارى وضربوهم الضرب الذي يسمونه (مطره صبت)وكيفيته ان يجتمع مائة نفر فاكثر ويضربوا بالعصى شخصاً واحداً أو عدة أشخاص

ثم سيقوا الى السجن وعاد الخفراء واخبروا التعايشى بانهم قد أودعوهم السجن فامر الناس بالانصراف الا واحداً من أقاربه فلما انصرفوا قال لاحد الخفراء عد الى السجان وقل له ضع في كل واحد عشرة قيود وزن كل قيد عشرون رطلا من الحديد ثم قال لقريبه اعلم انى منذ ست وعشرين ليلة مازار النوم اجفاني أى من يوم سمعت بامر الخليفة شريف الذي لم يكن في ظني ان مساعى تقرن في مسألته بالنجاح وتأتى بمثل هذه النتيجة المرضية ومذ حبست أحمد سليمان ومن معه شعرت براحة في نفسى وهجم النوم على جفنى فاستودعك الله لانني ذاهب الى حجرة نومي فودعه وانصرف ودخل التعايشى الى حجرة نومه فلم يستيقظ الا بعد ظهر اليوم التالي ومكث أحمد سليمان ومن معه ثلاثين ليلة في السجن ثم حملوا الى فشوده على إحدى البواخر النيلية وأرسل معهم التعايشى كتاباً الى الزاكى طمل وكان معسكراً وقتئذ في فشوده لقتال (الشلك) كما قدمنا

ولما وصلوا اليه استدعاهم في مجلس غاص بقواده وخاطبهم لماذا يامعشر الدناقلة تحاربون خليفة المهدي فردوا عليه أقبح رد وقالوا له ان المهدي الذي أورثكم الملك دقل منا وانتم بقارة وقاه فساءه ذلك وقال لهم لا قتلنكم كما قتل

الكلاب وأمر أن يضرب كل واحد منهم عشرة أشخاص بالعصى الغليظة حتى يموت فكثوا على هذه الحالة بضع ساعات حتى تهشمت رؤسهم وسحقت سحقا

ولما شرعوا في ضربهم قال أحمد سليمان لفوزي نحن الآن على شفا الموت ولا مطمع لنا في الحياة فانا أناشدك الله هل المنشور الذي يتلي كل يوم فى المسجد وفيه ان التعايشى أوتي الحكمة وفصل الخطاب مطابق الاصل الذي صدر من المهدي فقال فوزى اللهم لا بل التعايشى هو الذى أمرنى بوضع الزيادة التى زيدت فيه فقال أحمد سليمان اعلموا ان المهدي كان ينوى الفتك بعبد الله التعايشي ولم يستخلفه الا لانه كان مطلعا على كثير من اسراره وكان يظن انه ترك قوة عظيمة في يد الخليفة شريف تقدر على كبح جماح التعايشي متي أراد الخروج عن طوره ولكن يا للأسف ان الخلفية شريفا خدع في بداية الامر وأسلم راياته للتعايشى وأصبح بلا قوة ثم خدع فى هذه المرة وسيلاقي ماجنته يداه فالتفت اليهما سعيد محمد فرح وقال لهما كفا عن هذا الهذيان واعلم يا أحمد بن سليمان ان مهديكم كاذب ظالم وعقله اسخف من عقل قريبه الخليفة شريف والدليل على ذلك انه لم يختر من جميع الناس الذين تبعوه ممن هو أهل لخلافته غير بقارى أجهل من الحمار وليته كان بقاريا ذا حيثية فى قومه بل هو كما يعلم الكل دكوروى من أوباش البقارة ثم طرأ عليهم كلهم مامنعهم عن الكلام فماتوا وألقيت اشلاؤهم للكلاب والذئاب

وكانوا كلهم عدا سعيد محمد فرح من اكبر انصار المهدي ومن خيرة اعوانه وقد تقدم لنا كلام عن أحمد سليمان ومنزلته عند المهدى فلا حاجة لاعادته هنا وقد ذكرت أيضا ما لحقني من تفصيل

أما فوزي واخوته فانهم كما قلنا دنقليون كان أبوهم قاضيا فى أحد مراكز كردفان فلحق فوزى بكتبة التعايشي حتى صار رئيسهم

وقد صودرت أموالهم وأخذت نساؤهم مسبيات وهدمت منازلهم وأصبحوا عبرة لمن يعتبر والى الله مصير كل شيء

ذكر القبض على الخليفة شريف وحبسه

لما قبض التعايشي على احمد سليمان ومن معه لزم الخليفة شريف منزله وامتنع من الذهاب الى منزل التعايشي الذى أمر بالقبض على نحو ألفي رجل من حزب الخليفة شريف ونفاهم الى النيل الاعلى وقتل اكثرهم في الطريق

وشاع بين الناس ان التعايشي ظفر بالقائمة التى فيها أسماء من بايعوا الخليفة شريفا وجلهم من الامراء ووجوه البلاد نخافوا العاقبة وأرسلوا للخليفة شريف سرا يدعونه للفرار من أم درمان واللحاق بالجزيرة ليظهروا مبايعته ويقوموا بأمره وحينئذ يكون أحد الامرين إما الموت أو الظفر وهذا قريب من الصحة لما قدمناه من انحراف الناس عن التعايشي وسعيهم فى الخلاص من يده

ولما كان الخليفة شريف هذا بليدا لم يلتفت لما أشار به أنصاره ولم يعبأ بما عرضوه عليه من الآراء الحازمة وظل مقيما فى داره حتي شاع بين الناس ان التعايشي أوشك أن يقبض عليه فذهب واحد من خواصه وأخبره بذلك فسخر منه وقال له ان ذلك لا يمكن أبداً لاني ثالث الخلفاء وان المهدى أخبرني فى أحد منشوراته بان المهدية لا تقوم قائمتها بغيرى

وعلى ذكر المنشور نقول انه يوجد منشور منسوب للمهدى ولكنه لم يدرج

ضمن كتاب المنشورات التي تقدم لنا ايراد بعضها لان التعايشي منع من طبعه وفي المنشور معميات وألغاز كالتي يستعملها بعض المتصوفة ومنها كلمتا (دهمودي بهمودي) وفيه أيضا عبارة تشبه اللغز وهي (انه لن يصح انتقالي من الدنيا حقيقية مادام الخليفة شريف موجوداً بها)

على ان بعض الناس ينكرون صدور هذا المنشور من المهدي والحاصل ان الخليفة شريفا كان آمنا على نفسه اعتمادا على هذه الخزعبلات ولذلك لم يعبأ بمشورة الذين حثوه على الفرار

وتوجد مسألة خلاف قديمة بين التعايشي والخليفة شريف وهي ان المهدي زعم في أوائل دعواه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أهداه سيفا قال له هذا سيف النصر وخاصيته أنه لا ينصر أحد على من كان حاملا له وقد جعله من ضمن الكرامات التي خص بها وقد تقدم ذلك في كثير من المنشورات التي تقدم ايرادها

ولما توفي المهدي أمسك الخليفة شريف هذا السيف وامتنع من تسليمه للتعايشي الذي كان يلح في طلبه من الخليفة شريف لا للاعتقاد بما يقال عنه بل لانه كان يرى ان بقاء هذا السيف في يد غيره يخفض من شأنه قليلا في حقوق الخلافة اذ العامة من الدراويش تحدث بشيء كثير عن كرامات هذا السيف فيقول بعضهم انه يضطرب ويسمع له صوت كقصف الرعد اذا اقترب العدو من مدينة المهدي. ومنهم من يقول انه اذا اقترب منه الجنب ضرب عنقه بغير ضارب ولا يستطيع أحد حمله غير صاحبه المهدي الى غير ذلك من أقوال البسطاء. ونقل لي مصري كان مقربا من المهدي انه سيف مثل سائر السيوف وليس فيه خاصية مما تحدث به العامة ويصدقه البسطاء

وشعراء المهدوية ينظمون فيه الموشحات ويذكرونه كثيرا في قصائدهم وكان الخليفة شريف متقلده في غضون ثورته

وفي اليوم الثالث من شهر رجب سنة ١٣٠٩ جمع التعايشي القضاة والامراء وطلب منهم ان يكتبوا محضرا يقولون فيه ان الخليفة شريفا اعتزل الجمعة والجماعة واصر على العصيان ولزم منزله فكتبوا ذلك ثم قال لهم اذهبوا مع الخليفة علي حلو وادعوه الى الحضور في داخل قبة المهدي ثم اقبضوا عليه فذهبوا وارسل اليه الخليفة علي حلو يدعوه الى الحضور فامسكه محمد أحد أولاد المهدي وقال له لا تذهب واعتذر بانك مريض فاذا أرخى الليل سدوله فاهرب الى الجزيرة فقال له لا تخف فانهم لا يستطيعون ايصال الاذي الي فذهب معهم وما كاد يستقر به المجلس حتي وثب عليه من حوله وقبضوا عليه واخذوا سيف النصر من يده وأوسعوه ضربا وساقوه الى باب التعايشى وأسلموه للحراس الذين أخذوا يلطمونه ويهينونه ودخل الخليفة علي حلو والقضاة على التعايشي واخبروه بما صنعوا. ويقال ان التعايشي طلب منهم ان يوافقوه على صلبه وأخيراً أمر به فسيق الى السجن وما وصله الا بعد أن بلغت روحه التراقي لكثرة مالحقه من الضرب وهناك وضعوا في رجليه عشرة قيود من الحديد ووضعوا في عنقه جنزيراً وزنه خمسون رطلا وسنعود الى ذكر بقية أخباره

ذكر القبض علي عبد القادر ساتي علي ومحمد عبد الكريم وقتلهما

عبد القادر ساتي علي ابن عم المهدي ومحمد بن عبد الكريم

ابن أخي عبد القادر ساتي علي وكان الاول فقيها شاعراً أديباً ولد فى الخرطوم وربى فيها ولحق بقريبه المهدى فى كردفان فاكرم وفادته وعرف منزلته وصار مبجلا عنده وعهد اليه برئاسة الامناء الذين ينوبون عنه فى نظر المسائل العمومية وجعله أميناً على خاتمه

وكان عبد القادر ساتي علي شديد البغض للتعايشى يعيبه بالجهل ويرميه بالظلم وكثيرا ما طلب من المهدي اقصاءه عن منصب الخلافة وكان يمانعه فى انفاذ كثير من مآربه ويزدريه ويحقره ولا يجلس بين يديه جاثيا على ركبتيه كما هى عادة الدراويش فى آداب الجلوس عنده

ولما توفى المهدي كان أول عمل أتاه التعايشى عزل عبد القادر عن منصبه ثم بعد بضع سنوات صادر أمواله وحبسه بضعة شهور. وكان لعبد القادر معرفة بالطب فاشتغل بهذه المهنة ليحصل منها على قوته حتى اتصل بالتعايشي ان عبد القادر أصبح ذا ثروة عظيمة من مهنة التطبيب فاستدعاه الى مجلس حافل بالقضاة وقال له لا يليق بك وأنت عم الامام المهدي عليه السلام ان تشتغل بمهنة دنيئة كالتطبيب فقال له (ثم يليق بعم المهدى ان يموت جوعا) فقال له اياك ثم اياك والتطبيب واعلم أنك ان لم تنته عن هذه الصناعة تكن قد عصيت أمرى وأنت عالم بعقوبة من يعصينى فذهب الى منزله وامتنع من التطبيب خوفا على حياته حتى صار فى حالة يرثى لها من الفقر وفقدان القوت

وأما محمد عبد الكريم فانه ابن عم المهدى وكان من اكبر قواده وهو الذي فتح سنار واغتال منها قناطير مقنطرة من الذهب كما سبق الكلام على ذلك وكانت طريقته فى الازدراء بالتعايشي لا تختلف عن طريقة عمه عبد القادر وقد صادر التعايشى أمواله أيضا جملة مرات

ولما انقض الخليفة شريف كان محمد عبد الكريم معه أما عمه عبد القادر فكان ملتزما جانب الحياد

وبعد ان قبض التعايشى على الخليفة شريف وسجنه قبض على عبد القادر ساتى وابن أخيه محمد عبد الكريم وأرسلهما الى الزاكى طمل فى فشوده فقتلهما ضربا بالعصى كما قتل احمد سليمان ومن معه

وقد جرت بينهما وبين الزاكي طمل مكالمة تشبه التي جرت بينه وبين احمد سليمان ورفقائه وقد أظهر عبد القادر ساتى علي جلداً وشجاعة بخلاف ابن أخيه محمد عبد الكريم فانه جبن وخارت عزيمته وطمع في الحياة بالتزلف للزاكى الذى كان لامندوحة له عن انفاذ ماأمر به التعايشي

هذا وقد جئنا بذكر قتل هذين لشهرتهما بين أقارب المهدى الذين يقدر عدد من قتل منهم ومن اقاربهم بسبب هذه الحادثة بنحو ثلاثة آلاف رجل عدا الشبان الذين كانوا حراسا للخليفة شريف فقد طرح عدد كبير منهم طعمة لاسماك النيل

وكان لمحمد عبد الكريم محظيات فى نهاية الحسن والجمال فكان التعايشي يرسل الى الواحدة منهن ويجابها الى منزله فاذا قضي منها وطره أخرجها وأعادها الى منزلها

ذكر شأن نساء المهدي مع التعايشي

ذكرنا ان المهدى مات عن نيف ومائة امرأة اكثرهن قد استحل وطأهن بملك اليمين على الطريقة التى تقدم الكلام عليها فلاحاجة لاعادتها

ولما مات المهدي وأتمت النسوة عدة الموت جمع التعايشى الخلفاء

والقضاة وعرض عليهم اخلاء سبيل كل امرأة لم ترزق ولداً من المهدي لان كثيرا منهن لم يقترب منهن فعارض الخليفة شريف في هذا الامر وقال ان نساء المهدي كنساء النبي صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وهن أمهات المؤمنين اللواتي أمرهن الله بعدم الخروج من بيوتهن وأورد الآيات التي نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم كأنها نزلت في نساء المهدي فقبل الحاضرون قوله وأعرضوا عما أشار به التعايشي

ومكث أولئك النسوة في داخل بيت يسكن كل خمس منهن في كوخ من البوص واجري التعايشي على كل واحدة منهن راتباً شهريا قدره خمس ريالات يتناولنه في السنة كلها مرتين أو ثلاثة ووكل حراستهم الى نحو خمسين من الخصيان الذين كانوا ملكا لوجوه وأعيان المصريين في سائر مدن السودان

وصارت حالة النساء والخصيان تنتقل من سيء الى أسوأ. وبالجملة لولم يكن لهاته النسوة أقارب يتداركوهن ببعض القوت لمتن من الجوع وكذلك الخصيان كان قوام معيشتهم من التسول ومد ايدي السؤال للامراء واعيان البلاد

وفي سنتي المجاعة مات كثير من النساء اللواتي لم يكن لهن أقارب ومات كثير من أطفالهن أولاد المهدي

وكن كلما شكون الي التعايشي ماهن فيه من شظف العيش يبكي وينتحب ويقول لهن انكن آل بيت المهدي لا نصيب لكن في الدنيا وليس لكن غير الآخرة حتى اذا كانت سنة ١٣٠٩ وانقض الخليفة شريف على التعايشي قام نساء المهدي بمظاهرة ولاء للخليفة شريف فاغتاظ التعايشي وأمر باحاطة منزل المهدي بسور من الحجارة لفصله عن ملاصقة منزل الخليفة شريف وبعد أن

قبض على الخليفة شريف جاء التعايشي الى منزل المهدي ومعه ألف مقاتل مسلحون بالاسلحة النارية فاحاطوا بنساء المهدى وهن داخل ستر وضع لهن وقال لهن (انكن عصيتن الله ورسوله ومهديه وكفرتن بهم وقد حكم القضاة باعدامكن رميا بالرصاص) فرفعن رؤسهن فوجدن أفواه البنادق موجهة اليهن فصرخن ولطمن وجوههن ومنهن من هربن لتسلق الجدران التى كانت تناطح السحاب ومنهم من القت نفسها في بئر وبالجملة ان أولئك النساء روعن روعا شديداً فضلا عماهن واقعات فيه من شظف العيش وسوء الحال

ولما رأي التعايشي ماصارت اليه حالتهن وأن بعضهن ثبتن وقلن له انا لا نرهب الموت الذي تتهددنا به لانك انما تقتل نسوة لا يشرفك قتلهن ومع ذلك فان قتلنا شيء لا يذكر في جانب كفرانك بنعمة المهدى الذى أجلسك على الملك فاذا كنت تنادي كل يوم وليلة على رؤس الاشهاد بان المهدي دنقلي فان قتلنا لا يذكر فى جانب هذه الشتائم

ويقال ان زينب اكبر بنات المهدي امرأة الخليفة شريف أغلظت له القول واهانته بالشتائم فانصرف وقال لنساء المهدي اني عفوت عنكن وانما قصدت بفعلي هذا ارهاب اللواتى تظاهرن منكن بولاء الخليفة شريف

والحاصل ان نساء المهدي وخصيانه مكثوا في الذل والهوان يقاسون من شظف العيش أشده حتى فتحت أم درمان وانقشع ظلم دولة الدراويش عن السودان

ذكر سجن اولاد المهدي

لم يكتف التعايشي بما فعله بالخليفة شريف والذين بايعوه حتى أمسك أولاد

المهدي الثلاثة وهم الفاضل ومحمد والبشرى وسجنهم في منزل جدهم لامهم أحمد شرفي ومنعهم من الخروج منه وكان محمد متزوجا بنت التعايشي فطلقها منه ومكث الثلاثة في الحبس ولم يخرجوا منه الا بعد استيلاء الجيش المصري على دنقلة

على ان أولاد المهدى لم يكونوا طامعين في الخلافة وانما كانوا متذمرين مما أصاب ذوي قرابتهم من الظلم والاضطهاد ثم القتل والنفي

وكان محمد كما قلنا متزوجا بنت التعايشي وكان يبغضها ويسب أباها بحضرتها ويذكر كفرانه بنعمة أبيه وعدم وفائه بعهده فكانت تخبر اباها بذلك كله حتى آل الامر لطلاقها منه

وعلى ذكر أولاد المهدى نذكر الشيخ الحسين زهرا الذي أوردنا قصيدته الهمزية التى امتدح بها المهدى ونصحه بخبث التعايشي ثم انه بعد وفاة المهدى قدم للتعايشي قصيدة ملأها بالنصح ومن ضمنها قوله له ان استخفافك باولاد المهدى واضطهادك لاقاربه يحملان الناس على الاعتقاد بانك غير مصدق بمهديته فغضب عليه التعايشي وسجنه وبعد أيام أطلقه وأمره أن يسكن في قريته في جهات (السلمية) على بعد ثمان مراحل من أم درمان جهة الجنوب

والحاصل ان جميع أقارب المهدي أصبحوا بين قتلى ومسجونين وكذلك الامراء والقواد الذين أسسوا دعوة المهدوية معه فقد فعل بهم التعايشي مافعله باقارب المهدي وأولاده ولا غرو فان المهدى سبب كل هذه المصائب التى حاقت باقاربه وقواده حيث استخلف التعايشي عليهم وهو لا يدرى ان عدوا عاقلا خير من صديق جاهل

ذكر مؤامرة عبد المولي صابون علي قتل التعايشي

عبد المولى صابون اخو حمدان أبى عنجة فاتح بلاد الحبشة الذي تقدم لنا ذكره وكان عبد المولى هذا قائدا للجهادية في أم درمان وفى سنة ١٣٠٥ أصيب بمرض الجذام وقد مر لنا الكلام على ان التعايشى كان يحبه وانه قد نفى أم زوجته بعد ان قطع يدها لما قيل له ان مرض عبد المولى ناتج من كثرة ماتصنعه له من الشعوذة والاسحار التين تقصد بهما استمالته لمحبة بنتها ولما توفى حمدان أبو عنجة في القلابات كان أخوه عبد المولي يتوق لنيل منصبه فلم يفلح وولى التعايشى الزاكى طمل بدل أبى عنجة وعزل عبد المولى أخاه من قيادة الجهادية وولى بدله أحد أقاربه البقارة فاغتاظ عبد المولي من التعايشي وأضمر له السوء وحالف الخليفة شريفا عليه لكنه لم يظهر مخالفته له وانضم اليه نفر من التعايشة أقارب الغزالي الذي تقدم لنا ان التعايشى قتله لما فر من أم درمان وتآمروا على قتل التعايشى غرة بين منزله ومنزل أخيه يعقوب حيث تعود التعايشي ان يسير بينهما بحراس قليلين وكمن المتآمرون في الطريق قبل الوقت الذي يخرج فيه التعايشى من داره الى دار أخيه يعقوب بنحو ساعة من الزمن ليفتكوا به اذ ذاك

وبينما كان التعايشي يتأهب للخروج استأذن عليه أحد المتآمرين فاذن له ولدي دخوله عليه ترامي عليه مظهرا توبته واخبره عما دبره له عبد المولى ومن معه فارسل التعايشى من قبض عليهم وأودعهم السجن ثم نفوا الى خط الاستواء وهناك لقوا حتفهم

وكان عبد المولي هذا ذا فظاظة وكبر ونال من الرفعة والثروة فى أيام التعايشي

ماله خطر مع انه عبد اسود من عبيد (البنضلة) المجاورين للتعايشة كما انه أخذ من حرائر النساء نحو خمسين امرأة من بنات الاعيان كلهن موطوآت بملك اليمين

وبعد سقوط الخرطوم بأيام كان لي عبد قد أبق ولحق بجهادية أم درمان الذين يقودهم عبد المولى هذا فذهبت اليه أسأله ان يعطيني ذلك العبد أو ثمنه فكان أول كلمة كلمني بها ان قال لماذا أنت ضخم يا ولد الريف أعندك مال مخبأ تخرج منه ما تنفقه على نفسك فطار لبي من هذا الكلام وقلت له لا يا سيدي بل أنا رجل فقير أعيش من هبات سادتي الامراء امثالك فقال وهل هبات الامراء تسمنك الى هذا الحد فقلت نعم وان مولاي خليفة المهدي عليه السلام يتعاهدني باحسانه في كثير من الاوقات فانكسرت شوكة حدته وقال لي ماذا تطلب الآن فقلت أطلب عبدي فقال أنت عبده فقلت له نعم انني عبده لانه صار عبدك فشفع لي عنده أحد الحاضرين فقال اني سمحت لك باخذ العبد اكراما لخاطر من شفع فيك واحذر من ان تعود اليّ بمثل هذا الطلب فانى اذ ذاك أضرب عنقك هذا المملوء لحما فاخذت العبد وانصرفت به الى النخاس وبعته باول ثمن عرضه على فيه

ذكر قدوم محمود احمد من دار فور

مر لنا الكلام على موت عثمان آدم أمير دارفور وتولية محمود أحمد ابن عم التعايشي بدله وذلك في سنة ١٣٠٧ وقد سار محمود هذا سيرة عوجاء أوجبت انحراف الفؤاد عنه ونفور الجنود عن ولائه واشتدت الحالة في إبان ثورة الخليفة شريف فتخوف التعايشي من هذه الحركة وكتب الى محمود

يستقدمه الى أم درمان بمن معه من المقاتلة وقصد بذلك ان يرهب أهالي الجزيرة الذين مالوا للخليفة شريف ويريهم قوته التي في دارفور وأن يوفق بين محمود والذين نقموا عليه من جنوده ومقاتلته فغادر محمود أحمد الفاشر عاصمة دارفور ومعه نحو أربعين الف مقاتل منهم بضعة آلاف من الجهادية ومثلهم من الفرسان والبقية من المشاة

وبعد ان وصلوا الى جهة (الهود) وهي أول بلاد كردفان مما يلي دارفور ثار عليه قواد الجهادية واطلقوا عليه الرصاص وكادوا يقتلونه وكانت عدة الثوار خمسة عشرة قائدا يقود كل واحد منهم مائة مقاتل كلهم مسلحون بالاسلحة النارية من طرز (رامنجتون) وانفصل الثوار عن المعسكر وابتعدوا عنه فارسل اليهم محمود قاضي المعسكر يدعوهم الى الطاعة ويعدهم بالعفو عن جريمتهم ثم دفع لكل واحد منهم الف ريال فاخذوا المال ولم يقبل العودة الى الطاعة غير ثلاثة منهم وأصر الباقون على عصيانهم وابتعدوا عن المعسكر والتجأوا بجبال (اب جنوب) وهي جبال واقعة في الجنوب الغربي لكردفان وسكانها من العبيد (النوبة) الذين تقدم لنا الكلام عنهم فلا حاجة لتكراره هنا

ووصل محمود الى أم درمان في منتصف ذي القعدة سنة ١٣٠٧ أي بعد ان زالت مخاوف التعايشي من الخليفة شريف والذين بايعوه فخرج لاستقباله خارج البلدة واظهر سروراً عظيما بمقدمه وبالغ في اكرامه الى درجة انه أمر بعمل ألعاب نارية اجريت امام محمود وجنوده وهي أول مرة صنعت فيها تلك الالعاب في ايام المهدوية

وارتفعت أسعار الاقوات على أثر قدوم محمود أحمد ومقاتلته الذين قدموا بنحو مائة الف نسمة من الارقاء باعوها في أم درمان كما تباع البهائم

وقدم محمود هذا أموالا طائلة للتعايشي وأخيه يعقوب

ثم انه تزوج براقصة شهيرة اسمها بنت بدوى كان الشعراء يتغزلون ببراعتها في الرقص وجاهر في حفلات الزواج بشرب الخمور وأحيي ليالى الرقص بما يخالف أداب المهدوية وصادر كثيرا من الجوارى الموسسات وأشهرهن جارية اسمها « السكات » وجمع حوله كثيرا من المخنثين والمغنين الذين تقدم لنا الكلام عليهم وسيأتي ذكر الجارية السكات وانها اباحت قرية (الجيماب) للجهادية فنهبوها وألحقوا بها العار

وأقام محمود بام درمان بضعة شهور ثم قفل راجعاً بجنوده الي دارفور وستجيء بقية أخباره

ذكر القبض علي امراء الجعليين ونفيهم

ذكرنا ان جل تجار كردفان من قبيلة (الجعليين) التي تسكن بربر وقد سبق لنا شرح احوالهم فلاحاجة لاعادته هنا وقد استوطنوا كردفان منذ زمن مديد وكان من أمرهم انهم أعانوا المهدي على الاستيلاء على الابيض عاصمة كردفان وكان الياس باشا أم برير في مقدمة أولئك التجار الذين تقدم لنا الكلام عليهم

وقبيل ثورة الخليفة شريف باشهر جمع التعايشي نحو أربعين من أمراء الجعليين ودفع لكل واحد منهم راية وكان من بينهم عمر بن الياس باشا الذى ذكرنا بعض ما أتاه فى دارفور لما ذهب اليها مع محمد خالد زقل

وعين التعايشي قائداً عاما على الاربعين أميراً اسمه البدوى بن العريف كان أخوه محمد بن العريف سر تجار الابيض عاصمة كردفان ومن أكبر الذين

ساعدوا المهدي على الاستيلاء عليها

ولما ثار الخليفة شريف كان هؤلاء الامراء في جملة من بايعوه من الناس فوشى بهم الى التعايشى أحد خصيان المهدى المسمى « شكر الله » ثم ذهب أولئك الامراء وأخبروا التعايشي بانهم ماعملوا ذلك الا ليقفوا على سر المسألة كى يوقفوه عليه فشكرهم وأظهر لهم عظيم الميل والانعطاف وبعد حبس الخليفة شريف بأيام دعاهم الي مجلسه وأخبرهم ان رباط كسله ذو أهمية لاتخفي وان الايطاليين يطمعون فى التقدم الى كسله وان أميرها مساعد قيدوم البقاري ضعيف الرأي وانه ينوي انفاذهم الى كسله ليقوموا بحفظ الرباط فشكروه وانصرفوا بعد ان تعهدوا له بأن يجهزوا أنفسهم ومقاتلتهم من مالهم الخاص

وبعد أيام غادروا أم درمان وخرج التعايشي لوداعهم وساروا الى قرية (رفاعة) التي تبعد عن الخرطوم بست مراحل في النيل الازرق ليضموا اليهم المتفرقين من مقاتلتهم فى قري الجزيرة وأقاموا فيها نحو شهر وبدلا من أن يجمعوا الرجال ويسيروا الى وجهتهم ضربوا على كل مقاتل ضريبة يقدمها كفدية ليتركوه فجمعوا من ذلك أموالا طائلة والتعايشي يكتب لهم في كل يوم يحثهم على مغادرة رفاعة واللحاق بكسله وهم يقدمون له الاعذار فى كل مرة وفى ذات يوم أرسل لهم مندوبين قبضوا عليهم في رفاعة ونهبوا أمتعتهم وما جمعوه من ضريبة الفدية وجيء بهم الى أم درمان يرسفون فى القيود والاغلال ونهبت دورهم التي بأم درمان

ولما أدخلوا السجن ناداهم الخليفة شريف قائلا « ان خيانتكم لم تدفع عنكم مكروها » ومكثوا فى السجن نحو شهر ثم نفوا الي خط الاستواء

وقد رأيتهم وقت خروجهم من السجن يحيط بهم الحراس والاغلال في أعناقهم والقيود في أرجلهم فكان الحراس يحملون الواحد كما يحمل المتاع ويرمونهم في عنبر السفينة كما ترمى الامتعة وهكذا ساروا الى خط الاستواء وكان ذلك في أواخر سنة ١٣٠٩ هجريه

ذكر نفي الامير ابي قرجة

ختمت سنة ١٣٠٩ وحوادث السودان فيها تحاكي ما جرى على الخليفة شريف وحزبه وأقارب المهدي ودخلت سنة ١٣١٠ ولم يبق من الامراء أو أصحاب المقامات من الذين تجمعهم مع الخليفة شريف جامعة التحزب أو الجنسية غير أبي قرجة الذي تقدم لنا كلام كثير عنه حيث هو من أكبر أمراء المهدي الذين حاصروا الخرطوم وولي القيادة العامة على جيش السودان الشرقي بدل عثمان دقنه كما مر ذلك

ولما عزل أبو قرجه عن بربر أعيد الي السودان الشرقي ولما ثار الخليفة شريف كان هو غائبا لم يحضر تلك الحوادث فاستدعاه التعايشي في أوائل سنة ١٣١٠ وأظهر له رغبته في توليته الامارة العامة على خط الاستواء لسابق خبرته بتلك الانحاء فجمع نحو ثلاثمائة مقاتل سافر بهم الي خط الاستواء على احدى البواخر وسافر معه قائد من قواد البقارة يحمل كتابا من التعايشي يخوله القبض على أبي قرجة ومن معه وزجهم في السجن حينما يبلغون خط الاستواء ودفع التعايشي الى أبي قرجة أمرا مضمونه انه أمير عام على سائر انحاء خط الاستواء

والحاصل ان أبا قرجة سافر من أم درمان أميرا على خط الاستواء ولكنه

كان موقنا بأنه ساع الى حتفه بظلفه لانه كان ذا ذكاء وعقل

ولما وصل خط الاستواء أودع السجن هو ومن معه وقد بلغنا ونحن نهيء هذا الكتاب للطبع انه قد فر من سجن خط الاستواء ولحق باحد معسكرات باجيكا التي في جهات بحر الغزل ثم لحق بمملكة «برقو» فاكرم وفادته سلطانها وانزله على الرحب والسعة لكنه لم يسمح له بالعودة الى بلاده على مألوف عادة اهل تلك البلاد خشية ان يكون رائداً يجوس خلال الديار

هذا وان أبا قرجة وان كان عاملا مهما من عمال دعوة المهدية لكنه كان أقلهم شراً واكثرهم خيرا واقربهم الى العدل والاحسان

واني بسبب ما ذكرته عنه واحسانه اليّ في يوم كنت أساق فيه للموت لا يسعني الآن الا ان اتمني له نوال الخير في غربته والخلاص من ربقة أسره

عود الي ذكر بيت المال

ذكرنا آنفاً ما كان من صلب ابراهيم عدلان أمين بيت المال السابق وتولية النور الجريفاوي بدله

وقد كان النور هذا ذا ثروة عظيمة جمعها مما نهبه من تجار المصريين في بربر كما مر ذلك وقد تناول سبعة عشرة ألف ريال من الحكومة ليشتري بها غلال فاغتالها وفر بها ولحق بالمهديين وبعد ان مضى عليه عامان في بيت المال زادت في خلالهما ثروته زيادة عظيمة أخذ يفكر في وسيلة يتمكن بها من ترك وظيفة امانة بيت المال ليتاح له الانزواء بعيداً عن نظر التعايشي الذي كان يطمح الى ثروته فتظاهر في أواخر سنة ١٣٠٩ بالجنون على أثر وقوعه من جواده وأخذ يخلط في الكلام بحضرة التعايشي

وقد روى لي ثقة ان النور هذا كان سائراً من المسجد الى منزله في ليلة حالكة الظلام منفرداً وكان الراوي متأثره وهو لا يراه فسمعه يحدث نفسه ويقول « أحلف بالطلاق ان التعايشي سيصلبني كما صلب ابراهيم عدلان ليحصل على ثروتي والاجدر بى ان أسلمه هذه الثروة واحفظ حياتي لانفرد بنفسي واحترف بادنى حرفة تعيش منها اطفالى » ثم يعود فيقول « كلا اذا دفعت له أموالي فانه يظن انى خبأت معظمها ولم أظهر له غير جزء يسير منها واذ ذاك تحرك اطماعه ويعذبنى لاسلمه الباقى ولاشك فى انى أموت بسبب العذاب وحينئذ اكون قد جنيت على نفسى » ثم يقول « أحلف بالطلاق الثلاث ان المسألة معقدة لا يقدر أحد على حلها والاولى بي أن أتظاهر بالجنون والله تعالى يفعل بى ما يريد »

ثم انه تظاهر بالجنون مدة حتى بداله أن يتضرع الى التعايشي ليقيله من أمانة بيت المال فأجابه التعايشي الي ذلك على شرط ان يجزىء اختصاص بيت المال الى ثلاثة اجزاء احدها أمين بيت مال يختص بعمامل الذخيرة (الورش الحربية) والثاني يختص بمال الفيء الذي يزعم التعايشي انه خاص به والثالث هو بيت المال العام وأن يكون النور الجريفاوي امينا لبيت المال الاول وان يكون محمد بشير كرار العبادي قائد دابة التعايشي اميناً للثاني وأن يكون العوض المرضى أميناً للثالث

وعلى ذلك صار اختصاص أمانة بيت مال (الورش الحربية) منوطا بالنور الجريفاوى وعليه ان يتفق مع التجار الذين يفدون الي الديار المصرية ليجلبوا العقاقير اللازمة لتلك المعامل ويهربونها حتي لا تظفر بها الحكومة ولهذه المسألة كلام خاص بها سنورده فى غير هذا المحل

أما اختصاص بيت مال الفيء فهو عبارة عن جميع موارد الايرادات المهمة وذلك مثل خمس سلع التجار المصريين وعشر بضائع التجار السودانيين وخمس واردات بلاد الحبشة وغيرها من البلاد الاجنبية وعشر الصادرات التي تخرج من البلاد السودانية الى البلاد الخارجية كالصمغ والعاج وريش النعام وكذلك عشر واردات التجارة التي ترد على أم درمان من داخلية السودان وأهمها الحبوب والملح والبلح والخوص الذي يصنع منه الحصر المسماة (ابراش) وكذلك ايراد السفن الشراعية التي تنقل الحاصلات من جميع الجهات التي اغتصبها التعايشي كلها وجعلها ملكا له وكذلك عوائد التزام (التمدية) في جميع الجهات وكل هذه الايرادات مضبوطة بدفاتر وحسابات جارية لا يصرف منها فلس واحد في غير لوازم التعايشي على يد رئيس خصيانه (عبد القيوم)

وأما اختصاص بيت المال الثالث فانه قاصر على الايرادات التي تجلب بواسطة الجباة التي تقدم لنا الكلام عنهم وله اختصاص آخر هو مصادرة أموال الاغنياء وطلب القروض المالية من التجار حيث لا ترد لهم أبداً ومن امتنع صودر ماله كله وتنفق هذه الايرادات على أقارب التعايشي فقط

والحاصل ان التعايشي استأثر بجميع ايرادات البلاد حتى أصبحت في نهاية الفقر المدقع وأخذ يتفنن في أساليب زيادة الخراج ومضاعفة المكوس التي صارت التجارة معها كاسدة لا تربح شيئاً وبالجملة فان الحالة كانت تنتقل من سيء الى اسوأ وبيد الله كل شيء

ذكر سور ام درمان

قبل الكلام على السورنانى نمهد فى تخطيط مدينة أم درمان ومواقع احيائها ليكون القارىء على بينة من ذلك فنقول

من الاصطلاحات التى جرى عليها المهدويون أن يسموا كل جهة سكن فيها المهدي باسم (البقعة) وقد يضاف هذا الاسم الي اسم المدينة الاصلى أو الجهة التى سكنها المهدى فيقال (بقعة الابيض) مثلا لان المهدي كان ساكناً فيها أو (بقعة الرهد) وهو منهل جنوب الابيض لانه كان نازلا فيه كما تقدم لنا ذكر ذلك

ولما زحف المهدي على الخرطوم كان أول معسكر اتخذه في جنوب أم درمان على بعد عشرين ميلا عند مكان اسمه (الفتيح) بعيداً عن شاطىء النهر اتقاء لمقذوفات البواخر التي كانت تحاربه فى الخرطوم ولم يجسر على الدنو من شاطىء النهر الا بعد سقوط الخرطوم فى قبضته

وقد أشرنا فيما تقدم أنه عقد مجلساً للمداولة في أمر سكناه فلم يوافقه على ذلك الامراء لانهم قالوا ان نقطة أم درمان يمكن أن نغادرها بسهولة الي كردفان اذا حدث ما يضطرنا الى التقهقر فنزل المهدى بها واختط المسجد وداره بعيداً عن ضفة النهر نحو ميل واحد ونزل التعايشي جنوب بيت المهدى بنحو مائة متر في الجنوب الشرقى للمسجد حذاء منزل المهدى المقابل لنقطة الوسط من قبلة المسجد وكان بين منزل التعايشى ومنزل المهدي ميدان فسيح ونزل الاعراب والبقارة الذين أصلهم من جهات كردفان ودارفور وهم التابعون لرايات التعايشى جنوب منزله وامتدت مساكنهم الي الجنوب

الغربي والجنوب الشرقي الي قرب المعسكر الذى كانت به جنود الحكومة وهو (خندق أم درمان) ويبعد عن المسجد جهة الجنوب ببضعة اميال

وقد اتخذ هذا الخندق معسكراً للجهادية الذين يقيمون بام درمان وسمى معسكر أبي عنجه

ونزل جماعة من المصريين الذين كانوا بكردفان شمال هذا المعسكر عند نقطة (المواردة) وأمير هؤلاء المصريين هو حسن حسين الذي تقدم لنا الكلام عنه

ونزل يوسف منصور رئيس الطوبجية ومن معه من المصريين شمال معسكر أبي عنجه

ونزل الخليفة على حلو فى الشمال الشرقى من منزل المهدى ونزل أتباعه (دغيم وكنانة) فى الشمال الغربى من المسجد مقابلى السوق الذي نزل فيه جماعة من التجار وجلهم من اليونانيين واليهود والسوريين وأطلق على حيهم اسم (حارة المسلمانيين) ونزل الخليفة شريف شرقي منزل المهدي ونزل أقارب المهدي وسائر أتباع الخليفة شريف الذين جلهم من أهالى السودان الاوسط فى الجهة الشرقية من منزله وامتدوا الي الشمال حتى اتصلت منازلهم بضفة النهر وحد المدينة يومئذ يقف في جهة الشمال عند معسكر ابن النجومى الواقع في شمال المسجد بنحو ميلين فقط ولما أمر التعايشى بتخريب مدن الجزيرة فى سنة ١٣٠٤ وحشد سكانها فى أم درمان نزل سكانها في الجهة الشمالية لمعسكر ابن النجومي وصاروا يسمون أحياءهم بأسماء بلادهم الاصلية فيقال (حى المسلمية) و (حى رفاعة) وغيرهما من بلاد الجزيرة حتي وصل امتداد حدود المدينة الي جهة (خوجشنات) التي تبعد عن المسجد ستة أميال

وعقب افضاء الخلافة للتعايشي وسع منزله حتى ادخل فيه الميدان الذي كان بين منزله ومنزل المهدي

ولما ثار الخليفة شريف وأقاربه وصارت مقذوفات جماعة الخليفة شريف تقع في وسط دار التعايشي خاف التعايشي عاقبة اختلاط المنازل قام باخراج جميع اقارب المهدي واتباع الخليفة شريف من منازلهم التي هدم جلها وأسكن أقاربه البقارة فيما بقي منها ليكون منزله محاطا من جميع الجهات بمن يأمنهم على حياته

وأسكن من أخرجوا من منازلهم في الجهة الواقعة شمال معسكر ابن النجومي الذي صار لا يسكن جنوبه غير البقارة وقد قاسى الناس أهوالا شديدة من جراء اخراجهم من منازلهم وصاروا فى حالة تفتت الكبد اذ صاروا بينما يكونون فى منازلهم يدخل عليهم البقارة فيأمرونهم بالخروج منها بغير ان يتمكنوا من حمل امتعتهم التي يأخذ البقارة جلها فيخرجون وليس عليهم غير ثيابهم وما خف حمله من تافه متاعهم فيقضون على هذه الحالة التعيسة زمناً لا يستطيعون في خلاله تشييد مساكن الا ان كانوا من أولى اليسار وقليل ماهم وظل الفقراء في هذا الشقاء حينا وقد كان نصيبي من هذه المصيبة عظيماً وسيأتى تفصيله بعد حيث اخرج المصريون الساكنون بالقرب من معسكر أبي عنجه من منازلهم وكنت أنا من جملتهم

على أن بناء سور أم درمان يدل على ماخامر التعايشي من الخوف على حياته من ثورة الخليفة شريف

وفى ذات يوم رقى التعايشى منبر الخطابة وقال ان النبي صلى الله عليه وسلم أمره باخراج من أخرجهم من منازلهم وأمره ببناء سور من الاحجار يتدىء

ن ضفة النهر حتى يبلغ منزله ثم يتجه الى الشمال حيث يصير شرقي المسجد وغربي منزله ثم ينتهي الى ضفة النهر أيضا وانه صلى الله عليه وسلم أمر ان لا يأذن في السكنى داخل هذا السور لغير البقارة والجهادية ووضع أساس السور وجعل عرضه أربعة أمتار ووزع حصصاً على القبائل ومن جملتها المصريون الذين كان ر الكلام كنت أحد أمرائهم فكنا نذهب الى شاطىء النهر فنستخرج منه الحجارة ونحملها الي محل العمل ومكثنا على هذه الحالة نحو سنتين تم في خلالها تشييد السور بسخرة الناس وبلغ ارتفاعه فوق خمسة أمتار

ذكر قدوم الزاكي طمل من فشودة الى ام درمان

لما فرغ الزاكي طمل من قتال الشلك وأخضعهم لسلطة المهدوية حيث قتل ملكهم (عمر) الذي قيل عنه آنفا انه مولى من قبل المهدي وحمل رأسه الى التعايشي الذي أمره بمهادنة الشلك وابرام معاهدة معهم وتولية ملك عليهم يكون من اعداء عائلة الملك السابق فأقام رجلا من أطراف الشعب سماه (عبد الفضيل) ملكا عليهم غادر فشوده بجيشه قاصداً أم درمان وذلك في أوائل سنة ١٣١٠

ولما بلغ أم درمان استقبله التعايشي بالحفاوة والاكرام وقدم له الاغذية ثم قدم الزاكي للتعايشي مقدارا عظيما من المال الذي غنمه من الشلك وكثيرا من الماشية وأمره بأخذ الاهبة والاستعداد لمغادرة أم درمان الي بلدة أبو حراز

الزاكي في أبو حراز

أبو حراز قرية فى الضفة الشرقية للنيل الازرق تبعد عن أم درمان مسيرة سبع مراحل وهى مفتاح الطريق الموصل الي القضارف عن طريق الصحراء المسماة (عقبة المذنبلية) وهى موطن لقبيلة صغيرة اسمها (العركيين) ومن هذه القبيلة نبغ رجال في القرون الماضية اشتهروا بالصلاح وحازوا منزلة عالية فى مشيخة الطريقة القادرية وأشهر هؤلاء النابغين (الشيخ الطريفى) وكان معاصراً على مايروونه للشيخ تاج الدين الفاكهاني من مشاهير رجال الطريقة القادرية ببغداد وقد صحبه الشيخ الطريفي وأقام معه فى بغداد زهاء عشرين عاماً ثم عاد الى قرية أبو حراز وانتشر نفوذه الديني فى سائر انحاء السودان حتى اكرمه ملوك السودان واقطعوه الاراضى الواسعة وخلفه عدد كبير من أولاده كانوا على قدمه فى الشهرة واعتقاد الناس وماتوا كلهم ولهم قبور شيدت عليها قباب

ومن نسلهم الشيخ حمد النيل العركى وكان ذا نفوذ كبير في السودان وكتب له المهدى كتاباً تقدم لنا ايراده يتوعده هو وعوض الكريم بن أبى سن زعيم قبائل الشكرية لانهما ساعدا الحكومة على قتل داعيته الشريف احمد طه الذي تقدم ذكر قتله

ولما ولي التعايشى بعد المهدى صادر أموال الشيخ حمد النيل وقتله صبراً فى سجن أم درمان

ولنعد الى ذكر الزاكى طمل فنقول انه لما وصل الى أبو حراز عسكر بها وأباحها لجنوده فأرهقوا سكانها سلباً ونهباً وأمر بقباب المشايخ فهدمت وشاد بانقاضها

دارآلسكناه وأطلق العنان لمقاتلته فانتشروا فى مدن الجزيرة كلها ونهبوا أموال الاهالى وحملوهم من المظالم والمغارم ماتنوء بحمله الجبال حتى كان آخر سنة ١٣١٠ أصدر التعايشي أمره الى الزاكى طمل بمغادرة أبو حراز واللحاق بالقضارف وهى البلاد التى ذكرنا فيما مضى أنه خربها وحمل أموالها الى التعايشى ثم من القضارف الى كسله التى اتخذها معسكراً له بقصد شن الغارة على حدود الايطاليين في مصوع

علائق التعايشي ومنليك

يدل تتبع الحوادث التي جرت بين المهدويين والاحباش على أن منليك نجاشى الحبشة الذي خلف النجاشي يوحنا الذى مات قتيلا بيد الدراويش فى واقعة القلابات التي مر الكلام عليها وعلى ماتقدمها من حروب الدراويش والاحباش على هزيمة هؤلاء وظهور الاولين

وأول هاته الادلة أن الاحباش لما انهزموا من القلابات وقتل ملكهم يوحنا كان المنتظر أن يعيدوا الكرة لاخذ الثار وجلاء العار فلم يفعلوا

وعلم من ذلك أن منليك الذى خلف يوحنا أيقن أن مصلحة مملكته تقضى بالكف عن مناوأة الدراويش ليتفرغ لصد الفاتحين من الايطاليين الذين اغاروا على الحبشة من جهة مصوع وانتقصوا المملكة من أطرافها وهم طامعون في الاستيلاء عليها والقضاء على استقلالها

وقد أشرنا فيما تقدم الى أن سبب الحرب بين المهدويين والاحباش أن النجاشي يوحنا خاف من انتشار دعوة المهدي بين مسلمى الاحباش فشرع فى اضطهادهم واجبارهم على اعتناق النصرانية دينا فساء عمله اقيال الحبشة واستهجنوه وخافوا تفرق كلمة الاحباش الذى لا تحمد عاقبته وكان منليك

قبل (التيجره) وقتئذ أول مستهجن لهذه السياسة الخرقاء وقد نصح النجاشي بالعدول عنها فلم يلتفت لنصائحه

ولما قتل يوحنا النجاشى السابق وخلفه منليك أعاد الحرية الدينية الى حالتها الاولي ومن ثم لزمت جنود الحبشة حدودها وامتنعت من الاعتداء على تخوم الدراويش وبعد سنة سحب التعايشى جيشه من القلابات كما تقدم ولم يترك لحراستها اكثر من ألف مقاتل

وقد ذكرنا أنه وجه جيش القلابات لاخضاع الشلك فى فشوده ثم وجهه الى القضارف ومنها الى كسله لمهاجمة تخوم الايطاليين من جهة مصوع وكان هذا الاستعداد فى وقت كان الايطاليون يستعدون فيه للوثبة على الاحباش فى (لاريتره) مما يدل على أن تقدم الزاكي الى كسله متفق عليه بن التعايشي ومنليك وسيجىء أن التعايشى لما أحس بدنو الحملة الانكليزية المصرية من أم درمان أنفذ سفيراً يستصرخ منليك لمعاونته

ولا مندوحة لنا عن الاشارة هنا الي أن الايطاليين كانوا حلفاء للدراويش على الحبشة وقد تمت هذه المحالفة بمعاضدة بعض رؤساء الحبشة الذين كانوا على رأي البعض معاضدين لانكلترا التي كانت ترمى بهذا الغرض لاشغال المهديين بمحاربة الحبشة عند حدود مصر حيث تجني انكلترا وايطاليا من وراء تلك الحروب أضعاف مايجني الدراويش والاحباش معاً لتقضى ايطاليا لبانتها من هؤلاء وتدرك انكلترا غايتها من أولئك

على أن ذلك كله مأخوذ من قرائن الاحوال ومن روايات بعض الذين لهم اطلاع على سياسة التعايشي الذي لم يصرح بشيء من أمر المحالفتين مما يدل على أنهما سريتان والحاصل أن منليك أفلح فى سياسته التى نحجها اذ حفى

من عاقبتها اراحة الحبشة من حرب دينية كحرب الدراويش ومن جهة أخرى انه تمكن من اشغال قسم من حامية ايطاليا بدفع الدراويش عن حدود بلادهم ثم كان من وراء ذلك انتصاره الباهر في واقعة (الاريتره) التي لا يجهلها القراء وهو ما يجعلنا في غني عن التصدي لايرادها وتدوين تفاصيلها

ذكر سجن الزاكي طمل وقتله بام درمان

الزاكي طمل هو الذي خلف القائد أبا عنجه في قيادة جيش القلابات كما بسطنا ذلك في مكانه وفي بداية ولايته انهزمت جيوش الحبشة في القلابات وقتل النجاشي يوحنا ثم وجهه التعايشي لاخضاع الشلك في فشوده فقتل زعيمها عمر وأتي فيها ما سبقت الاشارة اليه وأهله من قبيلة اسمها (البنضله) وهي التي منها أبو عنجه سلفه وهي قبيلة من العبيد المتوحشين في جنوب دارفور تساكن قبيلة (التعايشة) وقد تقدم تعريفها بأوفى من هذا فلا حاجة لتكراره هنا وكان الزاكي هذا في بداية أمره جنديا مع النخاسين الذين يعيثون الفساد في بلاد العبيد وهم المعروفون باسم (البحارة) وفي أيام المهدوية صار قائداً من قواد جيش أبي عنجه حتي صار وكيله

ولما خلف أبا عنجه في الامارة خالفه في كثير من أحواله وصار فظاً غليظا يسفك الدماء ويقتل مرؤسيه لاقل هفوة وأخذ يتظاهر بالانغماس في الترف وشاد المساكن والقصور في القلابات حتي أنه شاد قصراً زوج فيه ابنه وشرع في نقشه وزخرفته بصفار بيض الدجاج وفرض على الاهالي تقديم البيض ومن تأخر عن الميعاد المضروب له عاقبه عقابا صارما فارتفع ثمن البيضة الواحدة الي بضعة قروش ورحل الناس من القضارف على ظهور الهجن الي

بلاد الجزيرة لجلب البيض حتى تم النقش والتبييض

ولما اتصل بالتعايشي خبر هذا القصر أرسل الى الزاكي يأمره بهدمه فهدم الدور الاعلى وترك الدور الاسفل وكان قد جلب له البنائين والنجارين من الخرطوم وكلهم مصريون

وبعد هدم القصر أمر التعايشي الزاكي بمغادرة القضارف واللحاق بكسلا لاخذ الاهبة للغارة على الايطاليين فغادر القضارف وعسكر فى كسلا

وكان الزاكى في جميع أحوال ولايته كحاكم مطلق يفعل كل مايراه واذا قدم أم درمان يستقبل بالحفاوة والاكرام ويخرج أنى سار فى موكب يحيط به خمسون حارسا مسلحون وكان بما احرزه من الانتصارات على الاحباش والشلك وما كان يقدمه للتعايشي من الاموال الطائلة يرى نفسه ذا منة علي التعايشى حتي أخذ يتفوه في حديثه بانه قادر على سلب الملك من يد التعايشى ولولا لم تقم له قائمة فسعى به الى التعايشى وبعد وصوله القضارف عظمت فيه السعاية وارتاب التعايشى فى أمره ونمي اليه انه طامع للاستقلال فارسل اليه يستقدمه فقدم عليه وخرج للقائه وبالغ في الاحتفاء به حتى انه تنازل الي معانقته وهي حفاوة لم يسبق من التعايشى مثلها وبعد بضعة أيام اجتمع فى منزل يعقوب جماعة من مشيريه أحدهم القاضى أحمد بن على واتفقوا على طريقة القبض على الزاكى فاستدعوه من منزله وجلس يعقوب داخل ثلاثة أبواب فلما دخل الزاكي الباب الاول حجبوا عنه الحراس فدخل بلا حراس ثم قابله القاضى أحمد وجلس معه داخل الباب الثاني ثم فارقه حيث ولج الباب الثالث الذى فى داخله يعقوب فجاء اليه جماعة بصفة رجال من حراس يعقوب وجثوا على ركبهم امام الزاكي ومد أحدهم يده مسلما عليه فدفع له يده ليقبلها فامسكها

ووثب الآخرون وأمسكوا سيفه ثم صرعوه وغلوا يديه فأخذ يصيح مستغيثا بيعقوب الذي أمر بإرساله الي السجن فوضعوا في رجليه عشرة قيود وجنزيرا كبيرا ومكث ثلاث ليال مع سائر المسجونين ثم عزل الي غرفة في السجن تسمى (غرفة الاعدام) فأجلسوه في وسطها وشبحوه بالاغلال حتي كان لا يتمكن من التزحزح عن مقعده يمنة أو يسرة وربطوا اكمام ملابسه وصار اثنان من السجانين يذهبان الى الخربات ويلتقطان العقارب ويدخلانها داخل ملابسه وقد منع عنه الغذاء والماء فمكث أربع ليال يصيح صياحا يفتت الجمادات حتي ضعفت قوته ومات في منتصف الليلة الخامسة وحملت جثته وألقيت خارج البلد غذاء للطيور والكلاب وعين أحمد علي التعايشي قائدا للجيش بدله ولحق بكسلا بعد أن تلق أوامر التعايشي بالهجوم على الايطاليين وسيأتي ذكر هزيمة الدراويش من وجه الايطاليين

ذكر قتل صالح حسين خليفه

تقدم لنا ايراد شيء عن قبيلة (العبابدة) والمناظرات الشديدة التي بين (المشاباب) و(المليكاب) وقد أوردنا أن المشاباب نالوا اربهم من المليكاب في دولة التعايشي وتمكنوا من الايقاع بحسن أبي خليفه الذي كان معسكرا في نقطة آبار (المرات) بجيش من قبل التعايشي

ولما قبض التعايشي على حسن أبي خليفة ونفاه الى خط الاستواء كما مر ذلك احتل ابن عمه صالح بن حسين خليفه تلك النقطة برجال من قبيلته (المليكاب) الذين كانت الحكومة المصرية تدفع لكل رجل منهم رواتب من جنيه لاثنين فاخذوا يغيرون على حدود المهدويين وقد ذكرنا فيما مضي

إغارتهم على (أبو حمد) وقتلهم ابن نعمان قاتل الكولونل ستيوارت قبل سقوط الخرطوم

وفى أوائل سنة ١٣١٠ هجمت شرذمة من الدراويش على ضابط انكليزى برتبة بكباشى وآخرين فى جهة وادي حلفا وقتلوهم غرة وحملوا رؤوسهم الى التعايشى وقصد صالح خليفة ومن معه بالسبل وقبضوا على كثير من جواسيس المهدوية الذين هم من مناظريهم (المشاباب) ومن بينهم رجل اسمه كرار ابن بشير كرار رئيس حملة بريد التعايشى وأسلموه للحكومة فأودعته سجن اسوان ولم تطلقه الا بعد ان كلمها فى شأنه بشير ابو جبران شيخ قبيلة المشاباب فعاد الرجل الى أم درمان وأخبر التعايشي بما يقاسيه جواسيسه من تضيق صالح خليفه عليهم وقطعه السبل عليهم فسأله التعايشي عن عدد المقاتلة الذين معه فأجابه بأنهم لا يتجاوزون لمائتين فارسل التعايشى الى يونس الدكيم أمير دنقله يأمره بانفاذ خمسمائة راكب من (المراب) تحت قيادة عثمان ازرق للهجوم على صالح خليفه فانفذهم وفى صباح بعض الايام هجموا عليه ونشبت الحرب بينهم فقتل صالح خليفة وحملت أسلابه الي التعايشى الذى خطب فى الناس بأن الله تعالي قد أهلك صالح بن خليفه وقتله بيد أنصار المهدوية شر قتلة

ذكر واقعة (غوردت) بين الايطاليين والمهديين

لما وصل أحمد على الذي خلف الزاكى طمل فى النيادة الى كسله سار بجيشه وكان نحو عشرين الف مقاتل واغار على حدود الايطاليين واثخن فى القبائل الموالية للحكومة الايطالية واستولى على أحد الحصون وفر من

وجهه الايطاليون خدعة ثم كروا عليه وهاجموه على غرة فسقط أكثر من اثنى عشر الف قتيل من الدراويش وقتل أحمد على ومن معه من القواد ولم ينج غير النور عنقرة أحد القواد ومعه نحو ستة آلاف مقاتل ولوا مذعورين حتى وصلوا الى كسله وأرسلوا يخبرون التعايشى بأمر الهزيمة التي ساء وقعها عنده وجزع جزعاً شديداً حيث لم يبق عنده جيش يعول عليه غير جيش محمود الذى هزم فى واقعة اتبره

ذكر احتلال الايطاليين كسله

ذكرنا ما كان من أمر كسله وسقوطها في قبضة المهدويين الذين التفت القبائل حولهم فى بادئ الأمر عدا القبائل التي كانت قاطنة بالقرب من ثغر مصوع فانها بقيت على ولاء الحكومة حتى احتل الايطاليون ثغر مصوع وأشهر هاته القبائل قبيلتا (بنى عامر والهباب)

وكانت كسلة تابعة لامارة عثمان دقنة الذى لم يمض على سقوط المدينة في قبضته الاعام واحد نفرت فى خلاله القبائل عنه واشتدت وطأته عليهم فلجأ جلها الى ارباض مصوع واحتموا بالايطاليين

وكان الحاكم على كسله من قبل عثمان دقنه محمد بن على دقنة وهو ابن اخي عثمان دقنه وفى أيامه ثارت قبيلة الهدندوه عليه لانه سجن زعيمها وهجمت على السجن وأطلقته من اعتقاله

وعقب ذلك ولي التعايشي ابا قرجة وعزل عثمان دقنه عن منصب الامارة كما مر ثم عزل ابا قرجه أيضا وفصل حكومة كسله عن إمارة السودان الشرقى وولى عليها حامد بن على احد أقاربه البقارة فعمها الظلم والدمار

وهلكت قبيلة الهدندوه التي كان عدد نفوسها تربو على مليون نسمة كما هلك غيرها من القبائل التي لا يقل مجموع نفوسها عن مليوني نسمه وحمل حامد بن على القناطير المقنطرة من الذهب والفضة الى التعايشي وأخيه يعقوب

وفي سنة ١٣٠٩ عزل التعايشي حامد بن على وولي عليها مساعد بن قيدوم الذي كان فى دنقلة مع ابن النجومى وقد ذكرنا بعض أخباره ضمن حوادثها التى تقدم ايرادها

ثم تلا ذلك الواقعة التى قتل فيها أحمد بن على وهلك معه اثنا عشر ألفا من الدراويش

وكان مع مساعد في حامية كسله عبد الرحمن بن بان النقا الذي كان مع الجنرال هيكس وقد ذكرنا بعض أخباره هناك وأنه اصابته ضربة سيف فقأت عينه فأخبر عبد الرحمن هذا مساعداً بأن الايطاليين اقتربوا من المدينة فهزأ بقوله ولم يأخذ لنفسه حيطة حتي ارتفعت الشمس فاذا الايطاليون زاحفون على المدينة بانتظام حيث كانت القوة مشكلة من قلب وجناحين فانذعر مساعد ومن معه من الدراويش وأسرعوا بالفرار وتركوا نساءهم فى المعسكر الذى دخله الايطاليون ووضعوا السيف فى رقاب من فيه وأحرقوا الاكواخ بالبترول والنار

وتخلف عن الدراويش كثير من أسري المصريين وكذلك تخلف في المعسكر عبد الرحمن بن بان النقا الآنف الذكر فاصابته رصاصة أودت بحياته ويقال انه كان يراسل الايطاليين ويطلعهم على عورات الدراويش

هذا ما كان من أمر الايطاليين أما مساعد ومن معه من الفارين

بعد نحو ست مراحل من كسله وهناك أرسلوا بلفون التعايشي الذي كاد يفقد صوابه لشدة الفزع ماجرى فأرسل الى بان النقا والد عبد الرحمن يخبره أن ابنه مات كافراً لان مساعدا لم يجد عذراً يعتذر به عند التعايشي غير اخباره بان عبد الرحمن كان يطلع العدو على عورات المعسكر ويرفع اليه أخباره واخيراً قدم مساعد الى أم درمان فقوبل من البقارة والتعايشي بالازدراء والاحتقار لفراره من وجه العدو ولكن التعايشي أصدر منشوراً قال فيه ان المهدى أخبره بامر هذه الواقعة وان مساعدا شجاع وليس جباناً ونهى الناس عن تحقيره وتعييره

وقد استولى الخوف والرعب على قلب التعايشي وخاف تقدم الايطاليين الى جهات القضارف فامر باقامة معسكر في جهة (اصوبري) على ضفة نهر اتبره

ذكر معسكر اصوبري واخبار حامد علي واحمد فضيل

(اصوبري) اسم لمكان على نهر اتبره لم يكن حوله عمران ولا بلاد وغاية الامر انه علم على جهة صحراء (ديره) التي كانت قبيلة الشكرية البائدة ضاربة أطنابها في ارجائها وهي صحراء واقعة بين النيل الازرق ونهر اتبره

ولما خلت الصحراء من أعراب الشكرية باتت اصوبرى وغيرها قفرا بلقعا ليس فيها دار ولا ديار غير وحوش الفلاة وحيوانات القفار

ولما انهزم الدراويش وأجلوا عن كسله لحق الفاروت بجهة أصوبري حيث اجتازوا النهر وصاروا آمنين غارة الايطاليين الذين كانت طلائعهم تصل الى الضفة الشرقية من نهر اتبره الذى صار حدا فاصلا بين الفئتين

وبعد ان جاءت اخبار الايطاليين الى أم درمان بايام جمع التعايشي رؤساء قبيلتي (الجمليين) والدنقليين وجماهم من التجار وأولي اليسار وخاطبهم في المسجد وقائلا انكم انصار الدين واصحاب المهدي الاقدمون وقد توفي المهدي وهو عنكم راض وقد علمتم امر الايطاليين وأنهم قد أخذوا كسله منا ونحن نود منكم ان تكفونا ما اهمنا من أمرهم وقد جعلت لكم ميزة على غيركم وذلك انني تركت لكم الخيار في من ترضونه أن يكون قائداً عاما عليكم وانكم لا تجهلون ما فيه بيت المال من العسر وأنتم بحمد الله موسرون فعليكم أيضا أن تقوموا بنفقة سفركم من خاصة أموالكم » وأعقب ذلك بكلام طويل في مدح المجاهدين باموالهم وأنفسهم واستشهد بالآيات الشريفة الآمرة والمادحة للمجاهدين باموالهم وأنفسهم فقام جماعة منهم وقالوا لا نرى أهلا لهذا المنصب غير حامد بن علي الذي كان أميرا على كسله وهو أخو أحمد بن علي الذي مات قتيلا في واقعة اتبره فاندهشنا من كلام هؤلاء الذين لم يروا أهلا للرئاسة الا من هو غير بقاري ولكنا ما لبثنا أن علمنا انهم موعز اليهم بهذا الاختيار لانه لا يمكن أن يولي الرئاسة في دولة التعايشي غير البقارة . فاستدعي حامد بن علي وصدر نطق التعايشي الذي كانوا يسمونه ابان دولته باسم (النطق الشريف) كما كانوا يسمون بابه باسم (الباب العالي) بتعيين حامد على قائداً على الجمليين والدنقليين ومرابطا في معسكر أصوبري

هذا وقد كنا نظن أن التعايشي يروم أن يرمي الايطاليين من هذا الجيش العرمرم بما لا قبل لهم به ولم يكن يدور في خلدنا أن غايته الاستفادة من ثروة الجمليين والدنقليين وجماهم كما قلنا من التجار وأولي اليسار فقد أصدر أمرا لخواه التفويض لحامد بن علي في إشخاص من يري إشخاصه وترك من يري تركه

من الرؤساء والمرؤسين من الاجناد والمقاتلة فاقبل الناس الى داره يقدمون له الرشا على تركهم فكانت الرشوة عن كل شخص خمسماية ريال فصاعدا كل بحسب ثروته وماعلكه من المال فاغتنم حامد بن على القناطير المقنطرة من الذهب والفضة وقد كان للتعايشى وأخيه يعقوب النصيب الاوفر من هذه الغنيمة

وبعد أن فرغ حامد بن على من أخذ الرشا سار في بضعة آلاف الى أصوبرى وجعل معسكره على ضفة نهر (اتبره) وأقام الناس وهم في حالة ضنك شديد لان ما حوالى اتبره لم يكن مأهولا بغير الاعراب الرحالة الذين بادوا وخلت الديار منهم منذ أعوام وكذلك كان من فى المعسكر في شظف من العيش تجلب لهم الحبوب من القضارف التي تبعد عنهم بعشرة عشر مراحل ودواب النقل قليلة جداً وليس فى المعسكر شىء من الخضر وقس على ذلك سائر حاجيات الاقوات وشاد حامد داراً واسعة لسكناه وقصر همه على مصادرة أموال من معه من المقاتلة واغتصاب نسائهم حتى جمع فى داره من الحظايات اللواتى تضرب الامثال بجمالهن اكثر من عشرين محظية ونحو أربعمائة غلام لا تتجاوز أعمارهم خمسة عشر عاما فاشتد البلاء على الذين معه من القواد وعيل صبرهم وأخذوا فى رفع الشكاوى تباعا الى التعايشي يوضحون بها سوء سلوك حامد المذكور ويخبرونه بأن معسكرهم لا أهمية له وأن الايطاليين لا يتقدمون خارج كسله

وكان فى القضارف أحمد بن فضيل البقارى ابن عمة التعايشى أميراً من قبله عليها فكتب اليه يأمره بالشخوص من القضارف الى معسكر اصوبري لتحقيق شكاوى الامراء من حامد بن على فشخص الي أصوبري وتقدم له

الامراء أموالا طائلة ليدي في خلاصهم من ظلم حامد بن علي أولا ومن معسكر أصوبري ثانياً فأمرهم بتدوين مطالبهم في عريضة يقدمونها له ففعلوا وكتب الى التعايشي يسأله اجابة التماسهم فاصدر أمره الى أحمد بن فضيل بمصادرة أموال حامد بن علي والغاء معسكر اصوبرى واضافة مقاتلته على القضارف فتناول أحمد بن فضيل أموالا طائلة من حامد وأرسلها الي التعايشي وقفل راجعاً الى القضارف ومن يومئذ ألغى معسكر اصوبرى

اجمال حال السودان بعد ذلك

رأيت من مفصلات ما سردناه أن حالة المهدوية تبدلت تبدلا عظيما وتوالى عليها الفشل في أماكن متعددة وبالجملة فانها لم تقم لها قائمة منذ سنة ١٣٠٦ ولم تجنى ثمرة انتصار في ميدان قتال بعد نصرتها على أبي جميزة فى دارفور ونجاشي الحبشة يوحنا فى (القلابات) وكلا الانتصارين كانا فى سنة ١٣٠٦ ثم تلت ذلك الفتن الداخلية والاضطرابات الاهلية كانتقاض الخليفة الشريف وغيره ممن بينا لك حوادثهم واستقصينا فيما تقدم أخبارهم

وقد أضربنا عن ذكر كثير من سفاسف الامور فراراً من التطويل ولانها كثيرة تحتاج الي مجلدات ومنها أخبار الذين حاولوا قتل التعايشى الذي صار لا هم له غير المحافظة على حياته ودفع من يريدون به السوء ولذلك زاد في عداد حراسه حتى بلغوا ثلاثين ألف مقاتل فكان اذا خرج من منزله الي المسجد أحاط به عشرون ألفا مدججون بالسلاح ثم يحيطون بالمقصورة بعد دخوله فيها فلا يستطيع أحد الدنو منها

أما هو فقد انغمس فى ملاذه أكثر من ذي قبل وضخم جسمه حتى

صار أضعاف ما كان عليه قبل ذلك

أما الاهلون فقد فقدوا كل شيء ولم يبق بايديهم من وسائل الحياة سوى بعض الاراضى التى يستغلون منها الحاصلات التى يأخذ بيت المال نحو ثلاثة أرباعها

وكثر النفى والقتل فى الاعيان لاسباب غير انتقاض الخليفة شريف ومن الذين نفوا وقتلوا في منفاهم اسماعيل بن عبد القادر ابن أخت الشيخ المكى وكان فقيها أزهريا اجتمع بالمهدي فى الابيض واشتغل عدة سنوات بكتابة سيرة المهدى وتدوين وقائع المهدوية وفى أخريات أيامه صار من مقربي التعايشى فوشي به حساده بانه يعقد اجتماعا سريا ضد المهدوية فنفى الى خط الاستواء وقتل فى منفاه

وأصدر التعايشى أمرا قال فيه ان كل رجلين اجتمعا بعد صلاة العشاء خارج المسجد يعد اجتماعهما لغاية هى الانتقاض كما أصدر أمرا بابطال المنتديات العمومية (القهاوى) لان أكثر الذين يديرونها مصريون ولان الذين يجلسون فيها لشرب القهوة يتكلمون في أشياء تمس المهدوية وهذا كله كما لا يخفى خوف من الاجتماعات التى ربما اتفق المجتمعون فيها على خلع طاعة التعايشى وقد تغيرت حالة العمال والجباة الذين سبق لنا الكلام عنهم حيث عين التعايشى أحمد السنى جابيا عاما على أقسام الجزيرة وألزمه بتقديم مائتى ألف ريال الى أخيه يعقوب وثمانين ألف أردب من الذرة ومائة ألف ثوب من خرقة (الدمور) وهذا عدا الهدايا والتحف والجوارى الحسان والخيول

وعلى ذكر أحمد السنى نورد هنا ترجمته فنقول. هو من عشيرة صغيرة تنتسب

الى رجل اسمه مدنى السنى وأصله من عشيرة (البصيلية) فى جنوب مقاطعة قنا سكن هذا الرجل فى قرية بين الخرطوم وسنار يطلق عليها اسم (ودمدنى) ثم مصرتها الحكومة ابان الفتح الاول وجعلتها قاعدة حكومة السودان وكان المترجم من رعاع وأوغاد هذه العشيرة وكان يرعي غنم المرحوم الشيخ محمد بخيت الجمل من تجار تلك المدينة

ولما خضع السودان للمهدوية وصار ابراهيم عدلان الذي تقدم لنا ذكر تعيينه أميناً لبيت مالها وكانت أمه من هذه العشيرة لحق به المترجم فلم يزل ابراهيم يرفعه رعاية لحقوق القرابة حتي صار رئيسا لقلم مبيعات بيت المال فكان جزاء ابراهيم أن أحمد السني هذا صار من ألد أعدائه الذين وشوا به عند التعايشى وكانوا السبب الاقوى في الايقاع به كما ألمعنا الى ذلك فيما تقدم من هذا الكتاب

وبسبب وشاية هذا الوضيع بمن أحسن اليه ورفعه من حضيض الخمول الى ذروة العلي التي صار بها ذا حيثية فى الوجود رفعه التعايشي حيث آنس منه لؤما ودناءة هو في حاجة الى استخدامهما للنهب والسلب وأكل أموال الناس بالباطل فولاه على الجزيرة كلها فارهق أهلها ظلما يعجز عن وصفه القلم وسلب مابقى في يد الاهالى من الثروة ووسائل الحياة وجمع لنفسه أموالا طائلة تقدر بمئات الالوف

والحاصل أن حالة السودان فى هذه السنة أى سنة ١٣١١ هجرية كانت تفتت الاكباد وتنذر بسوء المصير ولا غرابة فان الظلم مدمر لكل عمران

ذكر قراءة الناس بالالواح

كان التعايشي أميا يجهل الكتابة والقراءة وكان اذا أم الناس في الصلاة الجهرية يسر في القراءة حتي لا يسمع من وراءه قراءته التي يرجح الاكثرون انها لم تكن قرآنا لانه فضلا عن جهله المركب كان بليد الفهم حتي قيل ان الذي أقرأه فاتحة الكتاب قضي معه مدة في سبيل تلقينه اياها

وفي سنة ١٣١١ شرع في قراءة السور الصغيرة من القرآن الشريف وخطب في الناس قائلا يجب على كل فرد من أفرادكم صغيرا كان أو كبيرا أن يحضر بعد ثلاث ليال لوحا من الخشب ويبتديء في كتابة القرآن كما يفعل صبية المكاتب فاجابه أحدهم بأن كثيرا من الناس يحفظون القرآن عن ظهر قلبهم ومنهم العلماء والفقهاء فالاولى أن تكون القراءة الزامية بالنسبة للاميين والذين لا يحفظون القرآن فاجابه التعايشي بان حفظة القرآن والعلماء والفقهاء لا تنفعهم معرفتهم ولا تغني عنهم فتيلا الا اذا امتثلوا ما أشرت به عليهم فاجابوا بالسمع والطاعة وانصرفوا الى حوانيت النجارين لصناعة الالواح فارتفعت أثمان الالواح وكان الفائز من يتحصل على لوحه قبل الميعاد المضروب لكيلا يصبح تحت طائلة العقوبة

وبعد ثلاثة أيام أحضر جل الناس الالواح فلما رآهم رقى منبر الخطابة وقال لهم هيا ابدأوا بقراءة القرآن من اوله وعلى كل أمير أن يجمع أتباعه في المسجد بعد غروب الشمس ويوقد نارا من الحطب يحيط بها الناس ويقرؤن ألواحهم على ضوئها حيث يصير الامير كفقيه يعلم الصبيان فينتهر هذا ويزجر ذاك وهكذا ثم يمر التعايشي متفقدا تلك الحلقات كأستاذ أكبر ويقف على كل حلقة

ويبدي ما يعن له من الانتقاد فانظروا الى هذه السخافة فكأن هذا الطاغية المشوم لم يكتف بما صار له من السلطان على الناس يحكم فيهم كيف شاء حتي أراد ان يجعل نفسه معلم صبيان ويجعل شعبه كاطفال يتعلمون

على أنه ربما كان الباعث له على هذا الامر هو أن والده (التعايشى) كان يعلم الصبية القرآن وقد كانت نفسه قبل نيله الملك تتوق لان يكون معلم صبيان كابيه وكان بينه وبين تلك الامنية صعوبة تعلمه القراءة والكتابة فلما قدر له أن يكون ملكا رأي أن يقضي وطره من تلك الامنية التي كان دون وصوله اليها خرط القتاد هذا ما يمكنني ان ابرر به سخافة ذلك الظالم ان كان ثمت ما يبرر السخافة والا فالناس كلهم كانوا في حيرة لا يهتدون معها الى الباعث له الي هذا الامر

والحاصل أن الناس ظلوا أكثر من عامين عاكفين على القراءة فى المسجد والتعايشي يتلذذ بالتبختر حولهم وتفقد حلقاتهم التى كانوا يتكوفون فيها ويرفعون أصواتهم بالقراءة

ولسنا ندرى بعد ذلك هل زالت عنه بلادة الفهم ووفق الى حفظ بضع سور من القرآن الشريف فانه استمر على القراءة سرا سواء كانت الصلاة مما يسر في قراءتها أو يجهر فيها وكان يحمل لوحا مثل بقية الناس يخرج به من منزله ويعود به وكان من جملة ما أمر به أن يحمل أرباب الحوانيت من التجار والصناع الواحا تكون معهم مدة العمل وبعد غروب الشمس يحملونها الى المسجد لينضموا الى الحلقات التابعين لها حتي ارتفعت أصوات الناس بالتذمر والشكوى وبعد اكثر من عامين أصدر أمره بمعافاتهم من القراءة فتركوها وهم فرحون

ذكر بقية اخبار سلاطين باشا وفراره

وعدت بذكر بقية أخبار سلاطين باشا التي وقفت فيها عند ذكر سجنه لما وقعت عليه تهمة مخابرة المأسوف عليه غردون باشا واقول الآن انه ظل مسجونا الى ما بعد سقوط الخرطوم حيث أطلقه التعايشي من السجن وأمره بملازمة بابه مع شرذمة من حراسه يطلق عليهم اسم (الملازمية) فظل مقيما هكذا وشاد لنفسه داراً بالقرب من منزل يعقوب أخي التعايشي وكان يقضي معظم ليله ونهاره في باب التعايشي رافعا صوته بالتهليل وكان صوته أشبه بنغمات الافرنج وكان عنده من الخيل حصان يركبه كلما ركب التعايشي وكان في بيته جوار لخدمته أهداهن له التعايشي وهن رقيبات عليه وكان يلبس الملابس الرثة اظهاراً للزهد وتمويها على اجتناب الرفاهية وكان يمشي في أكثر الاحيان حافيا وكان له حذاء من نوع النعل الذي يقال له (شقيانه) واذا ركب جواده في موكب التعايشي تعمم بعمامة حمراء وتمنطق بمنطقة حمراء مثل سائر الفرسان وفي بعض الاوقات يحمل بندقية من طرز رامنجتون من النوع المخصص للفرسان

وكان شديد الحذر والتيقظ فلا يظهر ماتكنه نفسه من المقاصد وله أصدقاء كثيرون منهم من لايصدق بدعوى المهدوية أصلا وهؤلاء لايحترس من التصريح لهم بما يوافق مشربهم وله أصدقاء أيضا من الذين يصدقون بدعوي المهدوية لكنهم ينقمون على التعايشي ويودون أن يكون سيره مطابقاً للعدالة التي تكفل عمران البلاد وتنظيم الحالة وهؤلاء يظهر لهم انه من الذين من الله عليهم بالهداية الى الاسلام وانه يود من صميم فؤاده ان تصبح دولة المهدوية من أرقى دول الارض ويتحفهم بكثير من أخبار تقدم الممالك وما

يلزم له من ضمانة العدالة والمساواة اللتين هما اس العمران وله اصدقاء غير هؤلاء واولئك وهم البقارة والذين معه في ملازمة باب التعايشي وهؤلاء يظهر لهم فى كل لحظة وحين انه من اخاص المخلصين للتعايشى وربما ألقى عليهم من المواعظ مايزيدهم تمسكا بولاء التعايشى حيث يقول لهم ان لاسلامة للانسان فى الدنيا والاخرة بغير ان يكون طائعا لخليفة المهدى فى كل مايأمر به

والخلاصة انه صار ذا صداقة مع جل الناس ومع ذلك كله لاتجد منهم من لايحترمه ويشهد له بالعقل والدهاء

وأما علاقته مع قلم المخابرات في مصر فبالطبع انه كان يكتمها كل الكتمان ولكن يظهر انه كان ذا علاقات كثيرة معه اذ كان يوافيه ببعض الانباء مع حذر وتيقظ

هذا مجمل حال سلاطين باشا وفى اواخر سنة ١٣٠٣ كان التعايشى انفذه بمأمورية الي يونس الدكيم لما كان معسكرا فى (ود العباس) فعاد منها ويقال انه قدم للتعايشي نصائح عديدة كان البعض يظن وقوعها موقع القبول عند التعايشي فخابت ظنونهم

وأما فراره فقد تم الاتفاق عليه بين قلم المخابرات وشخص يدعى (احمد الفحل) احد أفراد قبيلة الجمليين وكان علي مابلغنى جاسوسا لقلم المخابرات براتب قدره عشر جنيهات وكان يتستر بالتجارة فى ذهابه وايابه الي مصر وكذلك يوجد شخص آخر اسمه (الصادق بن عثمان) كان يعاون أحمد الفحل لانجاز هذه المهمة فقدم الشخصان أم درمان وخبآ الجمال وادلاء الطريق خارج ام درمان واخبراه بالامر فلم يربدا من الفرار لانه أصبح فى خطر من

التعايشي بسبب ان بعض التجار جاء باعداد من احدي الجرائد المصرية وفيها من الاخبار ان الحكومة باذلة جهدها لانقاذ سلاطين باشا وان الجائزة التى كانت مجعولة لمن ينقذه ضوعف مقدارها فاشتري سلاطين باشا احدى تلك النسخ بمبلغ من الريالات ثم علم بوجود غيرها وانه لا سبيل الى شرائها بغير مبالغ عظيمة وذلك من جملة الاسباب التى جرأته على المخاطرة بحياته في سبيل الفرار كما قيل

اذا لم يكن غير الاسنة مركبا　　فلا يسع المضطر الا ركوبها

وكان التعايشي وقتئذ ملازما داره لانحراف طرأ على صحته فاغتنم سلاطين باشا الفرصة وغادر ام درمان فارا الي اصوان حتى بلغها بعد جهد جهيد وبعد ما عاين الهلاك بعينيه ولا فائدة لنا بعد ذلك فى سرد مالاقاه فى الطريق من الصعوبات وما قاساه من فادح الاخطار لانه والحق يقال شجاع من الذين لا يبالون بالاخطار وذو ذكاء تضرب بحذقه الامثال على انه اذا كان الفضل لكتشنر باشا فيما أبداه من الحنكة والتدريب فى فتح السودان ونجت باشا في ادارة المخابرات التى تتوقف عليها أسباب النجاح فان سلاطين باشا لا يصح أن يغفل ذكره كلما ذكر هذان القائدان اذ هو صاحب المعلومات التى كان الاثنان فى حاجة لها في جميع أطوار الحملة. والخلاصة انه من الذين كانوا السبب الاكبر فى انقاذ بلاد السودان من ربقة الظلم والاستبداد وسيذكر ما ذكر هذا الفتح المجيد والى الله عاقبة كل شيء

واما التعايشي فلم يتصل به نبأ فرار سلاطين باشا الا بعد ليلتين مضتا على فراره فاحتدم غيظا واركب خلفه الركبان الذين رجعوا بغير أن يدركوا غباره وقدكان من شدة غضب التعايشي انه أمر بسجني خوفا من فراري كما سيجيء

ذكر لك مفصلا فيما يأتي وكما سيجيء. ذكر القبض على اللذين دبرا له الفرار وهما أحمد الفحل والصادق عثمان

ذكر نفي احمد الفحل والذين ساعدوه على فرار سلاطين باشا

قلت ان أحمد بن الفحل كان جاسوساً لقلم المخابرات المصرية يتناول راتباً قدره عشرة جنيهات ورفيقه الصادق بن عثمان كان كذلك لكنني لا أعرف مقدار الراتب الذي كان يتناوله على الجاسوسية

وأحمد الفحل هذا من قبيلة صغيرة من الجمليين تسكن قرية اسمها (الفحلاب) في الضفة الغربية للنيل وعلى بعد بضعة أميال جنوب بربر وأما الصادق عثمان فانه كان من أهالي بربر وكان من جنود الحكومة (الباشبوزق) ثم ترك الجندية وصار يتجر بالسلع ظاهراً وبالجاسوسية باطناً

ولما عقدا الاتفاق مع قلم المخابرات الذي لا بد أن يكون نقدهما شيئاً من المال يستعينان به على ابتياع الجمال وشراء الدواب واستئجار الادلاء غادرا القاهرة ولحقا ببربر ويظهر أنهما كانا غير مبالين بعاقبة ما عقدا النية على انفاذه حيث أخذا في شراء الجمال بنفسهما ومعهما الادلاء وهما في بربر وقد كنت في حيرة عسر على الاهتداء معها الى الاسباب التي ملأت قلبيهما جرأة حتى صارا في حركة كانت سببا في وقوعهما في براثن التعايشي حتى نقل الي بعضهم أن أحمد الفحل قدم رشوة من المال الي الزاكي عثمان أمير بربر يومئذ وأطلعه على ما ينويه فوعده بالكف عن عرقلته حتى صار يباشر شراء الجمال غير خائف ولا متهيب حتى أن التعايشي لم يستدل على الذين هربا سلاطين باشا الا من احد أهالي بربر كما تراه مبسوطاً في هذا الباب ويظهر جلياً للمتأمل صحة هذا

القول ولو لم يكن كذلك لما خفي على الزاكي ما يحاوله أحمد الفحل ولاستطاع أن يقبض على سلاطين باشا قبل مغادرة قرية الفحلاب وقد نقل الى مخبرى أيضاً أن أحد الجواسيس أخبره بأن سلاطين باشا لما بلغ قرية الفحلاب ذهب وأخبر الزاكى بمكمنه فأمر بايداعه السجن لكيلا يذاع الخبر وبعد بضع ليال أطلقه بعد أن أمره بكتمان هذا الامر

والخلاصة اني أرجح اشتراك الزاكي في مسألة هرب سلاطين باشا وأنه تناول رشوة اذ كان أحمد الفحل صديقاً حميماً له ومقرباً عنده. والحاصل أن أحمد الفحل ورفيقه لما غادرا بربر ولحقا بأم درمان وأوعزا الي سلاطين بالهرب وظل التعايشي في حيرة لايعرف معها من ساعده على الهرب قدم عليه عبد الماجد بن الحاج محمد وهو ابن أخي محمد الخير الذى كان داعية المهدى في بربر فأخبره أنه رأي أحمد الفحل ورفيقه الصادق عثمان ومعهما دليل يبتاعون الجمال في بربر فأرسل التعايشي العوض المرضي أمين بيت المال الى أحمد الفحل فاستدعاه اليه وقال له انا نريد منك أن تجلب لنا موسيقى من القاهرة فقال لهم نعم أتعهد لكم باحضارها وبينما هو في الكلام اذ هجم عليه العبيد وقبضوا عليه وأوثقوه كتافاً ثم زجوه في السجن وكذلك قبض على رفيقه الصادق عثمان وعلى شخص آخر يدعي ابن أبي بشر اتهم بانه كان يعينهما ثم أرسل التعايشي الي بربر فقبضوا على الدليل الذى رآه معهم وهو عبد الماجد الآنف الذكر

ولما أوقف الدليل بين يدي التعايشي خاطبه قائلا اذا صدقتنى الخبر فانت آمن علي نفسك ومالك فاجابه قائلا ان أحمد بن الفحل والصادق عثمان استأجراني من بربر وجاءا بي مع الجمال التى اشترياها منها وتركاني في سفح جبل (كررى) ثم أتياني في يوم كذا بنصرانى مبتور الاصبع الوسطى وقالا

لى أوصله قربة (المحلاب) وسلمه الى أخوة أحدنا أحمد الفحل فذهبت وأوصلته لهم ثم لا أعلم ماذا صار فأمر به الى السجن وبعد أيام أطلقه ولم يصبه بسوء إذ تحقق صدقه ثم أرسل تقبض على اخوة أحمد بن الفحل الثلاثة وأودعوا السجن وبعد أن مضى عليهم شهران فى السجن سجنت في خلالهما معهم كما ذكر ذلك فى مكانه فإذا شمرت الا ونحو خمسين عبداً من حراس يعقوب دخلوا السجن وبايديهم السياط فاخرجوا أحمد الفحل والصادق عثمان وابن أبي بشر واخوة أحمد الفحل الثلاثة ونزعوا ثيابهم عنهم وقرنوهم فى الاصفاد وأخذوا يضربونهم بالسياط حتي تمزقت جلودهم وسالت الدماء منهم وكانت احدى البواخر راسية على ضفة النهر فسيقوا اليها وهى على وشك السفر الي خط الاستواء ولما وصل هؤلاء المسجونون الي ضفة النهر أغمي عليهم من شدة الضرب فكان الحراس يحملونهم كما يحمل المتاع ويلقونهم في عنابر الباخرة فكنت نسمع مصادمة اجسامهم مع جسم قاع الباخرة كأنهم من نوع المتاع ثم اقلعت بهم الباخرة الي خط الاستواء وهناك لقوا حتفهم فهؤلاء هم الذين ذهبوا ضحية سلاطين باشا وانا سابعهم لكنني ولله الحمد نجوت بعد عذاب قاسيته خمس سنوات في السجن كما سيأتي ذكر ذلك

ذكر سجن ابراهيم حمزة وجماعة من اعيان بربر

ابراهيم حمزة عميد قبيلة فى بربر اسمها (الانقرياب) ولما وصلت دعوة المهدي الى بربر نفر عنها ابراهيم وقومه وبقى على ولاء الحكومة حتى اكره على الخضوع للمهدوية وهو كريم جواد ذو أياد بيضاء على جل اسري المصريين وذو سعة وسيجيء في اخبار سجن المؤلف ذكر كثير من شمائله الغراء

ولما فر سلاطين باشا كما تقدم وبلغ قرية (الفحلاب) ذهب مخبر الى ابراهيم حمزة هذا وأعلمه بكمن سلاطين فامتنع من القبض عليه وبعث اليه من حذره وامره بسرعة الرحيل وأوصي قومه بعدم التعرض له وتظاهر بعدم العلم بامره فاتصل ذلك بالتعايشي فارسل يستقدم ابراهيم وبعض أقاربه ومنهم ابن عمه محمد الشايق وكذلك استقدم منصوراً ومحمداً ابنى العجمي وهما عميدا عشيرة فى بربر أيضا

ولما قدم ابراهيم جلس التعايشي مع القضاة واهل الشورى وادخل عليه فسأله قائلا لماذا تركت سلاطين اجتاز بلادك فاجابه يامولاى انى لم اعلم بامره وانه شيطان قدر على الفرار من بابك وفلت من ايدى الالوف من حراسك فكيف لايقدر على اجتياز بلادي التي هى فلاة مملوءة بالادغال والغابات فاطرق التعايشي ثم امر بسجنه وابن عمه وكذلك ابني العجمى ووضع في رقبة كل منهم جنزيرا من الحديد وجملة من القيود فكثوا فى السجن خمس سنوات حتي اتقذهم اللورد كتشنر يوم فتح ام درمان وسنذكر بقية اخبارهم في السجن وما كان من احتفالهم بي فيه اذ لولا ما كان يبذله ابراهيم حمزة من المال فى سبيل دفع أذي السجانين عنى لهلكت فجزاه الله عنى أحسن الجزاء

تمهيد في ذكر السجن ونظاماته واطلاق اسم الساير على كل سجن

علمت مما تقدم كيف هرب سلاطين باشا الذى لم ألبث بعد فراره الا أياما قلائل صار سجنى عقبها حيث ظللت فى السجن خمس سنوات ثم أطلق

اعتقالي منه اللورد كتشنر يوم دخل أم درمان

ولما كان جل ما يجيء ذكره في أخريات هذا الجزء من أخبار السجن التي قاسيتها رأيت أن أقدم هذا التمهيد في ذكر نظامات السجن وترجمة السجان المسمى (الساير) ادريس الذي اطلق اسم الساير على كل سجن من سجون المهدوية في الانحاء الخاضعة لها لاجله فاقول أما ترجمة الساير المذكور فانه أعرابي من قبيلة (الجمع) التى تسكن شرق كردفان وقد تقدم لنا ذكر شيء من عوائدها التي من جملتها ان الفتاة لا تتزوج الا بعد ان تلد بضعة أولاد من الزنا ليمونوا اخاها ويطلق عليهم اسم (عينة خالهم) وكان الساير هذا من أكبر أشقياء تلك القبيلة وكان رئيس عصبة تقطع الطرق بالنهب والسلب

ولما ظهرت دعوة المهدوية في جبال قدير لحق بها الساير فقلده المهدى وظيفة سجان ومن ثم اطلق على السجن اسم الساير

وأما أوصافه فانه كان ربعة في الطول بدين الجسم ولونه نحاسي غامق ووجهه عبوس وكأن عينيه شعلة نار

وكان التعايشي لا يدفع له مرتبا ولكنه ذو ثروة عظيمة تقدر بعشرات الالوف جمعها من الذين أوقعهم نكد الطالع بين يديه وسترى فيما يأتي أمثلة من ضروب ابتزازه اموال المسجونين

وأما اعوانه فهم كثيرون وجلهم من العبيد (الجهادية) ورؤساؤهم من ذوى قرابته من قبيلة الجمع

وأما السجن نفسه فانه عبارة عن سور من اللبن الاخضر على أكمة مرتفعة عند ضفة النهر وفي داخل السور العام عدة اسوار ومبان لسكنى الخفراء وجلوس السجان

وأما غرف المسجونين فهى كثيرة منها ماهو مشيد بالحجارة وجلها ليس له نوافذ لتبديل الهواء ويوجد من الغرف مايطلق عليهما اسم (الأعدام) وعلى كل حال فان السجن نوعان خفيف وثقيل أما الخفيف فهو عبارة عما يعامل به الذين يسجنهم القضاة بسبب الديون أو الحدود وغيرها وأما الثقيل فخصوص بالذين يسجنهم التعايشى وهم فى الغالب ذوو الجرائم السياسية ومايلحق بها وسترى فيما يأتى ذكر كثير من أخبار السجن وغرائبه والله الموفق

ذكر سجن المؤلف

لما فر سلاطين باشا استدعى التعايشى القضاة وكثيراً من أهل شوراه وجلس معهم وعدد لهم ماأتاه مع سلاطين باشا من أنواع الاكرام وما غمره به من الاحسان ومع ذلك فقد كفر تلك النعماء وارتد عن الاسلام ولحق ببلاد الكفار فأجابوه بالاستغراب وقال له أحدهم انه لا أمان لمن كان وجهه أبيض خصوصا اذا كان ذا وظيفة في الحكومة وقال له آخر ان سلاطين قد كان مضمرا للكفر مظهراً للاسلام والدليل على ذلك انه كان صديقا حميما لابراهيم فوزى (المؤلف) وكانا يجتمعان في منزليهما ويشربان الخمر ويدخنان التنباك ولا بد أن يكون ابراهيم فوزى ذا ضلع في مسألة فراره فقام ثالث وقال للتعايشى انك اذا لم تأمر بسجن ابراهيم فوزى فر ولحق بسلاطين لان سلاطين أصغر منزلة في الحكومة من ابراهيم فوزى اذ هو حائز رتبة (باشا) أما سلاطين فلم يكن حائزاً الا على رتبة (بك) فصادفت هذه الاقوال أذنا صاغية من التعايشى فأرسل أحد حراسه لاحضارى

وبينما أنا في غفلة من هـذا اذ فاجأني الطلب فارتعت له وأدركت ان المصير سيئ فحاولت اخفاء ماألم بي فلم أفلح وذهبت وكأنني أودع الحياة

على أن ماقاله مشيرو السوء لم يكن له نصيب من الصحة اذ كنت لا أجتمع بسلاطين باشا الا نادراً وليس بيني وبينه غير مودة سطحية لانه كان يخاف على من تهمة كهذه ولكن لايغنى حذر من قدر

ولما دخلت على التعايشى ألفيته جالسا على عنقريب (سرير) وحوله القضاة والمشيرون جاثين على الارض كعادتهم وسيفه موضوع علي فخذه ممسكا بيمينه على قبضته كانه يريد أن يستله والغضب باد على وجهه فخاطبنى قائلا ياابراهيم فوزى فقلت لبيك ياخليفة المهدى عليه السلام فقال أين سلاطين صاحبك فقلت لا أعلم ياسيدى وأظن انه في منزله فانتهرني بصوت جهورى قائلا اذهب اليه وأحضره لى فمشيت بضع خطوات نحو الباب فقال لى ياابراهيم فوزى فعدت اليه فقال ألم يكن عندك خبر بهروب سلاطين فقلت كلا فقال لى انه هرب فقلت باندهاش (أهرب أهرب) فقال لي ماذا تقول في أمر هربه فقلت ياخليفة المهدى عليه السلام ان سلاطين نصرانى ارتد عن الاسلام وعاد الي دينه النصرانية وقد أبعده الله عن التمتع بمشاهدة أنوار خليفة المهدى عليه السلام في الدنيا والآخرة ومع ذلك فانه لحق بمصر التى ينوى مولانا الزحف عليها في هـذا العام ولابد من وقوعه فى قبضة المهدية ويذوق جزاء خيانته وفراره فأطرق التعايشى الى الارض هنيهة ثم رفع رأسه وألقى علىَّ الاسئلة الآتية

س ـ هل كان سلاطين يدخن التنباك ـ ج ـ لا أعلم شيئا من هـذا ـ

س ـ هل كان سلاطين يشرب الخمر ـ ج ـ أستغفر الله ياخليفة المهدى عليه

السلام أنا أعتقد أن مدينتك طاهرة مطهرة من كل رجس وليس فيها خمرأو محرم ـ س ـ هل كان سلاطين تاركا للصلوات الخمس ـ ج ـ ان سلاطين كان ملازما لخليفة المهدى عليه السلام فى أوقات الصلوات الخمس وبذا لايكون تاركا للصلاة وهذا مانراه نحن بأعيننا أما البواطن وما تخفى الصدور فان علمها عند خليفة المهدى عليه السلام

وعند نهاية هذه الكلمة التفت التعايشى لمن حوله وقال خذوا هذا (وأشار الي) الى السجن وكان ذلك آخر عهدى بمحادثته ورؤية وجهه فاجتذبنى أربعة من الحراس الى خارج الباب وهناك اجتمع عليّ نحو خمسين منهم فاخذوا يضربوننى حتى سال الدم من أنفى وجسمى ثم نزعوا عمامتى وشدوا بها وثاقى وساروا بى الى السجن والسياط تمزق جسمى فلم أقدر أن أمشى الا بعض خطوات ثم سقطت على وجهى وقد أغمى عليّ فأمسكونى وأسندنى بعضهم والبعض الآخر يضربنى بالسياط حتى بلغت باب السجن فتلقانى حراسه بالضرب بالسياط أيضا ووضعوا فى رجليّ ستة قيود يربو وزنها على أربعين رطلا ووضعوا فى رقبتى غلاً كبيرا (جنزيرا) وامسك الحراس عن ضربى بالسياط فالتفت اليهم وقلت اسقونى ماء فكان جوابهم الضرب بالسياط وقالوا الى مثلك لايستحق شربة ماء ياعدو خليفة المهدى عليه السلام ثم أدخلونى السجن

اول ليلة في السجن واخبار اثنين يدعيان النبوة

كان وصولى الى دائرة السجن في أصيل النهار وبعد وضع الحديد فى رجلى ادخلت الى أودة يطلق عليها اسم (أودة الحجر) لانها مشيدة

بالاحجار وليس فيها نوافذ غير الباب الذى يدخل منه وهى مظلمة جدا فدخلت وليس على جسمى من الملابس غير السراويل فوجدت فيها نحو مائتى مسجون وهى لاتسع أكثر من ربع هذا العدد فرأيت بينهم ثلاثة رجال بيض الوجوه يكادون لفرط ماهم فيه من العذاب مع طول مدة السجن أن يكونوا أشباحا بلا أرواح فدنوت منهم وجلست بجانبهم فاذا أحدهم الموسيو شارل نيوفيلد الذى تقدم لنا ذكر خبره والآخر صيدلى مصرى اسمه خليل أفندى بسيم والثالث رجل من تجار اليهود في أم درمان فجلست بينهم وأنا اتقلب في آلام الجروح والضرب اللذين ذكرتهما قبل فاظهروا لى من المواساة والتوجع لمصابى ماكاد يعزينى واخذت أجيل نظرى في الغرفة فاذا الذين فيها جلهم مرضى مصابون بالاسهال واذا بجانب كل واحد حفرة يتغوط فيها ولضيق الغرفة كان الناس متراكمين على بعضهم ومنهم من هو واقف على فخذ غيره ومنهم من يصيح وطئت على رقبتى كل ذلك ولا منفذ يستنشق منه الهواء غير الشقوق التى في الباب

ولم يمض على أكثر من ساعة حتى أغمى على وفقدت الشعور ولم أفق الا على صوت الموسيو نيوفيلد الذى كان يصيح من داخل الباب لخفير السجن قائلا (ان الرجل الذى جئتم به قد مات) لانهم أيقنوا بموتى فلم يعبأ الخفير ولا السجانون بكلامه ولما رفعت رأسى سمعت أصحابى الثلاثة يقولون ظنناك فارقت الحياة فالحمد لله على سلامتك وكان عند كل واحد قطعة من الخرق بالية يروح بها على نفسه من شدة الحر فكان الثلاثة يروحون على بخرقهم وقد نسوا أنفسهم فجزاهم الله عنى أحسن الجزاء

وقبيل الصباح دخل علينا السجانون فأوسعوني واصحابي ضربا بالسياط قائلين لنا لماذا يا أولاد الريف يا كفار تجلسون مع بعضكم ثم وضعوا كل واحد منا في أودة مع أناس من المسجونين فجلست بجانب عبد أسود تظهر عليه علامة المرض فبدأته بالحديث مستفهما عن جريمته فرفع رأسه وقال لي أما تعرفني فقلت كلا فقال أنا عيسى بن مريم نبي الله ورسوله فظننته مازحا فقلت له أصحيح ماتقوله فالتفت الى وقال لي سترى مصداق ذلك قريبا فقلت له ان عيسى صلوات الله وسلامه عليه أبيض اللون وانت عبد أسود فأجابني بثبات جاش ان جميع الالوان بيدي ولو شئت جعلت لوني أبيض ولكنني اخترت سواد اللون تواضعا لله تعالى ثم رأيت بجانبي رجلا آخر ذا ملابس نظيفة وهيئة مهيبة فقلت له هل سمعت مايقوله هذا الذي يزعم انه عيسى بن مريم عليه السلام فلم يرد علي فظننت انه مستغرب هذا الخبر وأخذت أكلمه وقلت له حقا ان هذا الامر غريب جداً وهل يظن مثل هذا الكذاب ان دعواه تقابل بالتصديق ولو من البسطاء فلم يرد علي بشيء بل أعرض عني وبينما أنا متعجب اذ التفت الى خلفي فرأيت احمد الفحل ورفيقه الصادق بن عثمان اللذين سبق لنا الكلام عنهما وانهما هربا سلاطين باشا يضحكان فلم أفهم لماذا يضحكان فدنوت منهما وسألتهما عن سبب ضحكهما فقالا لي ان الرجل الذي تكلمه وتشكو له أمر المتنبي يدعي هو ايضا انه عيسى بن مريم عليه السلام فازددت تعجبا ودخل ساعتئذ أحد السجانين واسمه (ابو لباده) وقال لي يا ابن الريف لماذا حبسوك فقلت لا أدري فقال لي انكم معشر أولاد الريف لاتتركون كفركم وانكاركم على المهدي وخليفته فدنوت منه وأخذت أترامى على اقدامه ورجوته أن ينقلني

من هذه الغرفة التي فيها متنبئان فقال لى على شرط أن تنقدنى ريالا فقلت له أأنقدك الريال مع انى لا أملك قرشا واحداً ولا في بيتى درهم ولا دينار فأخرجنى من تلك الغرفة الى غرفة أخرى فيها أكثر من مائة مسجون فقضيت بقية الليل واقفا على قدمى والناس يضجون من شدة الحر والازدحام وتوفي اثنان منهم فى تلك الليلة

ولما لاح الصباح أخرجونا من الاودة فسمعت السجانين يقولون ان (الاودة كرمت) اى أنها ضحت هذين الرجلين ثم جروا الرجلين من أرجلهما وألقوهما فى النهر

هذه أخبار الليلة الاولى فى السجن أوردتها بايجاز كثير وسأعود الى ذكر بقية الاخبار في محالها والله الهادى الى سواء السبيل

انذار المؤلف بالاعدام

وبعد خروجى من الأودة جلست مع المسجونين في حوش السجن وبعد بضع ساعات كنت أستنشق الهواء فى خلالها جاءنى أحد السجانين يدعونى للخروج الى أودة أمير السجن فخرجت أرسف في قيودى فوجدت بها اثنين من القضاة أحدهما سليمان بن الحجاز والثانى احمد بن حمدان فقالا لى ان خليفة المهدى عليه السلام بلغه عنك انك كنت تصنع أشياء مخالفة لمنشورات المهدى عليه السلام وانه رأى وجوب قتلك فقلت ان خليفة المهدى عليه السلام أوتى الحكمة وفصل الخطاب وان المهدى عليه السلام أخبر بانه من اهل الكشف فاذا كان هذا القول من عندياته فهو صادق والا فان لى أعداء يرومون التنكيل بى من قبل زمن المهدية فهم

كذابون وعلى كل حال فأنا لا اطلب لدنياى أو آخرتى غير رضا خليفة المهدى فاذا عزم على قتلى فأنا راض بأمره واسأله أن يرضى عنى وان شاء استحيانى فاننى لا أرغب في الحياة الا اذا كانت مصحوبة برضاه فذهب القاضيان له وأخبراه بما قلته وبعد ساعتين عادا الى وقالا لى ان خليفة المهدى عفا عنك واستبدل قتلك بسجنك مؤبداً فسجدت بين يديهما شاكراً لله تعالى ثم رفعت رأسى وقلت لهما أبلغا تحيتى لمولاى خليفة المهدى عليه السلام وقولا له ان عبدك طامع في عفوك ومتوسل اليك بحلمك وحنانك فذهبا ولم يعودا الا بعد سنتين وسيجيء ذكر ذلك في مكانه

ذكر قتل القاضي احمد بن علي

القاضى احمد بن على أصله من عشيرة اسمها (بنى هلبه) تسكن جنوب دارفور وكان يحفظ القرآن الشريف ويعرف قليلا من الفقه على مذهب الامام مالك وولى القضاء فى أحد مراكز مديرية (شكا) احدى مديريات دارفور ولما ظهرت دعوة المهدوية فى جبال قدير فر احمد المذكور ولحق بها وشهد مع المهدى واقعة يوسف باشا الشلالى وقدم معه الى الابيض عاصمة كردفان حتى كانت وقعة يوم الجمعة التى قتل فيها احمد بن جباره الذى كان قاضيا للمهدوية كما مر ذكر ذلك باسهاب فى الجزء الاول

وكان احمد هذا ميالا لجانب عبد الله التعايشى الذى جعله قائدا صغيرا على عشيرته" (بنى هلبه) وأعطاه راية صغيرها تابعة لرايته الزرقاء فتكلم مع المهدى فى شأنه وسأله أن يوليه القضاء بدل احمد جباره فولاه ولقبه بلقب (قاضى الاسلام) ولكن وظيفته هذه صارت اسما بلا مسمى

وذلك لان المهدى أقام نوابا للفصل فى القضايا المهمة ونصب أمناء ينوبون عنه فى نظر مايرفع اليه من المسائل وقد تقدم ذكر ذلك فيما مر من الكتاب

وقد ذكرنا ان لكل من القاضى والنواب والامناء اختصاصا فى وظيفته ولكن النواب والامناء تجاوزوا حدود اختصاصهم ولم يتركوا للقاضى اختصاصا ينظر فيه حتى صارت وظيفته اسما بلا مسمى الى أن هلك المهدى واستبد التعايشى بالملك فألغى وظيفة الامناء ثم النواب وجعل المحكمة واحدة تحت رئاسة أحمد بن على تنظر فى كل مايرفع اليها من الدعاوى والخصومات وقد أشرنا فيما مضى الى الغرض الذى كان يرمى اليه التعايشى من وراء هذا الانقلاب الذى يتوخى به الاضرار بأقارب المهدى واضطهادهم. وحاصل القول ان أحمد بن على أصبح ذا مركز سام ونفوذ عظيم ولم تقف حظوته عند القضاء فان التعايشى وأخاه يعقوب كانا لا يقطعان أمرا دون مشاورته فاستفحل أمره وتلاعب بالقضاء أىّ تلاعب وانضم الى رايته أغنياء البلاد وسراتها فى سائر أنحاء السودان وصار يكتب الى الجباة بمعافاة المنتمين اليه من أهالى البلاد من الضريبة والخراج التى صاروا يؤدونها له واقتنى عدداً كبيرا من السفن الشراعية وامتلك كثيرا من قطع الاراضى الخصبة أما الرشوة فقد كان دخله اليومى منها يقدر بالالوف من الريالات وشاد لنفسه داراً واسعةً بالقرب من ضفة النهر ملأها بالنساء الحسان من السودانيات والمصريات وجلهن قبطيات من سكان الخرطوم اللاتى استباحهن المهديون وامتلأت الفيافى وأماكن المرعى بقطعان ماشيته من الابل والبقر والغنم وبالجملة فقد أصبح ذا ثروة طائلة

ومن غرائب شعوذته في القضاء وخراب ذمته وميله الى الارتشاء ماأوردمنه هذه النكتةليقاس عليهابقيةأعماله وذلك انه في احدى السنين تشاجر جاب اسمه حسيب مع احدى قبائل البحر الابيض لاسباب طفيفة كان الحق فيها مع رجال تلك القبيلة فأمر مقاتلته باطلاق الرصاص على الحى فقتل من الرجال نحو ثلاثين رجلا عدا الجرحى فرفعت الحادثة للتعايشى فأكبرها وغضب على الجابى وأحال محاكمته على القضاء فعقدت الجلسة الاولى ثم ارجئت الى الغد وفى تلك الليلة حمل الجابى الى القاضى أحمد بن على ثلاثة آلاف ريال فأمر فى الغد بايداع المتظلمين من تلك القبيلة السجن وأفهم التعايشى انهم شهروا حربا على المهدى وخليفته وبعد عناء شديد اخرجوا من السجن وذهبت دماء المقتولين هدراً ومثل هذا كثير لايسع المقام ايراده وانما أوردنا هذا مثالا تقاس عليه حالة ذلك القاضى

وفى أواخر سنة ١٣١١ كتب التعايشى سرا الى الجباة يأمرهم بارسال الكتب التى ترد اليهم من القاضى احمد بن على يأمرهم فيها بمعافاة المنتمين لرايته من الضرائب والخراج فاجتمع عنده شىء كثير منها فجلس ذات يوم ومعه القضاة واستدعى القاضى أحمد وقال للحاضرين مايأتى

أيها القضاة أخبركم انى اجتمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم والخضر والمهدى عليهما السلام وبينما كنت معهم اذ رأيت شخصا معذبا بين السماء والارض فسألت عنه فأجابنى المهدى بانه القاضى احمد بن على فدهشت لذلك فقال لى الخضر عليه السلام انه نقض عهدك وجمع الاموال وظلم العباد فلهذا أنا آمر القاضى احمد بالتوبة والاستغفار كما آمره بالتخلى عن الرايات التى يقودها والانقطاع الى القضاء فقط اه

فقام القاضي وقبل يد التعايشي وبكى وانتحب وتاب واستغفر وخرج مع زملائه يرجوهم أن لا يذكروا شيئا مما جرى في هذه الحضرة لاحد من الناس

وبعد مضى بضعة أسابيع على هذه الحادثة ضبط محتسب السوق شخصين يدعى أحدهما عبد المجيد عبدالله الدنقلي ويدعى الآخر عبد الله سليمان يزيفان المسكوكات من نوع ريالات المهدوية وأحضرهما امام التعايشي الذي سألهما عن جنايتهما فقالا له لم نزيف بل نضرب العملة لك فتعجب من هذه الجرأة وسألهما الايضاح فقالا ان القاضي احمد بن علي هو الذي أمرهما بسك هذه النقود وأفهمهما انه مأمور من قبل التعايشي وكانا يؤديان له كل مايصنعانه منها ثم أبرزا كتابا من القاضي بختمه متضمنا هذا المعنى فأمسك التعايشي الكتاب واطلع من حوله عليه فأكدوا صحة صدوره من القاضي احمد بن على فاستدعاه وسأله قائلا ألم يكفك مااغتلته من الاموال حتى صرت تزيف النقود فأنكر ذلك فأبرز له التعايشي الكتاب المذيل بتوقيعه ثم عاد الى الاعتراف فاحتدم التعايشي غضبا وقام من مجلسه ودخل الى أودة جلوسه واستدعى القضاة فجلسوا ولم يكلمهم بشيء بل أمر باحضار القاضي احمد ابن علي فلما حضر بين يديه أمر الحراس بايداعه في السجن فسيق اليه ثم قال لمن حوله من القضاة سأقوم فيكم خطيبا بعد صلاة المغرب فعليكم أن تسمعوا ما أقوله لكم ومروا الناس بانتظاري لسماع ما أقوله فخرجوا من عنده وبعد صلاة المغرب صعد منبر الخطابة وقال مايأتى

ان احمد الاسود (لانه كان أسود اللون) أصله مولى قبيلة بنى هلبه ولم يكن منها وقد أفسد وظلم العباد واغتال أموال المسلمين فلذلك أرى ان موته خير من حياته فرد عليه الحاضرون بلسان واحد حسنا تفعل

ومن هذه الخطبة أيقن الناس ان القاضي احمد سيقتل

وفى اليوم التالى ذهب يعقوب أخو التعايشى الى السجن وانفرد بالقاضى احمد وخدعه بانه سيسعى فى خلاصه من السجن فانخدع له ثم سأله عن أمواله فأوضحها له وكانت شيأ كثيرا من الذهب والفضة فضبطت كلها وصودرت لجانب بيت المال

وبعد استصفاء أمواله طرح منفرداً فى احدى غرف السجن ومنع عنه الطعام والشراب حتى توفى بعد بضع ليال وكان طويل القامة بدين الجسم شديد سواد اللون وكان غير مصدق بدعوى المهدوية وكثيراً مارأيت منه محاباة لجانبي فى أمور احليت محاكمتى فيها عليه بسبب فلتات من اللسان عقوبتها الجلد بالسياط عند الدراويش

ذكر تولية الشيخ الحسين الزهراء

(القضاء وقتله صبراً)

تقدم لنا في الجزؤ الاول من هذا الكتاب شيء من أخبار الشيخ الحسين بن الزهراء وما كان من أمر قصيدته الهمزية التى نصح بها المهدى وقد نشرناها برمتها وأن المهدى أنفذه الى كسلا وقدكان التعايشى حاقداً عليه بسبب النصيحة المذكورة اما هو فقد رجع على نفسه باللائمة لما فرط منه من الميل الى دعوى المهدوية التى انكر كل اعمالها وجاهر المهدى بانكاره والمهدى يغضى عن عقابه رعاية لجلالة قدره وتقواه حتى توفى المهدى وخلفه التعايشى الذى كان ذا ميل شديد للانتقام من الشيخ الحسين المذكور

وقد كان التعايشى استقدم الشيخ الحسين من بلده فى الجزيرة وعهد اليه بالقاء دروس في علمى الحديث والمواريث فى المسجد ولما قبض على القاضى احمد بن على ولاه القضاء بدله

ولما ولى القضاء قال لخواصه انى لاأريد المحاباة بل أريد الوقوف عند حد الشرع وكل أمر يعرض علىّ لا أقول فيه غير الحق وأنا لا أجهل ان عاقبة ذلك ستكون الموت

وبعد أن تولى القضاء عرضت عليه مسألة وهى (ان رجلاً من الموسرين اسمه عوض الكريم من أهالى قرية (المتمة) بمقاطعة بربر هجر دياره فراراً من ظلم المهدوية ولحق بالحرمين الشريفين وتوفى هناك فافتى القضاة بكفره ووجوب مصادرة أمواله) فقال الشيخ الحسين لم يكفر هذا الرجل ولا تجوز مصادرة امواله أبداً فحقد التعايشى عليه وأضمر له السوء

وفي ذات يوم دعاه ومعه قاضيان هما حسين جزو ومحمد حمدان وكلاهما من أهالى السودان الغربى لايعرفان شيئا من الاحكام الشرعية ولكنهما يحفظان الفاظ القرآن وكانا من اكبر قضاة الجهل والظلم ومعهما أمين بيت المال ولما استقر بهم الجلوس بين يدى التعايشى خاطبهم قائلاً « أيها القضاة ان بيت المال ليس فيه نقود وان الانصار يطلبون أعطيتهم فما ذا نصنع » فاجابه محمد حمدان بما يأتى

انى سمعت المهدى عليه السلام يقول ان الناس بايعونى على ان اتصرف في رقابهم واموالهم تصرف المالك فيما يملك لانى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه فيجوز لامين بيت المال ان يكره ذوى اليسار على ان يقرضوه مايطلبه منهم وليس بيت المال ملزما بالسداد ولكن يعد الدائنين

بالوفاء تطييبا لخواطرهم فاحتدم الشيخ الحسين غضبا وضرب بيده محمد حمدان قائلا

استغفر الله مماقلته فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقترض ويوفي دائنيه ولا يجوز ابدا أخذ اموال الناس بالطريقة التى قلتها فساء ذلك التعايشى واحتدم غضبا وقال مخاطبا الشيخ الحسين

لقد كذبت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لم يكن ملزما بتأدية مايقترضه وقد اباح الله اخذ اموال الناس ثم أمرهم بالانصراف وقال للقاضيين الضالين حسين جزو ومحمد حمدان احكما بكفره لانكما قاضيان يجب انفاذ ماتحكمان به فاخذاه وذهبا به الى السجن وامرا بوضع ثلاثة قيود في رجليه وغل في عنقه ثم ذهبا الى منزل يعقوب اخى التعايشى ليتداولا في الامر ثم رفعا الى التعايشى حكما فحواه ان الشيخ الحسين كفر وان عقوبته احدى ثلاث اما ان ينفى واما ان تقطع يده ورجله من خلاف واما ان يسجن مؤبداً فاختار التعايشى هذه ظاهرا واضمر قتله فاوعز الى السجان بوضعه في احدى غرف الاعدام ومنع الاغذية عنه فنقله اليها بعد ان وضع في رجليه اثنى عشر قيدا وجنزيرين ومنعوا عنه الماء فكان يستغيث من الظمأ وفي ذات ليلة رفع صوته بالاستغاثة طالبا شربة ماء ليستعين بها على معالجة سكرات الموت فلم يعطوه شيأ وكانت ليلة شديدة الحر فلم نشعر الا بالمطر قد هطل على السجن كافواه القرب مع اننا في فصل لاتمطر السماء فيه في السودان ابدا وتداعى ركن من اركان الغرفة المسجون بها فامتلأت بماء المطر فشرب الشيخ واغتسل وتوضأ وملأ ابريقه وفاض الماء حتى تجاوز ركبتيه

وفي الغد دخل عليه السجانون واوسعوه ضربا قائلين انك ساحر فقال

لهم لست بساحر ولكن الله سقاني الماء لما طلبته منه فاخذوا منه الابريق واصلحوا ماتداعى من ركن الغرفة وبعد ليلتين دخلوا عليه فألفوه في سكرات الموت بثبات جاش غريب ولما توفى أمر التعايشي بعدم غسل جثته وتكفينها ودفنها وصرح بان تلق على وجه الارض لانه كافر بزعمه وأمر بكتمان أمر وفاته عن ذويه الذين ظلوا يروحون ويغدون الى السجن حاملين له الاطعمة والملابس فكان السجانون يأخذونها منهم ويعودون لهم قائلين ان الشيخ يأمركم باحضار كذا وكذا من الاطعمة والملابس فيسرعون باجابتهم وهم لايعلمون ان الشيخ مضت على مفارقته الحياة بضعة أسابيع وجثته قدمت غذاء للنسور وظلوا على هذا الحال زهاء شهر من الزمان حتى أمر التعايشي عقيبها بمصادرة امواله وأخذ نسائه فعلم ذووه انه فارق الحياة

أما وفاته فقد كان لها تأثير سيء عند الاهلين واظهر المسجونون حزنهم عليه وكان له تلامذة عديدون اختفوا وخافوا الايقاع بهم. ولا بأس بايراد لمعة من ترجمته اتماما للفائدة فنقول. هو من قبيلة صغيرة فى الجزيرة قدم القاهرة صغيرا وتلقى العلوم بالازهر الشريف وبرع فى العلوم العقلية وكان ذا ذكاء عظيم ودين متين حتى قال أحد مشايخه الازهريين انه لم ير سودانيا يماثله ذكاء

ولما قفل راجعا الى دياره وهبت ثورة المهدوية صادفت هوى فى قلبه لانه كان ناظراً اليها من الوجهة السياسية وقد تقدم أنه لما قابل المهدى ونصحه بقصيدته التي أودعها مغامز كثيرة ندم ولم يعد قادرا على احتمال معاشرة المهدوية فكان يقضي اكثر أوقاته فى قريته بالجزيرة راضيا بالخمول والبعد عن المهدوية وشرورها حتى استدعاه التعايشي وكلفه قراءة درسين فى الحديث والمواريث وكان قصده من ذلك الحجر عليه بام درمان تمهيداً

لما حل به من القضاء المحتوم

وعلى ذكر الشيخ الحسين نقول ان من الوشايات التى كان التعايشى يقبلها ويبطش بالموشى به ان يقال له ان فلانا من أهل العلم لانه يوقن اذ ذاك بان من كان عالما لابد ان يكون غير راض بالمهدوية وفى ذات يوم قال ان العلماء مفسدون فى الارض ولا أمان لنا من مفاسدهم التى يغرسونها فى افئدة الناس الا بقتلهم ومثل العالم فى البلاد كمثل شجرة فى وسط مزرعة تاوى العصافير اليها وتقتات بثمار المزرعة وهكذا العالم يأوى اليه الناس ثم يبث فيهم معارفه التى تأكل ايمانهم وتصديقهم بالمهدوية كما تأكل العصافير ثمار المزرعة فكما انه لا سبيل لحفظ المزرعة من عبث العصافير الا بقطع الشجرة كذلك لاسبيل لحفظ عقائد الناس فى المهدوية بغير قتل العلماء

وخلاصة القول ان الشيخ الحسين كان اعلم أهل السودان ومن اكبر الذين شايعوا المهدوية فى بدايتها وقد رأيت ماحل به من الانتقام مثل كثير من الذين ساعدوا المهدى وأعانوه على دعوته ومن اعان ظالما سلط عليه

خفراء السجن

كل خفراء السجن والسجانين من أقارب السابر السجان أى من قبيلة الجوامعة التى عرفناها فيما تقدم من هذا الكتاب وجلهم من أبناء السفاح الذين يقال لهم (عينة خاله) فاذا سألت واحداً منهم عن اسم أبيه يجيبك بقوله « أنا ابن أخت فلان » ولم اسمع بواحد منهم اسمه من الاسماء المألوفة والاعلام المعروفة كمحمد واحمد وغيرهما بل لهم اعلام هى فى الحقيقة صفاتهم مثال ذلك ان احدهم اسمه (شقليب) ومعنى هذا الاسم « الصارع اى انه

يصرع كل من صارعه وآخر اسمه «كبه كله» ومعناه ان خلاله كلها مما يمجه الانسان ولا يقبله احد وقس على هذين العلمين سائر اسماء الخفراء والسجانين

وهؤلاء لايدفع لهم التعايشي مرتبا ولا يجرى عليهم رزقا فاذا ذهبوا الى بيت المال طالبين اعطية قابلهم موظفوه بالاستغراب قائلين كيف تطلبون عطاءً من بيت المال وعندكم من الناس المسجونين من يمكنكم ابتزاز المال منهم وضرب الضرائب عليهم وهم مرغمون على اجابة مطالبكم فكان امير السجن يفرض الضرائب على كل مسجون بما يزيد عن طاقته وكان ابراهيم حمزة عميد قبيلة (الانقرياب) الذى ذكرت امر سجنه كثيراً مايؤدى تلك الضريبة عنى اذ لم اكن املك درهما منها وكنا فى ايام الاعياد والمواسم نؤدى ضريبة فوق العادة عدا الضريبة الشهرية التى لامناص من دفعها وعدا ماندفعه كل يوم وليلة للسجانين الذين كثيرا ما كانوا يأخذون ملابسنا بدل الرشوة

ومن نظامات السجن ادخال المسجونين فى الغرف التى لامنفذ فيها ليقضوا الليل فى فصلى الصيف والربيع في الحر الشديد أما فى فصلى الخريف والشتاء فينامون تحت السماء مقرنين فى الاغلال فراشهم الارض وغطاؤهم السماء يحيط بهم السجانون بايديهم السياط ويأمرونهم بالاضطجاع على جنب واحد فاذا تحرك احدهم حركة ولو خفيفة اوسعوه ضربا بالسياط

الايام الاولى في السجن

لما ادخلونى السجن ضاعفوا قيودى حتى بلغت ستة قيود ثم انتدبونى مع آخرين لحفر بئر فى منزل امير السجن المجاور للسجن فكان

اثنان يحفران بداخل وأنا أجذب الاناء الذى يضعان فيه التراب وكان هذا الاناء من الحديد ووزنه لايقل عن خمسين رطلا والحبل الذى أجذبه به جنزير من حديد فتورمت كفاى بسبب ذلك وسالت الدماء منهما والسجانون حولى يضربونني بالسياط فمددت يدى لهم باكيا مسترحما من ألم الجروح التى بهما فما كان منهم الا ان ضربوني بالسياط عليهما فوقعت مغشيا على فاخذوا يضربونني ضربا مبرحا

شارل نيوفيلد

والمؤلف مقرونان فى القيود

ذكرت انى فى الليلة الاولى التى سجنت فيها كنت مع شارل نيوفيلد ثم فرقوا بيننا وكان كثيرا مايجتمع بى كلما لاحت له فرصة فى غفلة السجانين الذين كانوا قد تلقوا عن التعايشى تعليمات سرية بالحيلولة بيننا خشية ان نتفق على الهرب

وفى ذات يوم كان السجان الاكبر مارا فوقع نظره علينا فامر بجعلنا فى قيد واحد زيادة فى تعذيبنا وبعد بضعة أيام أصبت بحمى شديدة كادت تودى بحياتى وأصيب شارل نيوفيلد باسهال شديد يضطره الى الذهاب الى المرحاض كل خمس دقائق وأنا بسبب شدة الحمى لا أقدر على القيام من مضجعى وكان الفصل صيفا شديد الحر فنقب ثقبا فى الارض بجوار مضجعنا لقضاء حاجته فكنت على مابى من الم الحمى فى أشد حالة من نتن رائحة المرحاض الذى بجانبي وظللنا على هذه الحالة السيئة مدة خمس ليال

ثم مرت بنا ذات يوم أم احدي نساء أمير السجن وكانت مصرية من أهل

الخرطوم فوقفت وسلمت علينا وهى باكية متحسرة وسألتنا لماذا قرنتما فى قيد واحد فقلنا لها هكذا أمر أمير السجن فذهبت متشفعة ومسترحمة لنا فقبل شفاعتها وأمر بوضع كل واحد منا فى قيود على حدته

امير السجن في منزله ونسائه

لامير السجن دار بالقرب من المسجد لم ينفق فى تشييدها قرشا بل كان يشغل المسجونين فى بنائها

وكان عنده من النساء خمس عشرة امرأة منهن واحدة مصرية من اللواتى أخذن مسبيات من الخرطوم والبقية من أجناس مختلفة من السودانيات

وكان له حارس اسمه طنبل الشايقي يجلس على باب المنزل وله سلطة كبيرة فى السجن اذ لا يؤذن بادخال طعام الى أحد المسجونين الا اذا رآه طنبل فاذا كان جيدا أمر بادخاله الى منزل أمير السجن واذا كان متوسطا دعا بقية الخفراء الى الاكل منه وقل ان يتركوا لصاحبه ربعه

وقد أطلق المسجونون على طنبل لقب (شنقل منقل) ومعناه المنشار يأكل صاعدا ونازلاً

هذا وقد ذكرت الضريبة الشهرية التى كنا نؤديها الى أمير السجن وعدا ذلك فانه كان يجمع المسجونين كلما أراد ان يشترى محظية أو يتزوج امرأة جديدة أو يولد له ولد ويخاطبهم قائلا انكم لا تجهلون انى لست تاجرا ولا زارعا بل انتم زراعتى وتجارتى فعليكم ان تجمعوا الى مائة ريال لانى أريد الزواج أو ولد لى ولد ثم يضرب لهم موعدا للدفع فاذا تأخروا أمر السجانين بتعذيب المسجونين فاذا كان الفصل شتاء يكون التعذيب بصب الماء البارد

على اجسامهم ليلا مع الضرب بالسياط واذا كان الوقت صيفا وضعوا الاغلال فى اعناقهم وجردوهم من ملابسهم واجلسوهم فى الشمس مع الضرب بالسياط أيضا

كل ذلك عدا ماتؤديه الى السجانين والخفراء فلكل واحد الحق فى طلب مايريده من المسجونين مثل مطالب اميرهم التى هى الضريبة الشهرية وضريبة المواسم والاعياد وضريبة الزواج وضريبة الاولاد

وعدد الخفراء يبلغ المائة ورؤساؤهم اربعة لكل واحد منهم نوبة يوم وليلة يتصرف فى خلالها التصرف المطلق بدون ادنى معارضة من امير السجن

صلاة المسجونين

من نظامات السجن ان المسجونين يصلون الصلوات الخمس جماعة ولهم امام منهم وفى كثير من الاحيان نكون وقوفا فى الصلاة فيهجم علينا الخفراء بالسياط ويضربوننا بحجة اننا لم نحسن الصلاة فنفزع ونترك الصلاة ونهرب مذعورين

وفى احدى ليالى الصيف قمنا لصلاة المغرب التى بعد انتهائها يدخلوننا الى الغرف التى تقدم لنا وصفها فرجونا الامام ان يطيل القيام والسجود لنتمكن من استنشاق النسيم في خلالها ففعل وكأن الخفراء ادركوا ذلك فوثبوا علينا بالسياط واوسعونا والامام ضربا فتفرقنا شذر مذر واسرعنا الدخول الى الغرف

ضريبة ريال كل يوم على المؤلف

قلت ان المسجونين يدخلون الغرف فى ليالى الصيف وفى كل ليلة

يموت بعضهم اختناقا وفى احدى الليالى اتفقت مع امير السجن على ان ادفع له فى كل ليلة ريالا وهو فى نظير ذلك يأمر بتركى جالسا عند باب الغرفة لاستنشق الهواء من شقوق الباب

ولقد كنت لا أملك قرشا من هذا الريال ولكننى أقدمت على الاتفاق معه رجاء تركى تلك الليلة فنمى الخبر الى أحد معارفى وهو يونانى اسمه الخواجه مانولى دياكوبنى كان تاجرا فى الخرطوم وله فى معى صداقة قديمة ومعاملات مذ كنت حاكما على أقاليم خط الاستواء وبعد سقوط الخرطوم وقع اسيراً فى قبضة المهدوية فاستعمله التعايشى فى صناعة الصابون فارسل الى أمير السجن وتعهد له بتأدية الريال فى كل يوم وان لا يطلبنى به بل يدفعه هو فى نظير مطاليب قديمة كانت لى فى ذمته وبذلك تمكنت من الجلوس خلف الباب كل ليلة واستمر الخواجا مانولى يؤدى عنى ضريبة الريال حتى من الله علىّ بالخلاص لما دخل اللورد كتشنر أم درمان فاتحا

النادرة العباسية في السجن

رأيت أن أعنون هذه النادرة بهذا العنوان لما تراه فيها من الخبر الغريب الذى أقصه عليك وقد كنت ذكرت ان التعايشى زوجنى امرأة من نساء الخرطوم اللاتى كن عنده وكانت لها أخت متزوجة بسودانى اسمه « عباس »

وفى ذات يوم دخل علىّ بضعة أشخاص من البقارة وكنت وقتئذ جالسا بالقرب من عبد منهم بقتل واسمه (عاكيش) فخاطبنى أولئك الاشخاص قائلين يافوزى فقلت نعم فقالوا أصدقنا ماهى قرابتك من عباس فقلت انه عديلى فقالوا كلا بل هو ابن أختك فقلت كلا كيف يكون ذلك وأنا

مصري وهو سوداني فقالوا وضح لنا الحقيقة فقلت لهم ان خليفة المهدي عليه السلام زوجني امرأة عباس هذا زوج أختها فقالوا يظهر انك لم تفهم كلامنا لانا نسألك عن (عباس خديوي مصر) وفي غضون ذلك كان شارل نيوفيلد قد وقف بجانبنا فالتفت اليه وقلت ان الفرق بيني وبين عباس خديوي مصر كالفرق بين خليفتكم وبين « عا كيش » هذا وأشرت الى العبد السالف الذكر فقالوا كذبت فقد علمنا انك خاله ثم انصرفوا عني وذهبوا الى امير السجن فقصوا عليه مادار بيني وبينهم من الكلام فغضب وامر الخفراء باحضاري فساقوني اليه بعد ان اوسعوني ضربا ولما وقفت بين يديه امر الخفراء بضربي حتى صرت استغيث فلا اغاث وبعد ان مزقوا جسمي امرهم بالكف عني وقال لي يا كافر انت شاك في خليفة المهدي عليه السلام فقلت ياسيدي ما الدليل على ذلك فقال انك قلت للذين كانوا يحادثونك « خليفتكم » ولم تقل خليفة المهدي عليه السلام وهذا يدل على كفرك فانكرت انى قلت هذه الكلمة واستشهدت بشارل نيوفيلد فاحضره بحالة تشبه الحالة التى احضروني بها وبعد ان اوسعوه ضربا سألوه فانكر انه سمع هذه اللفظة مني وأصر على الانكار فقال له انت تشهد لابن عمك وامر امير السجن بجلد شارل نيوفيلد خمسين جلدة وضاعفوا قيوده

اما انا فقد ضوعفت قيودي واغلالي وغلت يداى الى عنقي وامر بوضعي في الغرفة المعدة لمن يراد قتله وهي التى اعدم فيها القاضيان احمد بن على والحسين بن الزهراء اللذان تقدم لنا ذكرهما وهم امير السجن بالذهاب الى منزل التعايشي لاستصدار امر باعدامي وفي الحقيقة لو ابلغه القصة لامره بذلك فترامى المسجونون على اقدامه يرجونه الصفح عني فقال لهم لابدمن

ان يحضر عشرين ريالا فدخل على صديقاى ابراهيم حمزه ومحمد الشافعي عميدا بربر اللذان سجنا من أجل تهمة الاشتراك في تهريب سلاطين باشا وقالا ان أمير السجن وعدنا بالصفح عنك على ان تدفع له عشرين ريالا فقلت لهما كيف ذلك وانتما لاتجهلان انى لااملك قرشا من العشرين ريالا وليس عندى متاع ولا أرقاء غير عبدي المسمى «لدوم» وهو لايبلغ ثمنه عشرين ريالا مع ان قيمته الادبية عند توازى الآلاف من الريالات لانه كما تعلمان يطوف على منازل اصدقائى واخوانى المصريين يجمع منهم ماتجود به مروءتهم لغذائى وغذاء زوجتى وولدى فاذا كان لايعفينى فانى اختار الموت لارتاح ويبق عبدى «لدوم» ليقوم بحمل تغذية عائلتى الشقية اذ هو ينفق كسبه عليها زيادة على مايتبرع به المصريون لى فرقا لى ورثيا لحالتى ودفعا العشرين ريالا من مالهما وخلصانى من هذه الورطة التى لاارتاب ان التعايشى يأمر باعدامى لو وصلت اليه هذه القصة فجزاهما الله خير الجزاء وعوضهما عن ثروتهما وما خسراه من الاموال الطائلة التى انفقاها في السجن خيرا أما مثار القصة فان احد اعدائى وشى بى عند اقارب التعايشى وافهمهم انى خال مولانا الخديوى عباس حلمى باشا وقصده من ذلك زيادة تعذيبي او اعدامى لان انتسابا كهذا مما يضر ضررا بليغا بل يكون سببا للهلاك فتأمل في غباوة هؤلاء المهديين وظلمهم

ذكر ابطال القهوة

من غرائب احكام التعايشي انه امر بابطال الاماكن العمومية التى تباع فيها القهوة ويجلس الناس فيها للسمر واصحابها في الغالب من المصريين وهي عبارة

عن اكواخ من الخوص فيها كراسى من الخشب والجلدتشبه (العنقريب) وفي بداية الامر اصدر امرا بابطال المقاعد وان لايجلس شاربو القهوة الا على الارض فاستعاض اصحاب القهاوى عن المقاعد بالحصر السودانية التى تسمى (برشا) ثم وشي له واش بأن الذين يتسامرون فى القهاوى جلهم من المصريين وانهم اذا جلسوا فى تلك الاماكن يخوضون ويتحدثون فى شأنك وهم يطلقون عليك اسم (الزر) فاذا جلسوا تحدثوا مع بعضهم ماذا فعل الزر فيجيبون بعضهم فعل كيت وكيت فاصدر امرا بابطال القهاوي وجرت في ذلك محادثات ومداولات كثيرة وكان التعايشي ميالا الى وضع قانون يحرم به القهوة كتحريم الدخان الا انه عاد الى الصواب وقال لولا انى رأيت المهدي يشربها لحرمتها

ولاغرابة فى ذلك فان اعراب السودان الغربى الذين منهم التعايشي لايعرفون القهوة ولا البن ولما قدموا الى الخرطوم ورأوا الكثيرين من الاهلين يشربونها كانوا يجاهرون بانكار ذلك ويعدونه من دلائل قلة العقل وفقدان الرشد فيقولون ماهى الفائدة من شرب شيء شديد الحرارة مر الطعم أسود اللون وبعضهم يسميها « القطران » ومن الشتائم التى يشتمون بها الاهالى (ياشاربى القطران) ولهم نوادر كثيرة فى القهوة لاباس من ايراد بعضها لمافيها من التفكهة. منها ان اعرابيا قدم له «فنجال قهوة» ففتح فاه فلماوصل جوفه كان سببا فى موته ومنها أنه نزل اضياف من أهالى السودان على أحد امراء البقارة فقال لهم انتم اضيافى وانا ابذل الجهد فى اكرامكم اكراما حقيقيا اقدم لكم فيه الاغذية من الخبز واللحم واللبن والعسل اما الشيء القبيح الاسود فانه يدل على قلة عقل من يستعمله فلذلك لااقدمه لكم ابدا فضحكوا وقالوا نحن لانكلفك ذلك بل نصنعه بايدينا ونتناوله فقال لهم لولم

يكن قدركم معظما عندي لما سمحت لكم باستعمال هذه الدنايا في منزلي
وقس على ذلك وقد ذكرنا ان التعايشي كان يريد ان يحرمها لولم يعارضه الناس
ويخبرونه بان تجارة البن منبع ثروة عظيمة لبيت المال وانه هو رأى المهدي يشربها
ولولا ذلك لحمل الناس على تركها فتأمل

ذكر ختان المسيحيين واجبارهم
على تعدد الزوجات

كان فى السودان تاجر من اهل حلب الشهباء مسيحى اسمه «جورج اسلامبوليه» يتردد بالتجارة بين الخرطوم وكردفان حتى ادركته الثورة المهدية في مدينة الابيض فغادرها واسلم نفسه للمهدي صيانة لامواله وجاهر باعتناق دين الاسلام ولكنه مالبث طويلا حتى نكب وصودرت امواله واتهم بانه يبطن النصرانية ويقلد اطفاله الصلبان من داخل الملابس وانه يراسل الحكومة فى الخرطوم فضبط كتاب منه باحدي اللغات الاجنبية فطلب التعايشي مترجما يترجم له الكتاب فتصدي للترجمة يهودي اسمه (داود منديل) مع انه لايعرف لغة اجنبية وتوعد جورج بانه اذا لم يدفع له خمسمائة ريال ترجم الكتاب بما يوجب قتله فاسرع جورج باجابة ماطلبه اليهودى الذى ترجم الكتاب بان جورج يدعو الحكومة للتسليم للمهدوية ويحذرها مغبة عدم التسليم فسجن الرجل وصودرت امواله ثم اطلق سبيله وقدم الخرطوم مع المهدى وهناك اجتمع برجل آخر حلبي ايضا اسمه (نعوم العجبي) وتصاهرا بزواج اولادهما وكان نعوم مدعيا انه يعلم بعض العلوم الكيماوية فذهبا الى التعايشي ذات يوم وقالا انهما يعرفان

بصناعة صك النقود وانهما قادران على تحسين حالة المعاملة فقوبل طلبهما من التعايشي بالاستحسان فكتب الى أمين بيت المال يأمره بمساعدتهما على جلب مايطلبانه من القوالب بواسطه الترسانة فاخذ عاطلها ويعدهما من يوم لآخر حتى يدبر حيلة للايقاع بهما تخلصا من استيلائهما على دار الضرب الذى يتسرب من ايرادها شيء كثير الى جيب النور الجريفاوي امين بيت المال واقاربه القابضين على منابع تلك الايرادات. وبالجملة فانه اخذ يغرر بهما حتى انفقا نحو مائة جنيه من مالهما فى سبيل تهيئة القوالب واعداد المعدات

ولما يئسا وايقنا أنهما خدعهما النور الجريفاوى ذهبا متظلمين الى الطاغية التعايشي الذى استدعى النور وعنفه على ما ارتكبه فاخذ يعتذر بان ابدال المسكوكات يوقع بيت المال فى أزمة مالية شديدة اذ تكون النقود القديمة بأيدى الناس ثم يطلبونها مما ضرب حديثا ثم ذيل اعتذاره بأن ذينك الرجلين لايزالان نصرانيين فسأله التعايشي كيف يكونان كذلك وما هو الدليل على صدق هذا القول فقال الجريفاوي انهما وسائر الذين أسلموا على يد المهدوية لايزالون غلفا لم يختتنوا حتى الآن وهناك دليل آخر وذلك انهم لايزالون يحافظون على توحيد الزوجة فغضب التعايشي وأرغى وأزبد واستدعى القضاة وسائر المسيحيين الذين تظاهروا باعتناق الاسلام وفي مقدمتهم جورج ونعوم فسألوهم هل أنتم غلف فاعترفوا بذلك فدخل القضاة على التعايشى وأخبروه بهذا الاعتراف فخرج علي عادته متسربلا سربال القهر وخاطبهم بعبارات التعنيف ولم يسكن غضبه حتى بالغوا فى الاعتذار بانهم لم يمنعهم من الاختتان غير الخوف من ألم الجروح فقال لهم اذهبوا واختتنوا على يد متطبب اسمه شعبان فذهبوا وهم لايصدقون بالنجاة

وشرعوا فى الاختتان وكانت عدتهم نحو أربعمائة فكان الرجل يختتن مع ابنه وأخيه ومنهم من قاسوا آلاما شديدة من الجروح ومكثوا نحو شهرين طريحى الفراش

ثم بعد ذلك ذهبوا الى التعايشي اليه متظلمين من عدم مقدرتهم على نفقات اكثر من زوجة لما هم فيه من شظف العيش والفقر المدقع فلم يقبل منهم بل توعدهم فعادوا وشرعوا يعتقون الجوارى ويتزوجون بهن لان المسلمين لا يرضون بمصاهرتهم

وعلى ذكر ختان هؤلاء نورد هنا قصة مصرى مكث عدة سنوات لاعيش له ولا كسب الا من تهديد جماعة المسيحيين بأنه سيعرض على التعايشى أنهم غلف فكانوا يدارونه ويؤدون له ماشاء من المال حتى جاءت حادثة جورج ونعوم بما لا يستطيعون دفعه فكانوا يتذمرون منهما ويسخطون عليهما زيادة على ما أصابهما من ضياع مالهما ومقاساتهما آلام الجروح وزد على ذلك اضطرارهما الي تعدد الزوجات التى لم يجدوا منه مفرا

ذكر سجن ابن المؤلف

مر الكلام على ان زوجتى كانت على وشك الوضع لما سقطت مدينة الخرطوم وفى شهر ذى القعدة سنة ١٣٠٢ سكنت بالخرطوم ابتغاء الحصول على قابلة مصرية تساعدها علي الوضع وقد تقدم انى بسبب ذلك وشى بى للتعايشى واتهمت بانى انما قدمت الخرطوم لتدبير مكيدة ضد المهدوية ولذلك أمرت أنا وسائر المصريين بمغادرة الخرطوم وسكنى أم درمان التى بعد ان وصلت اليها بايام قلائل وضعت زوجتى غلاما سميته (محمد فوزى)

ولما أن سجنت كان عمره زهاء عشر سنوات فوقعت عائلتى في

الشقاء الاليم ولما مضى عليّ ثلاث سنوات ونصف في السجن كان سن ابنى هذا عشر سنوات وشهورا فذهب فى أحد الايام الى التعايشى باكيا مسترحما يسأله ان يطلق سراحى فرق له وقال له اذهب الى أهلك وأخبرهم انى ساطلق عقال أبيك فى الغد فاقضوا ليلتكم هذه بفرح وسرور فذهب الولد واخبر اخوته بذلك فقضوا تلك الليلة بفرح وسرور

وفى الغد ذهب الولد مستنجزا للوعد فاعرض عنه التعايشى فصار يتعرض له حتى التفت اليه غاضبا وقال لمن حوله «هل يلد الثعبان الا ثعبانا» فقالوا نعم فقال «وهل يحسن بالانسان ان يربى ابن الثعبان» فقالوا كلا فقال أليس هذا الولد ابن المنافق ابراهيم فوزى فقالوا بلى فقال لابد من الحاقه بابيه فاستدعى كاتب أخيه يعقوب المسمى «بانّ النقاموسى» وقال له خذ هذا الولد الى بيتك وضع في رجليه القيود ووكل به غلمانك يحرسونه ويشغلونه بسياسة خيلك ودوابك

فأخذه بانّ النقا ووضع فى رجليه القيود ومع كونه كان يراعيه ويرأف به فى السر فانه كان يلاقى من عبيده وخدمه المذلة وسوء المعاملة

والسبب في اخلاف التعايشى ماوعد به وعدوله الى حبسه انه فى نفس اليوم كانت جواسيسه قبضت على واحد من جواسيس اللورد كتشنر جاء أم درمان من قبل سلاطين باشا لارسال مكاتيب الى بعض الناس وكان ذلك الجاسوس يسأل بعض الناس هل ابراهيم فوزى حى يرزق وهل شارل نيوفيلد على قيد الحياة وسأل عن بقية المسجونين بتهمة تهريب سلاطين باشا كابراهيم حمزة وغيره من الذين مر ذكرهم فقبض على ذلك الجاسوس وكانت الحملة المصرية وقتئذ في دنقلة

والخلاصة ان الولد بقى محجورا في منزل بان النقا الى يوم دخول اللورد كتشنر أم درمان ظافرا حيث أصيب بان النقا بجروح بليغة كانت من أقوى الاسباب على نجاة الولد لانه لما انهزم التعايشي وركن الى الفرار انفذ الى بان النقا يأمره باللحاق به مستصحبا الولد فلم يستطيع مغادرة فراشه بسبب الجراح ولما دخل كثير من اخواني الضباط المصريين منزل بان النقا ورأوا الولد فيه وضعوا الحراس علي المنزل لحفظ من عبث بعض الاعراب الموالية للحكومة وهم الذين اعملوا النهب والسلب على أثر دخول الجنود المدينة

أما تأثير حبس ابني علي فكان سيئاً جداً حيث فقدت الرشد ولقد أخبرني من كانوا حولي أنه لما فاجأني ذلك الخبر قطعت سبحتي وقلت وأنا ذاهل يا الله رضيت ببلائك في نفسي ولزمت طاعتك شاكرا على السراء والضراء فابتليتني بحبس ابني لاتركن الصلاة وسائر العبادات

ولما عدت الى صوابي واخبروني بما قلت أسرعت بالتوبة والاستغفار وعدت الى ما أنا فيه من ملازمة الفكر والانقطاع الى الذكر ولم أعلم أن رحمة الله تعالى ستدركني وابني الذي صار حبسه سببا لصيانة من حبس عنده فالحمد لله الذي انقذني وابني وجعل لنا بعد الضيق فرجا وبعد الخوف أمنا ونجاة

التعايشي قبل حملة دنقلة

لما تمكن التعايشي من قهر أقارب المهدي وسجن مناظره الخليفة شريفا كما تقدم اطلق لاقاربه البقارة العنان في البلاد يظلمون وينهبون وعكف على شهواته وصار يركب العربة التي ذكرنا في اخبار فتوحات خط الاستواء ان الطيب الذكر غردون باشا جلبها من القاهرة ليقدمها هدية الى

الملك « امتيسه » صاحب أوغنده وقتئذ

على ان هاته العربة لم تكن مقصورة على ركوبه بل كانت تسير في شوارع المدينة ليلا فيها الخصيان ليقبضوا على النساء البارعات فى الجمال ويعضوا بهن الى دار التعايشي فيلبثن بها حتى اذا قضى وطره منهن أعادوهن الى بيوتهن وقد كانت بداية عملهم هذا أثر القبض علي الخليفة شريف وسائر أقارب المهدى الذين نفوا وقتلوا فى زمن تلك الحوادث المريعة ولا فرق بين امرأة ذات بعل أو أيم أما ذات البعل فان الخصيان يفهمون بعلها أن خليفة المهدي يريد اسماعها مواعظه التي يسمونها (المذاكرة) وأما التى لابعل لها فليسوا في حاجة الا الى أخذها وادخالها العربة

ومن اللواتي أخذن بهذه الصورة زهراء بنت محمدشقيق المهدى الذى تقدم انه قتل يوم الهجوم على الابيض عاصمة كردفان وكانت تحت أحد أقاربها الذين نفاهم التعايشي الى خط الاستواء وكذلك فعل ببنات حامد شقيق المهدى وقد مر أنه قتل فى احدى وقائع جبال قدير

وقد كان التعايشي متزوجا بأم كلثوم بنت المهدي وأولدها بضعة أولاد ثم طلقها لغير ذنب جنته غير انه أراد الاقتران باختها مريم لجمالها المفرط حيث تزوجها ودخل بها بعد وقوع الطلاق بيوم وليلة

أما المظالم فقد تضاعفت ويئس الناس من الخلاص بثورة داخلية حيث تمكن الطاغية من القضاء على كل قوة يتوقع منها القيام للخلاص من ظالمه

وبالجملة فان حلقات المصائب قد استحكمت ولم يبق للناس صبر على الخطوب المتوالية والمصائب النازلة على رؤسهم حتى انهم كانوا ينقطعون فى

الخلوات يضرعون الى الله أن يخلصهم من هذا البلاء واذا سمعوا بشيء من أخبار الحملة ظهرت عليهم علامات الفرح والسرور وبذلوا الصدقات للفقراء والمعوزين شكرا لله تعالى وقد كان التعايشي أول من أنبأ بتقدم الحملة علي دنقلة قبل تقدمها ببضعة شهور وسيأتي ذكر ذلك

جواسيس المهدوية

قلنا فيما مر ان أهالى مديرية الحدود كانوا ميالين الى دعوة المهدوية فى بداية امرها وخصوصا (البرابرة) الذين يسكنون بين أسوان وحلفا

وقد أشرنا الى العذاب المهين الذى أرهقهم به النور الجريفاوى فى بربر اذ كانت مغبته نفورهم عن المهدوية وانحراف جلهم عن موالاتها وقبل ذلك كان جلهم يتقربون الى المهدوية بابلاغها أخبار الحكومة بغلو فاحش فى اسناد العيوب اليها ونسبة الوهن الى حامياتها فى الحدود وبقى كثير منهم على الولاء حتى قتل عبد الرحمن النجومى حيث كانوا يستعدون لمعاونته والانضواء الى لوائه بالرغم عن فظائع النور الجريفاوى التى عامل بها تجارهم لولا الحيطة التى اتخذها السير غرانفيل باشا سردار الجيش المصري وقتئذ

ويقال ان الاسباب التى دعت هؤلاء الى التمسك بولاء المهدوية والانحراف عن الحكومة هى تحرير الارقاء وابطال النخاسة

واذ ذاك أى فى بداية دعوة المهدوية كان كبراء مديرية الحدود كما قلنا يراسلون أمراء المهدوية بالاخبار ويتطوعون لهم بالتجسس وفى كثير من الاحيان كانت أخبار سواكن وما يقع فيها من الحوادث تبلغ التعايشى قبل وصول بريد سواكن اليه فكانوا اذا حملها البرق من سواكن يتلقاها الروادف

الحدود فيذهبون بها على ظهور الهجن الى بربر وقد اتهمت الحكومة كثيرين من هؤلاء الكبراء وحاكمتهم أمام المجالس العسكرية ولكنها لم تتمكن من قطع دابر جاسوسية التعايشي التى لم تعد بفائدة عليه

وفى الايام الاخيرة صار للمهدوية جواسيس بعضهم يتجسسون ليونس الدكيم أمير دنقلة وبعضهم للتعايشي وآخرون للزاكى أمير بربر

وكان من أشهر جواسيس التعايشي رجل يدعى ولد الحسين وأصله سوداني وآخر يدعى أبا شعبان وهو مصرى من سكان مديرية الحدود وللاول منهما نادرة مع سلاطين باشا وهى أنه وشى به الى التعايشي بانه على أهبة الفرار حتى خيف من التعايشي علي سلاطين باشا الذى تمكن من استمالة القضاة الى جانبه حتى وشوا بولد الحسين الجاسوس عند التعايشي فحبسه وارتاب فى صدق مارفعه اليه من الانباء

أما أبو شعبان فكان التعايشي ذا ثقة عظيمة به وكان يتردد على الحدود المصرية ومع شهرته التى لايجهلها جواسيس قلم المخابرات كان يعود دون أن يصيبه مكروه حتى ذهب بعض الناس الى انه مأجور لقلم المخابرات ومتواطىء معه علي ان لايبلغ التعايشي خبرا الا بموافقته

والحاصل انه كان للتعايشي جواسيس ولكنهم قلما يرفعون اليه مايستفيد منه العلم بشىء قبل وقوعه

على ان جواسيسه رفعوا اليه قبل حملة دنقلة ببضعة شهور ان الحكومة مصممة على الزحف الى دنقلة واستدلوا على ذلك بأنها جمعت الملاحين الذين لهم خبرة بالشلالات الواقعة جنوب وادى حلفا ولما اتصل به هذا النبأ أمر باخراج تجار المصريين من البلاد وضرب لهم موعداً يخرجون فيه ومن تخلف منهم

صودرت أمواله ونفى الى أعالى النيل

هذا مافعله حينما اتصل به الخبر وهو يدل على ما مر من عدم حصول فائدة للتعايشى من هذا التجسس

ويقولون ان أغاب جواسيسه متفقون مع الحكومة عليه ومنها يتلقون مايرفعونه اليه ولا ينافى ذلك ماقلناه من ابلاغهم اياه أمر الحملة قبل حركتها ببضعة شهور اذ يحتمل انهم موعز اليهم بهذا الامر ليرى الموعزون مايكون من وراء ذلك

والخلاصة ان رواد التعايشى كان جلهم من أهالي مديرية الحدود وأخبارهم ملفقة مبالغ فيها كقولهم للتعايشي ان حكومة مصر فى رعب شديد وكلما طرق آذان رجالها ذكرك ارتبكوا وكذلك أهلوها فانهم يصرعون خوفا وجبنا كلما سمعوا بذكرك فيتمايل طربا ويظن أن ماقالوه حق

على انه يوجد فى البلاد رواد ولكنهم قاصرون فى ارتيادهم على ضبط السكيرين وصناع البوظة والمدخنين والذين يتاجرون بالدخان

وفى كثير من الاحوال يتناولون الرشا منهم ويتركونهم ويلفقون الدعاوى الكاذبة على من كانوا مظنة المال ليتوصل بيت المال الى مصادرة أموالهم بمجرد اتهامهم بوجود دخان أو بوظة فى منازلهم وقد خطب التعايشي يوما فقال ان القدر الذى يوجب مصادرة المال من الدخان هو ربع درهم ومن البوظة ربع رطل وربما دفع المتهمون الالوف من المال بغية النجاة من الضرب والتعذيب والاهانة ومصادرة المال

ذكر جلب الممنوعات من مصر

ومن أنواع جواسيس التعايشى ناس يجلبون له «الممنوعات» من مصر وهى الذخائر الحربية التى منعت الحكومة ارسالها الى السودان ولذلك أطلقوا عليها اسم « الممنوعات »

وقد تقدم ان التعايشى أنشأ معامل لتعبئة الخرطوش وغيره من ذخائر الحروب

وقد مر الكلام على الرصاص فى قصة الايقاع بالمقدم عمر الجعلى وكذلك ما أتاه المسمى كمال الدين الهندي الذى أحرق رفات قتلى الخرطوم ومثل باشلائهم أبشع تمثيل مدعيا أنه يستطيع اخراج صنف البارود من تلك العظام وقد ذكرنا فشل جميع هؤلاء الدجالين ماعدا اليونانى برديقاجى فانه وفق لاستخراج صنف البارود ثم احترق هو واعوانه لما انفجرت عليهم آنية البارود

وقد كان نجاح هذا اليونانى متوقفا على ايجاد شيء كثير من العقاقير الكيماوية التى لاتوجد فى السودان لاتمام تجهيز «عجينة الكبسون» و(ملح البارود) وغيرهما من المواد القابلة للانفجار التى على محورها يدور عمل المعامل الحربية ولا سبيل الى ذلك الا بجلبها من القاهرة فاهتم التعايشي بهذا الامر واستقدم اليه النور الجريفاوى وكان يومئذ أمينا لبيت مال بربر وفاوضه فى ذلك الامر فأشار عليه بالاتفاق مع جماعة من تجار بربر وأم درمان للاستعانة بهم على التحايل على تهريب تلك «الممنوعات» وهؤلاء التجار هم (عمر كشه) وأصله من أهالى سواكن و(على محمود الضوى) وأصله مصري من مديرية الحدود

استوطن أبوه بربر (وعبدالرحمن منصور) من أهالى أم درمان وصهر النور الجريفاوى فصار هؤلاء التجار ينفذون أعوانهم الى مصر فيبتاعون الممنوعات ويحتالون على تهريبها بوضعها في أكياس الارز ومن العجيب ان الحكومة لم توفق لاحباط أعمالهم حتى استمروا على ذلك عدة أعوام وجابوا مقادير عظيمة من الرصاص وغيره من العقاقير وتمكن أعوان على محمود الضوى من استحضار ذخيرة من خرطوش مدفع «المتراليوز» الانكليزي الذى غنمته المهدوية من حملة الجنرال هيكس وكان التعايشي يؤدي لهم الاثمان مضاعفة ويتجاوز لهم عن مكوس سلعهم التى يصدرونها الى مصر أو يجلبونها منها تنشيطا لهم فكانوا يجلبون هذه الاشياء دفعتين فى العام وفي بعض المرات بلغ ماجلبوه مقدارا عظيما من الرصاص وارتقت همة على محمود الضوى الى انه ابتاع نحو ألف وعاء من الاوعية التى يسمونها «شنطه» ووضع فى كل واحدة خمسين خرطوشة جلبها من مصوع ويقال ان الحكومة لم توفق الى معرفة حيلهم واحباط أعمالهم الا فى الايام الاخيرة

والحاصل ان هؤلاء التجار كانوا من أقوى الاسباب في تقوية المهدوية وامدادها بالذخيرة التى لولاها مااستطاعت محاربة الاحباش في القلابات والشلك في فشوده وغيرهما من الحروب الاهلية التى شبت نيرانها فى دارفور واكثر انحاء السودان وكان أبو شعبان الجاسوس الآنف الذكر ممن يجلبون الممنوعات أيضا

ذكر غارة الدراويش على الواحات

لما افلح عثمان ازرق فى الغارة على (آبار المرات) وقتل صالح بك خليفة

كما مر وكان يونس الدكيم أميرا على دنقلة وقتئذ من قبل التعايشي وعثمان ازرق قائدالدراويش المعسكرين في الجهات الشمالية بالقرب من ضواحي حلفا

وكان عثمان هذا لاينفك عن الغارةعلي الجهات الواقعة شمال حلفا طمعا فى السلب والنهب وكان يونس الدكيم يرسل الكتب تباعا الى التعايشي مفعمة بالثناء على عثمان ازرق واقدامه وما حازه من النصر المتتابع فى وقائعهوسطواتهالتى أضربنا صفحا عن جلها ولم نذكر الا القليل منها اذ هي أشبه بما يجرى من عصابات السطو واللصوصية

وفى أوائل سنة ١٣١١ هجريه كتب التعايشي الى يونس الدكيم كتابا يأمره بانفاذ عثمان ازرق فى الف راكب علي ظهور الابل للغارة علي الواحات وكان ذلك اجابة لالتماس يونس الذى كان يشحن كتبه الى التعايشي بذكر الواحات وما فيها من المال الذى سيغنمه اذا أغار عليها فتحركت اطماع التعايشي وأمره بالغارة عليها وأوصاه أن يفاجئها تحت ظلام الليل

فسار الالف راكب يقودهم عثمان ازرق وبعد ان مضى عليهم بضع ليال فى السير واقتربوا من الواحات أنفذ عثمان العيون ليأتوه بالخبر فقضوا الليلة وعادوا فى الغد وأبلغوه ان أعراب الواحات كثيرون جدا وأن أطنابهم متدانية من بعضها وعندهم الاسلحة النارية وليس بينهم حامية للحكومة بل هناك ضابط للشرطة ومهندس لحفر الآبار فخاف عثمان ازرق مغبة محاربة أهل الواحات فعول على خديعتهم حيث زحف فى مقاتاته حتى بات قريبا من احيائهم ثم تقدم اليهم فى الغد بصفة سلمية وأفهمهم ان يونس الدكيم أمير دنقلة نازل علي مسافة مرحلة من حيهم وانه قادم لفتح مصرعن طريق الواحات وانه جاء من قبله لبذل الامان لهم فانخدع الاعراب وراجت

عليهم حيلته ثم قال لخمسة عشر عميدا من رؤساء القبائل وللمهندس اذهبوا معي لمقابلة الامير فامتطوا الحمر وذهبوا معه وهو يخدعهم بقوله هو نازل وراء هذه الربوة أو الغابة حتى مضى النهار كله وحينذاك ايقنوا بانهم خدعوا وان القصد من ذلك ايصالهم الى دنقله التي بلغوها بعد بضع ليال

ولما وصلوا دنقله استقبلهم يونس الدكيم وأطلق واحدا وعشرين مدفعا علامة الانتصار وكانوا في حالة سيئة من شدة ما نالهم من وعثاء السفر الفجائي ثم لم يلبثوا في دنقله الا ليلة وبعض يوم ثم أرسلوا الى أم درمان تحت الحفظ

ولما مثلوا بين يدي التعايشي عاتبهم وألان لهم القول قائلا نحن واياكم اعراب وكلنا نبغض الترك الكفار وننفر منهم فلماذا لم تنضووا الى لواء المهدوية وتحاربوا الترك الكفار الذين نبذوا الشريعة وتمسكوا بالبدع وأصروا على الكفر

فأجابوه بقولهم نحن نتوب الي الله مما سلف ونحمد الله الذي قدر لنا الخلاص من ربقة الكفار ومن علينا برؤية وجه خليفة المهدى عليه السلام فأمرهم بمبايعته فبايعوه ثم استدعى أحد التجار وأمرهم بالاقامة في داره وخصص لهم مرتبات من بيت المال فقام التاجر بكل لوازمهم بجد وسخاء أما بيت المال فانه كان اذا تقدم مرتب شهر ماطلهم ثلاثة شهور وهذا التاجر اسمه (البلال الاسيده) وهو رجل سخي مشهور بالرأفة بالمصريين الاسرى وخصوصا المؤلف وقد مكثوا على هذا الحال زهاء عامين كانت حالتهم فيهما تنتقل من سيء الى أسوأ

وفي ذات يوم استدعاهم التعايشي الي منزله بحضرة القضاة وأهل

الشورى وقال لهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم أخبره بان سرائرهم قد ماثت بالاخلاص للمهدوية وانه عليه الصلاة والسلام امره ان يعيدهم الى اوطانهم دعاة للمهدوية وأمراء على عشائرهم ليصدعوا في الواحات بدعوة المهدية ويناوؤون الحكومة المصرية فرقصت افئدتهم طربا لما لاحت لهم بارقة النجاة ولكنهم بكوا وانتحبوا وأظهرا كراهة ان يكونوا بعيدين عن خليفة المهدي الذي كان يكثر الالحاح عليهم بوجوب الامتثال لما اشار به الرسول صلى الله عليه وسلم وهم يتأسفون وينتحبون وما زال بهم حتى ثابوا الى الطاعة وكتبت لهم صكوك الامارة وتلقوا التعليمات ونقدهم بيت المال نفقات السفر وشدد عليهم في موافاته بالضرائب التي يجلبونها من أعمالهم فغادروا أم درمان وهم وجلون لا يصدقون بالنجاة حتى بلغوا الحدود المصرية وهناك مزقوا المرقعات ودفعوا للحكومة صكوك الامارة ومنشورات الدعوة واعلموها بما وقفوا عليه من ضعف المهدوية وانحراف الناس عن طاغيتها وكانت نجاتهم في الزمن القريب من حملة دنقلة

دنقلة قبل الحملة عليها

انتهينا في الكلام عن دنقلة فيما مضي من الكتاب الى ذكر المجاعة التي فشت فيها سنة ١٣٠٦ والى ذكر عزل عبد الرحمن النجومي عن امارتها وولاية يونس بن الدكيم

وهنا نشرع في الكلام على مدة يونس التي ابتدئت من ذلك العهد تبيينا للمظالم التي دمرتها فنقول

لما تفشت المجاعة فى دنقلة وغادرها عبد الرحمن النجومى الى حيث لاقى حتفه فى (طوشكى) ضعف أمر الاحزاب التى كانت متشيعة له وهجر أهالى دنقلة الشمالية أوطانهم فارين من وجه الظلم حيث لحقوا ببلاد مديرية الحدود

وكان يونس قد عزل كل الجباة الذين أصلهم من أهالى السودان الاوسط أى الذين لم يكونوا من البقارة وعين نحو سبعين جابيا من عبيده بدلهم

أما طريقة جباية الخراج فقد ذكرنا فيما مر من هذا الكتاب أن الضريبة فى دنقلة منذ دخول السودان تحت طاعة مصر كانت عقارية ولما كانت بلاد دنقلة خصبة ومن حاصلاتها القمح والذرة واللوبيا التى هى متعددة الاصناف عدا التمر وريها بالآلات كالسواقى والشواديف فقد اخترع يونس لجباية ضريبة الحبوب طريقة سماها (التخريص) وهى ان الجابى يذهب الى المزرعة ويقدر ان محصولها يبلغ كذا فيلزم الزارع بتأدية نصف التخريص الذى لا يقل عن ثلثى المحصول ثم يلزم صاحب الزرع بتأدية ريال مجيدى عن كل أردب من المطلوب تأديته وهذه الضريبة ليست لبيت المال بل هى للجابى ويسمونها (ضيافة العامل) وزد على ذلك أنهم كانوا يطلبون من كل زراعة تبلغ مساحتها فدانين فاقل نحو عشرة ريالات قيمة ثمن التبن اذا كان المحصول قمحا وقيمة ثمن البوص اذا كان من الذرة أو الجذور اذا كان من اللوبياء

وهناك ضريبة أخرى تجبى لغذاء الامير يونس الدكيم وتتجدد كل شهرين أو ثلاثة وهى ضريبة المسلى والاغنام وهى لا تقل عن عشرة ارطال وخروفين عن كل مزرعة فيرسل السبعون جابيا للامير ما يجتمع عندهم واقل ما يتحصل من ذلك عشرون قنطارا من السمن ومائة راس من الاغنام

أما الضرائب التى لا تدخل تحت قيد فكثيرة منها ما سببه اعسار بيت المال

الذي يضرب بسببه على كل شخص قدر من المال يؤدى له ونفقات البعوث والسرايا وهى أجل من أن تدخل تحت حصر

واذا سافر جيش أو سرية من الدراويش من مكان لآخر فانهم لايحملون ميرة ولا علفا لدوابهم بل ينهبون ويأكلون ويذبحون قطعان الماشية في الطرقات ولايستطيع أحد من الاهلين منعهم أو الحيلولة بينهم وبين مايريدون

وعلى أثر ذلك استأثر يونس ومواليه بخيرات البلاد وانطلقت أيديهم في أموال الناس وبات الاهلون تحت اثقال هذا الظلم يئنون

وقد مدّ موالى يونس أيديهم الى الاعراض واستحلوا نكاح الحرائر المسلمات بملك اليمين فكنت تجد عند الواحد منهم اكثر من أربع حرائر وكانوا يبعثون بالنساء الحسان الى التعايشي وأخيه يعقوب وابنه شيخ الدين وجميع كبراء البقارة

ومكث يونس علي هذه الحالة ثلاث سنوات ثم عزله التعايشي وولى بدله محمد خالد زقل الذى كان أميرا علي دارفور وقد ذكرنا شيئا كثيرا من سيرته فشرع في تخفيف الوطأة عن الدنقلايين لانه دنقلى منهم ولكن مدته لم تطل حيث عزل بعد سنة وسجن ثم نفى الي خط الاستواء

وقد أعيد يونس الى الولاية وعادت كل المظالم التى ابتدعها ومكث كذلك الى ماقبل الحملة عليها ببضعة شهور

ويونس هذا أصله من قبيلة (التعايشة) التى منها التعايشى وكان زوجا لام التعايشى وكان قصير القامة جدا وجسمه ضئيلا نحيفا وكان أميا لايعرف الكتابة والقراءة يأتيه الناس فيقولون له انك شجاع وان الاسود فى آجامها تفزع منك وان ملامح وجهك ترعب من ينظراليها

وانه اذا ذكر اسمك فى مصر ولوندره يموت الناس فزعا فينتفخ من هذا الثناء الكاذب ويلتفت لمن حوله من الرجال والمشيرين فيقول لهم أما سمعتم مايقول هذا الرجل فيقولون سمعنا فيقول وهل صدق الرجل فيقفون على أقدامهم ويرفعون أصواتهم قائلين ياسيدنا الامير اتطلب منا دليلاً على الشمس والى متى تنكر صفاتك التى لايجهلها أحد وانت فوق الاسود شجاعة وعزيمة ويحلفون انهم في حالة وجل وروع شديدين من رؤيةوجهه والدنو منه فيطير سروراً ويأمر في الحال بضرب الطبول ودعوة المقاتلين للاستعراض ثم ينعم بالمال على الرجل الذي اثنى وعلي الذين ايدوا أقواله

هذا مع انه جبان لم يذكر بمنقبة فى حرب وقد ظهر جبنه فى سنة ١٣٠٣ لما أنفذه التعايشى لقتال عساكر بن كلام زعيم قبيلة (الجمع) شرق كردفان لما خلع طاعة المهدوية وكان عساكر هذا فارسا مقداما يشق صفوف الرجال ويزحزح الابطال وكان كلما حمل ليبارز يونس يختفى منه ويقول لمن حوله اياكم ان تتركونى ابارز هذا الشقى ثم يتظاهر بانه سيهجم عليه فيتعلق الناس بدابته فيرجع قائلا أما لو تركتمونى لمبارزته لجندلته لكم علي الارض بغير سلاح بل كنت اختطفه من قربوس سرجه واجلد به الارض وكان هذا حاله طول الايام التى نشبت فيها الحرب بين الجمع حيث انتهت بقتل عساكر وعودة قومه الى الطاعة

أما قسوته وغلظته فحدث عنهما ولا حرج فانه كان اذا أمر بحبس واحد أمر خمسين من عبيده بالاحاطة به وضربه بالعصي والسياط حتى يبلغ السجن وهم يسمون هذه العادة (الفرقة) أى المسافة مابين منزل الامير والسجن وهى لاتقل عن ميلين وقد لايصل المسجون حيا بل يقضي عليه وهو فى الطريق

ونقل لى أحد الثقاة ان يونس أمر بسجن على بن الامين أحد صغار القواد وابن الشيخ محمد الامين رئيس علماء السودان الذى ذكرناه مرارا فى هذا الكتاب فاحدق به مائة وخمسون عبدا وأخذوا يضربونه (القرقة) حتى بلغوا به السجن مغشيا عليه ومكث يوما وليلة لايعى شيأ فيئسوا من حياته وبعد أيام أمر بالناقل أيضا الى السجن لذنب طفيف فاسرع الى الاقتراب منه ووقع على الارض وانكفأ على بطنه وقال له ياسيدى الامير اتوسل اليك ان تأمر بضربى (القرقة) أمامك ثم تحظر على الحراس أن يضربونى فى الطريق فضحك وقال أأنت خائف من القرقة فقال كيف لا أخاف فقال له أتتوب فقال تبت الى الله والرسول والمهدى وخليفة المهدى ومولاى يونس فقال قد عفوت عنك فانهض ولا تخف .

هذا قليل من كثير من أخبار يونس التى لاتسعها المجلدات الضخمة أوردناه للدلالة على ما كان يقاسيه الدنقليون من حيفه وسوء معاملته

وقد هلك نحو ثلاثة أرباع السكان وأمست أراضيهم قفرا بلقعا. وكانت وفودهم تشخص تباعا الى التعايشى متظلمة من جور عماله فلا تجديهم الشكوى ولا ينفعهم التظلم وكثيرا ما كان يسجن الشاكين وينكل بالمتظلمين والخلاصة انهم انقطعوا عن الشكوى وصبروا على مر البلوى حتى أراد الله تعالى انقاذهم فحملت الحكومة على دنقلة وأجلت الدراويش عنها فخرجوا منها مذمومين مدحورين كما سيأتى ذكر ذلك فى مكانه والله الهادى الى سواء السبيل

ذكر مسألة العقرب مع التعايشى

يوجد بام درمان الحشرات السامة بكثرة فوق التصور وخصوصا نوع

العقارب لانها كانت قبل اتخاذها عاصمة للمهدوية برية ليس فيها زرع ولا ضرع وأرضها مكسوة بالحجارة ويستحيل نجاة من لسعته عقرب الا اذا كانت صغيرة وكثيرا مارأيت عقربا يبلغ طول مابين رأسها وذيلها عشرين سنتمترا

وفى ذات يوم وقف التعايشي لصلاة المغرب فابصر بعد تكبيرة الاحرام وقراءة أم الكتاب عقربا تدب نحوه فارتاع وصار يكرر قراءة الفاتحة ويشير بيده الى من خلفه من المصلين فلم يفهموا قصده بل ظنوا وقوفا فى الصلاة ولكنهم ادركوا انه لم يكرر قراءة الفاتحة الا لسبب قوى من الاسباب فقطع المدعو (الحاج الزبير) أحد حراسه الصلاة ولحقه فى حالة الاضطراب والفزع الشديد من العقرب ووقف بازائه فاشار بيده الى العقرب فقتلها ثم ان التعايشي خرج من الصلاة بتسليمة وهو فى خجل شديد من اعتقاد الناس جبنه الى هذا الحد فجلس مضطربا وقد بلل العرق جبينه وبعد ان ثاب اليه رشده قليلا عزم على التخلص من ذلك بوضع اكذوبة فى غاية الغرابة حيث جلس وألقى على الناس خطبة هذا نصها.

اعلموا ياأصحاب المهدى عليه السلام ان هاته العقرب لم تجسر على الدخول فى هذه المقصورة الا لان ساعة انقضاء حياتى كانت وشيكة غير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهدي والخضر عليهم السلام حضروا فى هذه اللحظة واخبرونى انهم سألوا الله عز وجل تأخير منيتى لان الامة في حاجة شديدة الى هذا التأخير وقد أمروني بقتل هذه العقرب . أما الدهشة التى ظهرت علاماتها علىّ فانها نتيجة أسرار لا يمكن اخباركم بها كانوا يخبرونى بها حتى ودعوني وانصرفوا

الكبار ومن خيرة أصحاب المهدي جعلكم الله مثله ومكث نحو ساعتين يقرر هذه الخرافة ولم يصل المغرب الا في آخر الساعة الاولى من الليل

أما الحاج الزبير هذا فانه رجل كثير التملق والاحتيال وقد ذكرنا فيما مضى ان التعايشى كان يشاوره في بداية خلافته ويستمد منه الآراء ولكن مدته لم تطل حيث نكبه وصادر أمواله بعد خلافته بعامين لظهور خيانته مع عمه عبد الله الطريفى الذي كان عاملا للمهدوية على القضارف وقد نكب عبد الله المذكور وسائر اقاربه أيضا وحبسوا وعذبوا ليظهروا خبايا أموالهم

وقد ذكرت ان عبد الله الطريفى هذا وشى بى عند التعايشى لما كان ينوي اتقاذي مع دراويشه الى خط الاستواء وقد كافأته على هذا حيث نصحت التعايشى أن لا يولى غير أقاربه البقارة

ومكث الحاج الزبير مسجونا نحو عام ثم اطلق سراحه لكنه لم يعد الى منزلته الاولى

وكان اذا ناداه التعايشى يرفع صوته قائلا (لبيك ياخليفة المهدي عليه السلام) ثم يظهر التغير فى صوته والاضطراب فى جسمه كأن هيبة خليفة المهدي ونور محياه هما اللذان نشأ عنهما ما اعتراه وقد مكث بعد اطلاقه من السجن مجفوا من التعايشى الذي لم يعده الى منزلته الاولى الا بعد حادثة العقرب التى شرحناها في هذا الباب وأخيراً توفى حتف انفه قبيل فتح أم درمان وكان أبوه عبد الرحيم الطريفى أمينا من قبل التعايشى على احدى الورش الحربية التى تصنع بها الذخيرة والمعدات الحربية

وبالجملة فان الحاج الزبير هذا هو الذي قوى عزم التعايشي على البقاء بام درمان وثناه عما كان عازما عليه فى بداية خلافته من ان يأخذ نصيبا من الاسلحة ويغادر أم درمان ويؤسس دولته بغرب السودان

﴿ انتهى الجزء الثانى من كتاب السودان بين يدي كتشنر وغردون ﴾

« ويليه الجزء الثالث وأوله البدء بحملة دنقلة »

(كل نسخة من هذا الكتاب تكون مختومة

بختم المؤلف الذي هو هذا)